بارادیسیوس

شهاب عبد الله

باراديسيوس

رواية

ميّارة للنشر والتوزيع
MAYARA PUBLISHING & DISTRIBUTION

المؤلّف : شهاب عبد الله
عنوان الكتاب : باراديسيوس
تصميم الغلاف: ميّارة غرافيك
الإخراج الفنّيّ والتصفيف الداخليّ: ميّارة غرافيك
الناشر: دار ميّارة للنشر والتوزيع
محضنة المؤسّسات برقّادة، المكتب عدد1، القيروان
الهاتف: 21880445 / 99095008(216+)
البريد الإلكتروني: mayara.editions@gmail.com
الطبعة الأولى: تونس 2019
السحب: 1000 نسخة
ر.د.م.ك: 978-9938-31-026-9
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

الثمن داخل تونس: 15 د.ت
الثمن خارج تونس: 15 أورو أو ما يعادلها

إهداء

إلى ذلك الرجل العظيم الذي قال لي يوما، كن واسعا وسع الجميع..
إلى دعاة التريّث، الذين لا يَعجلون بالحكم..
إلى أولئك الذين يفهمون الدوافع..
إلى الإنسانيّين..
المحبّة لكم.

«كيف يمكن للبذرة أن تصدّق أن هناك شجرة ضخمة مخبّأة داخلها؟ ما تبحث عنه موجود بداخلك.»

شمس التّبريزي

لم يكن سقوطا مؤلما يجعل من تعرّض إليه قابعا بالأرض محطّم الآمال، بل كان على العكس تماما، فَهُما حين سقطا شاءت المشيئة أن يسمُوَا ويحلّقا فوق الغيوم، إنه سقوط غير حرّ، لكنّه حرّرهما من كل شيء، من المخاوف والتردّد والمعاناة والألم. لقد ارتفعا وصارا ساميَيْن، محرّريْن من الأعباء.

هل يمكن لغير الحب أن يفعل كل هذا؟!

لم أرَ شيئا مماثلا لكلِّ هذه الروعة من قبل.

ظلّ يحاول إدراك السِّر الذي انطوت عليه تلك الحكاية، لأنّ إحداث تغيير جوهريٍّ بهذه السّرعة لم يكن ليقدر على فهمه، لولا أنّه كان هو ذاته من يعيش هذه التّجربة الخاصّة، وهذا ما جعله يفكّر في ما بينه وبين نفسه، من الذي يقدح شعلة الحبِّ تلك، ومن ذا الذي يطفئها، وكيف يقدر أن يبقيَها مستعرة إلى الأبد.

كان لفترة طويلة من الزّمن متخلّفا عن ركب السّعداء، وهذا أمر لا يمكن التفطّن إليه بسهولة، حيث أنّ مرحلة مثيلة لتلك التي يعيشها الآن أجبرته على فهم المراحل السابقة، كأنّ الانتهاء إليها هو بداية جديدة، لم يكن بوسعه إدراكها لولا أن قدحت شرارة الحبّ تلك.

كان معنيّا بهذا التّغيير وبات منهمكا في محاولة الفهم

والاستيعاب، ذلك ما جعله يشعر بالقيمة الحقيقيّة لكل شيء يدور من حوله، لقد تحول كلُّ شيء يحيط به إلى معنى، لقد صار واعيا لدرجة أنّه انخرط في نوع من الشعور العميق، حيث بات فكره أكثر تحرّرا وتعمّقا وذلّلت له مسائل عدّة، من بينها مسألة وجوديّة قديمة: ما الحياة؟

إنّ إدراكه لهذه المرحلة الجديدة نسف كلّ بالٍ قديم في حياته السّابقة، لذلك جلب لوحا خشبيّا صُقل بعناية ونقش عليه الكلمات التّالية: «إنّ الحياة ليست سوى مسعى متواصل للبحث عن الحبّ، ذلك الحبّ الذي سيحرّرنا من كلّ القيود حين نعثر عليه.»

كانت ليندا تشاطره الرّأي، فلقد قالت له ذات مرّة: «لو لم يكن الحبّ موجودا على هذه الأرض، لما تخلّص الناس من أعباء الحياة. إنّ المحبّة شكل من أشكال التحرّر.»

ومنذ تلك اللّحظة، بدا أنّ كلّ شيء يسير على ما يرام، غير أنّ للقدر مخطّطاته الأخرى.

(1)

لم يكن أبدا عسيرا على ليندا، تذكُّر ذلك اليوم الذي شاءت فيه الأقدار أن تجعل حياتها على المحكّ، لأنّها قد احتفلت فعلا قبل يوم من ذلك التّاريخ بعيد مولدها الثّاني والعشرين. حدث ذلك مساءَ أول يوم من شهر أيلول، وقد كانت آريلا حينها مدينة مزدهرة، بسبب ساحلها الجنوبيّ وميناءها التجاريّ، وطبيعتها السّاحرة. كان أغلب السّكان المحليّين عمليّين جدا، وكانوا ينقادون لنسق روتينهم اليوميّ العاديّ، دون أن يبدو على ملامح أيّ أحد منهم علامات تململ أو ضجر. ولقد كان النّاس رغم انهماكهم في العمل وكسب الرّزق، يعتنون في مساءاتهم بحلقات الفنون وكلّ ما يتعلّق بالفكر اعتناء خاصّا، ومردُّ ذلك أنّ الجيل الأوّل من مؤسّسي المدينة كانوا مجموعة شعراء وفلاسفة حالمين.

كانت المكتبة العامة يومها تعجّ بروّادها من المثقفّين والباحثين عن الكتب القديمة والمخطوطات النّادرة الّتي جيء بها من عديد المدن والبلدان. وفي زاوية بعيدة، جلست ليندا تقلّب صفحات كتاب وقد بدا عليها التوتّر. كانت تبحث عن شيء ما، بين السّطور، وبين الأوراق الصّفراء العتيقة، لكنّها على ما يبدو لم تعثر على ضالّتها تلك. أغلقت الكتاب واتّجهت ناحية الرّفوف، وجعلت تمرّر يديها بين الكتب المتراصّة المرصوفة بعناية. لم تجد ذاك الشّيء الّذي تبحث عنه. مشت بعض خطوات

إلى الأمام ورفعت رأسها إلى الأعلى ودقّقت نظرها في مجلّد ضخم ذي غلاف جلديّ أحمر اللّون. مدّت يدها لالتقاطه فلم تستطع بلوغه، وقفت على أطراف أصابعها وجاهدت نفسها كي تمسك به، لكنّه كان بعيدا عن متناول يديها، أغاضها ذلك كثيرا وفكّرت أن تضع كتبا فوق بعضها وتصعد فوقها، لكنّها سرعان ما طردت هذه الفكرة من خيالها وقالت في نفسها: «إنّ حَيَوَاتٍ بأكملها تسكن الكتب، فكيف لقدمي أن تطأ أرواح العباقرة وبنات أفكارهم، إنّ في ذلك لنكرانا فظيعا!»

كان بعض روّاد المكتبة يراقبونها بعيونهم المتفحّصة وقد سمعت شيئا من الهمس المريب ما جعلها تشعر بالخجل، ولم تَدْرِ لحظتها، هل تترك ذاك المجلّد الذي استرعى انتباهها، أم تواصل كفاحها من أجل الحصول عليه غير عابئة بردود فعل أولئك المتطفّلين. بينما كانت تحاور نفسها، ونظراتها مستقرّة فوق غلاف المجلّد محاولة تخمين شكل الحياة التي تدبّ في أعماقه، إذ امتدّت يد بدت آتية من العدم، لتستقرّ فوق هدفها، ثم رأت المجلّد يسبح في الهواء، لينتهي مباشرة بين يديها اللّتيْن أمسكتاه بلهفة بالغة.

ظلّت تتحسّسُه بيديها المرتعشتين كأنّها تتفحّص ملامح طفل صغير أقبل على الحياة حديثا. قلّبت صفحاته بلهفة هادئة، بقلب متحفّز وعين شاخصة، وعقل مستيقظ. نسيت نفسها تماما رغم كلّ ذلك، ففي عالمها الداخليّ ذاك كانت حواسّها ومداركها نشطة، لكن في العالم الخارجيّ المحيط بها بدت غائبة تماما، حتّى أنّها لم تلتفت إلى اليد الّتي قدّمت لها المجلّد.

قاطعها صوت بدا مألوفا: «هل تبحثين عن شيء محدّد؟»

اِنتبهت أخيرا ورفعت عينيها تجاه مخاطبها فبدت على ثغرها ابتسامة عذبة، ولوهلة خفضت بصرها ثم أعادته حيث كان، حملت المجلَّد بيديها كأنّها طفلة صغيرة خجولة، وقالت بصوت منخفض:

-«في هذه العوالم الكثيفة الّتي تسكن الصّفحات، دائما ما أجد الأشياء التي أبحث عنها، فحينما أفتح كتابا جديدا، أدرك أنّه يحتوي على ضالّتي، التي لعلّها تنشأ لحظتها، وبالرّغم من أنّني لا أملك مسبقا فكرة عن ماهيتها، إلّا أنّني أتعرّف عليها حين أصادفها، أنا أعرف ذلك، أكون متيقّنة أن هذا الأمر يشبهني على نحو مّا، هل تفهم هذا؟ إنّني لا أعرف ضالّتي إلّا ساعة أجدها. يمكن القول إنّه مع كلّ كتاب أفتحه تنشأ بداخلي مشاعر مختلطة بين الرّغبة والانجذاب، وبين العزوف والانسحاب كأنّه حدس بالفطرة، وهو يعمل بطريقة...»

صمتت قليلا ثم أكملت: «عجائبيّة، كأنّها عمليّة تعقّب غير معلنة..»

قال بنبرة واثقة وهو يتطلّع بافتتان في عينيها:

-«ذلك أنّ ما تجدينه في الحقيقة يبحث عنك ويريدك أن تتعرّف عليه.»

كأنّها فهمت تماما ما يعنيه فأطرقت خجلة، مشت خطوتين إلى الأمام ثم التفتت قائلة: «كأنّك تلمّح لشيء مّا، أليس كذلك؟»

دنا منها وحاول صياغة جملته بشكل أوضح: «لعلّنا في الحقيقة لسنا الوحيدين الّذين نبحث، ربّما نحن نعطي إشارات تدلّ على وجودنا كما تعطي الأشياء إشارات تدلّ على وجودها، قد نكون المراد لكلّ شيء من حولنا، أظنّ أن كلّ شيء في الكون يفتّش عنّا

ونفتّش عنه، وما نحن جميعا سوى قناديل صغيرة تقول للآخر ها نحن ذا، قد لا يكون عثورنا على الأشياء في الحقيقة، سوى عودة حتمية إليها، لعلّ هذا الكون يشبه مركز بريد عملاق، يعجُّ بالرسائل، وما نحن سوى ذلك الشّخص الذي يبحث عن الرّسالة ويعثر عليها، ويتساءل من تراه أرسلها إليّ. هناك أيضا من يعُدُّ التّواصل عبر الرسائل أمرا تافها، لأنّ الآخر أصلا لا يعنيه في شيء مادام لا يخاطبه مباشرة.»

وضعت ليندا المجلّد فوق طاولة قريبة وسحبت كرسيّا وجلست، وظلّت تفكّر في كلّ ذلك الكلام، ولاذت بالصّمت والتّفكير ثمّ تساءلت: «وهل سنعثر على ما نبحث عنه إن بقينا فقط نشاهد ولا نفعل شيئا؟ أظنّ أنّ كلامك مبهم ومحيّر..»

سحب كرسيّا بدوره وجلس قبالتها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال: «وهل من الممكن أن نظلّ نراقب دون أن نفعل شيئا!»

كتمت ليندا ضحكة خجولة داخلها لكنّ آثارها بدت واضحة في بريق عينيها وقالت: «يبدو أنّ الكتب جعلت منك فيلسوفا كبيرا، أهنّئك..»

قال دون أن يفكّر: «العشق وحده من يفعل بنا كلّ هذا.»

صمتا طويلا دون أن يتخلّى أحدهما عن النّظر إلى الآخر واستغرقا في كلام عميق تبادلته القلوب في صمت وديع.

كانت المكتبة هادئة جدّا، أحدهم ظلّ واقفا في آخر القاعة، حاملا بين يديه كتابا وجعل يختلس النّظر من بعيد. بدا أنيقا في بذلته السوداء التي بدت مصمّمة حسب الطّلب، مرّ من أمامه شابّ في مقتبل العمر فحيّاه بطريقة محترمة ونزع قبّعته وانحنى

على طريقة النبلاء، وابتسم في وجهه.

تذكّر يوجين موعده مع المحاسب الّذي يقوم بجميع أعماله في البيت، كعادته في مثل هذا الوقت من كل يوم، ودّع ليندا وتركها منهمكة في تصفّح أوراق الكتاب الضّخم الّذي بين يديها وكلّها أمل في أن يجدَها شيءٌ مّا هناك، بين السطور.

على إثر مغادرته للمكتبة، اقترب صاحب البذلة السوداء قليلا ملتفتا وراءه في محاولة لاستكشاف المكان، كانت نظراته المحدّقة في ليندا تتّسم بشيء مريب غامض. أشارت ساعة الحائط لاقتراب موعد الغروب ولذلك فقد بدأت المكتبة تفرغ من روّادها شيئا فشيئا، حتّى صارت خالية تماما. لم تتفطّن ليندا لذلك، لشدّة انشغالها بالتهام صفحات المجلّد ذي الألف صفحة.

اقترب منها صاحب البذلة السّوداء بهدوء، دون أن يحدث أيّ صوت، وتسمّر خلفها وانحنى تجاهها حتى كاد أنفه يلتصق برأسها وقد أغمض عينيه كأنّه منتش بشيء مّا. انتبهت ليندا لذلك الطّيف البشريّ القابع خلفها فَهمَّت بالوقوف من كرسيّها، لكنّ رأسها اصطدم بأنفه، وقد هالها الأمر وانتفض جسدها، وكتمت صرخة مرتعبة. ارتدّ الرجل للوراء خطوة لكنّه لم يبعد عينيه المحدِّقتين في وجهها. كانت ليندا تنقل نظرها داخل المكان فأدركت أنّ الجميع قد غادروا، وذلك ما بثّ في قلبها الذّعر.

حاولت تجاهل الأمر والتصرّف بحنكة، حملت المجلّد لتضعه على الرفّ القريب لكنّ ذلك الغريب حال بينها وبين ذلك. حاولت الابتعاد عنه، لكنّه لحق بها وجذبها من مؤخّرة ثوبها

وسحبها بقوّة حتى كادت تفقد توازنها. دنا منها وفي عينيه شيء لئيم مسرف وقال لها هامسا: «ما الفائدة المرجوّة من الكتب مادامت هناك أشياء أخرى أهمّ بكثير.»

أحسّت أنّ حياتها مهددّة وأنّه من السّذاجة محاولة التّحاور مع شخص تتطاير من عينيه شرارات ماجنة، كادت تهمُّ بالفرار والتخلّص من هذه الورطة غير المتوقّعة، لكنّها أدركت أن ذلك غير ممكن، فتجاوز شخص مثل هذا الغريب يحتاج قوّة جسديّة متكافئة، ولأنّها أدركت أن الكفّة ترجّح فداحة خسارتها، فكّرت مليّا في بضع ثوان وقررت جلب شيء لتدافع به عن نفسها، تذكّرت أن الكرسيّ ثقيل يصعب حمله، ولا يمكن استعماله كسلاح في مثل هذا الظّرف، أرادت الصّراخ لكنّها سرعان ما عدلت عن ذلك لأنّه على ما يبدو لا يوجد سواهما. أحسّت بثقل مستقرّ بين يديها. ومن دون أن تفكّر طويلا، استجمعت نفسها وتحكّمت في انفعالها لبرهة من الزّمن، ولحظة اقتراب الغريب منها في محاولة جدّية للتحرّش بها، صدمه شيء ثقيل على وجهه مباشرة جعله يترنّح ويفقد توازنه، فاستغلّت الموقف وهرعت للخارج، ومضت وهي تقول غاضبة: «ها قد عرفت ما يمكن فعله بالكتب، أيّها البغيض.»

* * *

كان الهواء في الخارج باردا، لكنّ الشّعور بالمرارة طغى عليها فلم تشعر به، فالمكتبة بالنّسبة إليها مكان مقدّس، وقد اعتبرت وجود شخص متطفّل بداخلها قد دنّس حُرمتها. كانت تشعر بالتّهديد المخيف، فيَد المتطفّلين طالت أماكن لا يجب أن تطالها. هذا الأمر ليس علامة خير، ذلك ما ظنّته ليندا وصارت تخشاه

في الآن ذاته.

كان يومها على ما يبدو، حافلا ومثيرا، فلم تكد تغادر المكان حتى صادفت غير بعيد بمحاذاة الطريق العامّ بعض الفتية السّكارى المترنّحين، حاولت تجنّب المرور من أمامهم وقطع الطّريق للمشي في الجانب الآخر لكنّ أحدهم -وقد بدا حسب قامته وملامحه يافعا لم يتجاوز السّادسة عشر من عمره- همّ بها وحاول إلقاء دعابة سمجة، لكنّها انطلقت سريعا وابتعدت، فظلّ المراهقون يتندّرون بالضّحكات، وقد التقطت بعض كلماتهم البذيئة. لم تصدّق ليندا ما يدور من حولها، أحسّت أنّها في مكان غريب عنها، فطيلة حياتها لم تتعرّض لحادثة واحدة مشابهة، ولم تكن تسمع في ما تسمعه شيئا مماثلا لما شهدته منذ قليل، ولم تكن تلك من شيم سكان آريلا الطيّبين الوادعين. كان وقع الصدمة جليّا على ملامحها، ولم يكن ممكنا أن تحلّل الموقف وهي في حالتها النفسيّة تلك.

أسرعت خطواتها تسابق الريح ومضت دون التفاتة، مضت حزينة كئيبة، وألف فكرة وخاطرة تدور في رأسها. جعلت الحادثتان ليندا تفكّر مليا وهي تحاور نفسها: «بينما كنت منغمسة في المكتبات أفتّش عن العالم الواسع وأتتبّع تغييراته بين صفحات الكتب، لم ألاحظ أنّ عالمي الصّغير من حولي، قد شارف على عتبات التردّي.»

خامرتها أفكار كثيرة، قاتمة وسوداويّة حتى ضاق صدرها واضطرمت بعقر كيانها الغضّ ألسنة اللّهب، كانت تشعر بالضّيق، رغم أن جميع أيّامها الماضية كانت سعيدة وسارة. لم تكن تظنّ أنّ من شأن حادثين تواليا بفعل الصّدفة أن يُنزلا بها

كل ذلك الألم والرّهبة. كانت تحاول تجنُّب الوقوع في الوهن، لم تُرِد السُّقوط قبل الصّفعة، لكنّ شيئا بداخلها ظلّ يقنعها بأنّها قد تلقّت لكمة حقّا.

مرّت عبر الطّرقات والشّوارع، وقد غابت الأشياء من حولها كأن لا وجود لها، وكان عقلها شريدا، ونبضات قلبها المتسارعة تنبئ بحدوث أمر جلل.

غير بعيد، لاح المبنى ذي الطّوابق الثّلاث، الّتي كانت الجدّة «كريستابل» تقطن في إحدى شققه. هو مبنى كلاسيكيّ يعود إلى بداية القرن الثّامن عشر، ذا مدخل رئيسيّ، على جانبيه أعمدة رومانيّة، وتحيط بالمكان حديقة خضراء ذات إنارة جيّدة، وقد كان بعض الصِّبية والبنات يلعبون تحت أنظار أوليائهم وذويهم.

لاحظت ليندا الصّغار فوقفت تفكِّر، استوقفها أمر غريب، حتّى أنّها عاتبت نفسها وحاولت ألاّ تسمح لتينك الحادثتين بتشويه قناعاتها وتشتيت أفكارها. ورغم محاولتها السّيطرة على كل ذلك، باغتتها الأسئلة وتتالت تريد متّسعا من التّحرر. ظلّت تراقب الفتية والفتيات وهم يلعبون فوق العشب الأخضر الطريّ محاولة تقصّي حقيقة أمر مّا.

«كيف للإنسان أن يغدوَ جبانا ووضيعا بعد أن كان يحمل في داخله كلّ هذه البراءة والطفولة؟» فكّرت في أنّها يجب أن تبحث عن الجواب لسؤالها في الغد، حينما تزور المكتبة كعادتها اليومية التي واظبت عليها طيلة خمس سنوات. لكنها بإشارة من يدها التي لوّحت بها في الهواء كمن يطرد حشرة من أمام وجهه، طردت تلك الفكرة. لقد بات الذّهاب إلى المكتبة في نظرها أمرا خطيرا، بات عامل إلهاء عمّا يحدث في المجتمع من حولها. لم تكن

تلك كلماتها، ولم تكن تفكّر بهذه الطّريقة من قبل، أدركت أنّ شيئا مّا قد تغيّر في البلدة، وأنّ شيئا آخر سيتغيّر فيها. شعرت بثقل شديد سيرزح كالظّلال على هذا المكان السّعيد، وبدا لها أنّ شعورا بالمهانة لا يمكنها أن تغضّ الطّرف عنه قد احتلّها. لقد بات من الواضح أنّ حادثة كتلك لم تترك لها المجال للتّواني والتّخاذل، شيء عميق أصابه الضّرر بداخلها، جرح غائر نزف وليس بمقدورها كفكفة سيلانه، صوت غير مألوف وُلد قد سمعته يئنّ بكآبة، واشتهاء غير مسبوق للبكاء خامرها فبكت بكلّ ما اعتمل في قلبها من مشاعر الذّهول والصّدمة. عرفت أنّ شيئا حقيقيّا يحدث في البلدة، وعلمت بفضل حدسها الأنثويّ الذي لا يخطئ بأنّ زمن الورطة قد حلّ، ولاحت من بين دموع عينيها نظرة أسيفة حانية، كأنّها نظرة أخيرة لأمّ حنون، تراقب في أسى عاجز انهيار عالمها الوحيد.

* * *

صعدت ليندا السّلالم بخطى ثقيلة ومرهقة، كانت حالة من الدّوار تعتريها. اتّكأت على الحائط وأسندت رأسها إليه. أحسّت بالوهن يتسلّل إلى مفاصل جسمها. جاهدت كي تبلغ الطّابق الثّاني حيث شقّة جدّتها. دفعت الباب ودلفت إلى الدّاخل، فألفت الجدّة كريستابل متّكئة على الكنبة ملتحفة بسترة قطنية قديمة. اقتربت منها وألقت عليها التّحية وجلست بجانبها. كان رأسها ثقيلا جدا، حالة من الإعياء أصابتها حتّى أنّها رمت حقيبتها الجلديّة على الأرض، وارتمت بجسمها، وظلّت لدقائق طويلة في شبه نوم. كانت متعبة وممزّقة إلى درجة انعدم فيها تماما إحساسها بالمكان. خاضت في تلك الدقائق صراعا مع

هواجسها الجديدة وظلّت تحدِّق في الخيال والعدم دون أن تفكّر في أيّ شيء، لقد انسلخت تماما عن الوجود.

كانت الجدة كريستابل صامتة، لم تحرّك ساكنا، بدت مطمئنّة جدّا ومسترخية، أمسكت بين يديها إطارا خشبيا ذا نقوش جميلة، كانت بداخله صورة قديمة لزوجها الرّاحل إريك بينيه، الذي قال لها ذات يوم: «إنّ المرأة مخلوق حزين، فهي تقضّي معظم حياتها في خدمة والديها وزوجها، ثمّ تكون من يواري أجسادهم التّراب، لذلك كان عزاؤها الوحيد في الدنيا هو أطفالها. إنها حقا عظيمة، فثلاثة أرباع عاطفتها عبارة عن حزن، والرّبع المتبقّي هو رجاء ألاّ تحزن مرّة أخرى، ومن أجل هذا كان حقيقا على الأبناء أن يُهوّنوا عليها، وكان جديرا بالأزواج أن يرفقوا بها. إن حزنها موهبة عجيبة، فهو يمدّها رغم كلّ شيء بالقوة لحمل هموم الجميع على عاتقها وإن كانت هي نفسها في حاجة إلى من يحمل عنها همومها.»

تحاملت ليندا على نفسها ونهضت عن الكنبة بشقّ الأنفس، فكّرت أنّه ليس لائقا أن تراها الجدّة على حالها تلك. حاولت التماسك كي لا تثير قلقها، اقتربت منها ورسمت على ثغرها ابتسامة وهمّت بتقبيلها، لكنّ شيئا في نظرات جدّتها بدا من عالم آخر، كانت كريستابل ساكنة، هادئة وعلى وجهها برود غريب، اقتربت منها وأمسكت يدها فسقط الإطار على الأرض، وتناثر البلور المكسور فوق البلاط فتناثرت بسقوطه دموعها الحارّة، وقد أصابها الهلع الشديد.

لم تكن كريستابل جدّة عادية، فهي ليست امرأة تربطها بليندا علاقة قرابة فقط، بل كانت أكثر من ذلك، لأنّها تعتبر الملاذ

الآمن الوحيد بالنسبة إلى حفيدتها. كانت بمثابة طوق النجاة الأخير الذي تمسّكت به، بعد أن عرفت ما معنى أن تكون الفتاة يتيمة ومنعزلة في مكان غريب مثل دار الأيتام.

لقد فقدت والديها في حادث أليم، عندما كانت تبلغ من العمر ثلاث سنوات. وشاء القدر أن تنجو من الموت المحتّم، وشاءت الصّدف أن يعثر عليها أحد الفلّاحين وهو عائد إلى منزله القريب من هناك. كانت صغيرة، جريحة وبريئة، ولذلك حملها الفلّاح بين يديه وركض مسرعا في اتّجاه المستشفى، حيث تمّ تطبيب جراحها والعناية بها، وقد تأكّد خبر وفاة والديها في ما بعد.

مضت سنتان طويلتان على ذلك الحادث الأليم، وفي أحد صباحات الشّتاء ذات الحرارة المنخفضة في الرّيف البعيد، كانت كريستابل تنظر من خلال زجاج النّافذة المطلّة على منظر الثّلوج المنتشرة بالسّهول والوديان، وحيدة وغريبة، كأنّها تنتظر شيئا مّا يعيد قدح شعلة قلبها التي ذوت وانطفأت بعد موت زوجها إثر نوبة قلبية. ظلّت منعزلة عن العالم تصارع في خلوتها الذّكريات التي ما فتئت تعود لتذكّرها بالشخص الذي كانت عليه من قبل، لكنّ كل ذلك كان دون جدوى، وكأنّ ساعة خلاصها لن تأتي أبدا، إلى أن دقّ جرسُ بيتها ساعي البريد، الذي سلّمها رسالة ثم غادر على عجل.

فتحت الظّرف بحذر، كمن يفتح تابوت شخص ميّت منذ عقود. كانت تخشى الرّسائل التي تأتي بعد طول انقطاع، فبالنّسبة إليها، وحسب خبرتها في الحياة، من يأتي متأخّرا يأتي بأنباء عظيمة، وذلك ما خبرته في تلك اللّحظات القصيرة، وهي تكتم شهقة مرعبة كادت تكسر ضلوعها.

لم تفق كريستابل من هول الصدمة التي حملتها إليها تلك الرّسالة، إلّا بعد أن وجدت نفسها داخل قاعة واسعة تتوسّط مبنى دار الأيتام، وقد تسمّرت في مكانها وهي تحدّق في عيني فتاة بريئة تبدو مألوفة جدّا. كانت ليندا حينئذ في الخامسة من عمرها وقد مرّ على إيوائها بالميتم سنتان، مرّتا عصيبتين ومريرتين.

كان خبر وفاة ابنتها وزوجها كالأخبار التي تأتي دائما متأخّرة، وكان ذلك النّبأ القادم من بعيد كضيف مشؤوم، ضيف ثقيل غير مرحّب به، فهي لم تتلقّ أيّ اتّصال منهما من قبل، بسبب الجفاء والأنانيّة التي كانت أبرز سمات ابنتها، وقد عاشت حياة قصيرة لم تُثمّن فيها قيمة العلاقات، ولم تعتبر استمرار التواصل مع عائلتها سوى شكل من أشكال التبعيّة والعبوديّة. ورغم ذلك، ها هو نداء قلب صغير معذّب قد بلغ أخيرا مسمعها، فلم يكن من الممكن أبدا ألاّ تجيب نداء من ذلك النوع.

منذ ذلك اليوم، قررت كريستابل أن تستقرّ في بلدتها القديمة تلك، من أجل روح ابنتها الرّاحلة ومن أجل حفيدتها اليتيمة، والتي كانت بدورها ملاذا دافئا بالنّسبة إليها. كانت إحداهما بلسمًا للأخرى، من أجل تطييب الجراحات والمضيّ قدما.

* * *

في المقبرة حيث الطّبيعة الخضراء النّاضجة، اتّشحت ليندا بالسّواد وظلّت مستندة إلى كتف يوجين، الذي لم تزل دموعه تنساب دون توقّف. ظلّت ممسكة بيده كأنّها طفلة صغيرة خائفة، متعلّقة بذيل ثوب والدتها. كانت تراقب دموعه التي تنزل على خدّه بنظرات تشي بالتّساؤل والحيرة. استفزّها سؤال، رغم أنّ الظّرف لا يسمح بالتّفكير في أمور مماثلة: «أيّ قلب هذا الذي

يستجيب لآلام الغير دون أي تحفّظ، هل مازالت الإنسانيّة قادرة على دفع مثل هؤلاء البشر إلى هذا العالم المليء بالأسى والرّداءة والقسوة؟ وأيّ شعور هو ذاك الذي يقدِر على مواساة صاحبِه في مثل هذه الأوقات الحزينة الرتيبة؟»

ظلّ يوجين برفقتها، لا لأنهما عاشقان، بل لأنّ لحظات الفقد تكون أشدّ وطأة من دون أنيس يتقاسم معك الأسى. كان يحاول التّخفيف عنها بكلّ ما أوتيَ من صدق، لا كمن يقوم بواجب تجاهها. تلا القسّ صلاته ووضع الأصدقاء والجيران باقات الزّهور حول شاهدة قبرها، وغادروا جميعا دون أن تتفطّن ليندا لذلك. بقيت واقفة أمام التراب الذي وارى جثّة جدّتها، فلم يكن من الهيّن الذّهاب هكذا دون التفاتة أخيرة، وقد خيّمت سحابات من الألم على عينيها الذّابلتين، ذهبت ببريقهما الفاتن، لكنّها بقيت رغم ذلك شبه متماسكة ولم تذرف أيّ دمعة. بقيت تراقب يوجين الذي مكث يسندها رغم ما في عينيه من ألم وبكاء، أحسّت لحظتها أنّ مساحة الوجع في قلبها المحزون بدت ضئيلة جدّا، فمشاركة الحزن كما أدركت حينئذ تخفّف من وطأته.

* * *

رافقها يوجين إلى المبنى الذي تسكنه، صعد معها السلالم، وأمام الشقّة بالطّابق الثاني، لم يشأ أن يغادر دون أن يطمئنّ أنّها غدت بخير. كان يعلم جيّدا أنّه من الضّروريّ أن يدعها بمفردها كي تفكّر في كل ما حصل، كي تقدر على تجاوز محنتها وكي تواجه مخاوفها، بالرّغم من أنّه في قرارة روحه ودّ لو بقي معها ليؤنسها. حزم أمره أخيرا وأخرج من حقيبتها التي كان يحملها مفتاح الشقّة وفتح الباب. ربّت على كتفها بحنان وديع وهزّ رأسه في

إشارة إليها كي تدخل وتعيش خلوتها مع أفكارها وهواجسها. ظلّ ينتظر بالخارج إلى أن دخلت. كان في عيني ليندا شيء من الخوف، فهي تعلم ما ينتظرها من مشاعر مختلطة وذكريات قادمة من بعيد، ومن مصير يلوح ضبابيّا في الأفق دون معالم واضحة. سحب الباب وأغلقه دونها وتركها وقلبه يعتصره الألم.

كانت قاعة الجلوس هادئة جدّا، شظايا البلّور مازالت متناثرة على البلاط. صورة الجدّ ملقاة على الأرض وعيناه مثبّتتان في السقف، ناحية السّماء. مشت ليندا على أطراف أصابعها في اتجاه المطبخ، لمحت الموقد البارد الذي غادرته حمرة اللّهب، فكّرت أنّ هناك في هذا العالم حاجة إلى النّار الّتي تندلع بداخل الإنسان كي ينضج، وتفكّرت في تلك النّار الأخرى التي تحرق داخله وتصهره. كان الشّرود حليفها الوحيد، وأحسّت بالهواء البارد يخنقها، ورأت كلّ شيء يغدو ضئيلا جدّا، وبات واضحا من اللّحظة، أنّ هذه الشقّة المليئة بالصّور والذّكريات ستغدو قبرها لا محالة.

غادرت المطبخ واتّجهت نحو قاعة الجلوس، جلست على الكنبة وارتدت سترة جدّتها القطنيّة. ظلّت تراقب الإطار الخشبيّ ذا النّقش الجميل، بدت ساكنة وهادئة ومن عينيها لاح شبح شيء غريب، قادم من عالم آخر.

* * *

عصر ذلك اليوم، كان يوجين يذرع غرفته جيئة وذهابا وقد تملّكه هاجس غريب، ظلّت كلمات ليندا عالقة بذهنه. لم يكن على علم بالتّفاصيل التي حدثت لها إثر مغادرته المكتبة تلك السّاعة من المساء. أيقن أنّه لو ظلّ معها وأجّل موعده مع المحاسب إلى

يوم الغد لتغيّرت بعض الأشياء. أحسّ أن انشغاله المتواصل بين الكتب ومراجعة الحسابات والحفلات التي يقيمها، قد أبعده بطريقة مّا، عن الاهتمام بالشخص الوحيد الذي يعني له الكثير. وقد آلمه ذلك الشعور جدا، إلى درجة أنّه ظلّ يبحث عن طريقة ليكفّر بها عن انشغاله عنها، بمسائل، ظنّ ساعتها أنّها لا تعني له شيئا. لكنّه رغم كلّ ذلك، شعر أن التّغيير الذي قد يجلبه مثل هذا التّفكير قد تكون له عواقب على مستويات عدة، فتعلّقه الشديد بركنه الخاصّ الذي يحتوي مئات الكتب والمجلّدات والصحف والمقالات القيّمة، لن يكون يسيرا عليه تركه، لأن الإقدام على أمر مماثل سيفقده نوعا من المتعة الخاصّة، لا يمكن تعويضها بأيّ شكل من الأشكال. ثم إنّه نظر إلى مسألة الحفلات التي يقيمها احتفاء بأصدقائه، وحاول إقناع نفسه بأنّه قد يَقدِر على إلغائها، على الأقلّ بصفة مؤقتة، وكان العذر في ذلك، الحزنُ الذي أصاب ليندا بعد وفاة جدّتها.

أطلّ من نافذة تشرف على السّهل البعيد، فقد كان يمتلك مساحة واسعة من الحقول، حيث تركض خيوله ويعمل مزارعوه، وطرد فكرة غريبة تراوده بالتّخلي عن كل ذلك من أجل الالتفات لحياته والتّفكير في طلب يد الفتاة التي يحبّها. لكنّه لم ير أيّ داع لكل هذه المخاوف، فهو يقدر على أن يوفّق بين زيجته وعمله وشغفه بالكتب ولقاء أصدقائه ومسامرتهم.

كانت فكرة الزّواج تلحّ عليه بشدّة، خاصة أنّ محبوبته باتت وحيدة الآن، وأحسّ أنه الوقت الملائم كي ينعم برفقتها وصحبتها طيلة حياته، دون أن يفرّق بينهما أيّ شيء. ظنّ أنّ طلب يد الفتاة التي يحبّها قد تأخّر فعلا، وفكّر بينه وبين نفسه:

«يجب على المحبّين أن يتزوّجوا، لا معنى لعاطفة تتسوّل لقاءات غير مضمونة الحدوث.»

فكّر في أنّه ليس الوقت المناسب لمفاتحة ليندا بمثل هذا الموضوع، خاصّة وأنّ موت جدّتها مازال حديث العهد، ثم إنّه خشيَ أن تعتقد بأنّ طلبه ذاك لن يكون في مثل هذه الظروف، سوى نوع من أنواع المواساة والشفقة. وبالرغم من معرفته إيّاها، إلاّ أنّه كان يدرك أيضا كيف يتبدّل الناس تحت تأثير الحزن، لذلك عَدَلَ عن أمره وآثر أن يؤجّل القيام به لوقت آخر يكون مناسبا أكثر، وخاليا من أيّ شبهات قد تحيط به أو تخمينات قد تجد طريقها فتربك الأجواء. كان يوقن بأنّه من المجحف إثارة مسألة هامّة كتلك في ظرف حزين كهذا، فلكلّ فضيلة ميعادها المناسب، ولكلّ مسألةِ خيرٍ جوُّها اللائق.

* * *

في المساء، وبالرغم من أن يوجين قد أرسل يخبر أصدقاءه بأنّ الحفلة الموسيقيّة قد تمّ تأجيلها، إلّا أنّهم حضروا جميعا، كعادتهم، دون زيادة أو نقصان. أربكه تصرّفهم ذاك، لكنّ تكاليف اللباقة جعلته يستقبلهم ويحسن ضيافتهم كسالف عهده، رحّب بهم جميعا وطلب من الطّاهي القيام بوظيفته كسائر الأيام، وجلس غير بعيد، قرب الشّرفة، يطالع شيئا مّا في الأفق البعيد. ظلّ شاردا وكئيبا لأنّ ليندا لن ترافق أمسيتهم، وسرح بخياله مطرقا محاولا أن يفهم لم باتت الأمور تتعقّد وتتغيّر على هذا النّحو. لم يكن من عادته حمل مثل هذه الهموم، ولم يكن ليشعر بالخزي كهذا الذي يشعر به الآن. هو يعلم أنّ مكانه الحقيقيّ ليس هنا، بل هناك برفقتها. لم يكن وجوده وسط هذه الأجواء التي تشي

بالاحتفال، من مزايا النبلاء،خاصة أنّ حبيبته في حداد وحزن. شعر بأنّه غير جدير بذلك الحب، وساوره شعور بالعار، ونهش تفكيره خاطر غريب: «كيف أمكن لعقلي أن يكون حجر عثرة في طريق عشقي. إني أتغيّر من الدّاخل نحو الأسوأ، دون أن أتفطّن لذلك. يا للعار!»

كان الشّعور بالعار أمرا جديدا يختبره، فلم يكن ليتصوّر أن تفضي به بعض الأفكار إلى مثل هذه النّتيجة. لكنّه بدل أن يطرد هواجسه تلك ويفكّر بشكل إيجابي، انغمس في حالة من استنكار قاس وجلد للذّات، ولم يكن من الممكن أن ينجوَ منه أبدا، لولا أنّه انتبه لصوت موسيقى تنبعث من البيانو الذي توسّط الصّالة البيضاء الكبيرة، كأن طوق نجاة رُميَ أمام غريق كادت تبتلعه الأمواج.

انتشلته تلك الألحان من عالمه القاتم الذي بدا أنه ألقى بظلاله عليه. شيء مّا بداخله حفّز ابتسامة فرح ودمعة صدمة، فتشكّلا على وجهه. التفت تجاه مصدر الموسيقى فاستقرّت عيناه على فتاة تجلس قبالته، بدت كأنّها جنيّة أسطوريّة أتت من عالم آخر لتُعلّم الحاضرين المندهشين كيفيّة الحزن بوقار. لقد كان حضورها وسط معمعة هواجسه كشعاع نور مزّق عتمة حالكة.

كانت تتوسّط حلقة من الضيوف والأصدقاء الذين سرعان ما تحلّقوا حولها، أمامها لوحة المفاتيح الباردة، وفي عينيها شيء حزين، لكنّه عميق وبعيد. إنّه لمن العجيب حقّا ما يُحدثه الحزن في نفوس البعض، إنّ في بعض الحزن لعبقريّة ووقارا.

أسود.. أبيض.. تنقر بأصابعها الرّقيقة فتنبعث الألحان من الآلة دافئة مباشرة لتعالج القلوب، ولتمسّ الأعصاب والأوردة

والشرايين.

أسود.. أبيض.. تنتقل بين اللّونين بسرعة ومهارة، فتُحدث في النّفس بعض الحيرة والتّسآل. كيف يمكن للموسيقى أن تختزل بعض ألوان الحياة!

أسود.. أبيض.. تضرب سواد الدّنيا وظلمتها، وتنتقل سريعا لتداعب بياضها ونورها.

بين الأسود والأبيض هناك يسكن لون رماديّ، لكنّه دون وجود حقيقيّ على لوحة المفاتيح، هو موجود هناك، في الأصابع المترقّبة، المحدّقة في الألوان، قبل بدء العزف. هناك يسكن الرماديّ، في تلك اللّحظة المحايدة، الحائرة، حيث لا يوجد سوى صوت الاختيار والمبادرة واتّخاذ القرار. الرّمادي صوت العدم، مفتاح آخر، ما قبل الولادة وما قبل البداية حيث يسكن الترقّب.

الرّمادي مفتاح ثالث، لم يهتمّ بصنعه وإضافته صانع البيانو، لكنّه دون إدراك أثبت للعالم أنّه المفتاح الوحيد الذي يُبتدأ به كل شيء، فمنه سيولد النّشاز أو اللّحن الجميل.

كان الحضور منقسمين: جماعة مفتونون بجمالها وهم الأغلبيّة، وجماعة مسحورون بعذب الموسيقى التي أمطرتهم بها، وجماعة غابوا في مساحة الألوان، بين الأسود والأبيض وبين الظّلمة والنور، لعلّهم فلاسفة أو مجانين أو مُدّعون، لا يمكن أبدا معرفة ذلك.

أحدهم ظلّ شاردا يتمتم بعض الكلمات غير الواضحة، لكنّه بدا منسجما تماما مع ذلك السّحر الذي ينبعث من هناك، من الوحي الذي يهبط من قمر تلك الأمسية، ليتلقّفه ويستأثر به،

وفي عينيه تبرز صورة العاشق المنبهر والحاني في آن. كان مستغرقا في فكّ شيفرة مّا، ويغنّي كلماتها دون أن ينبس بكلمة واحدة.

الجميع منصت للعزف، بعضهم يحرّك رأسه منتشيا بحلاوة الآداء وجودته، وآخرون يتمايلون بخفة، في محاولة لتتبع مسار النّوتات، واقتفاء طريقها السّلس الواضح.

رائحة الورد الأحمر تنبعث في المكان، والموسيقى تتسرّب في عذوبة خالصة. توقّفت ليندا عن العزف للحظات، فترى الحضور قد انتبهوا، بعد أن كانوا غائبين عن الوجود. نظرت للشّاب الذي ظلّ واقفا قبالتها، فبادلها نظرة بدوره، كانا يتعانقان في صمت وادع، دون أن يلمس أحدهما جسد الآخر.

عادت للعزف من جديد، وعاد السّحر يملأ القاعة، لكن، هذه المرة لم تنتشر في الجو موسيقى تطرب الأذنين، بل كان نقرا على المفاتيح يشبه نقر الآلات الإيقاعية في بدايات الحروب. موسيقى حزينة، تارة تعلو وطورا تخبو، ترتفع وتنخفض..

ظلّ الجميع مستغرقا في الشّرود، في عوالم أخرى، والأصابع الرّقيقة تنقر المفاتيح، هذه المرّة بشدّة واضحة، ثم توقّفت عن العزف. وضعت ظرفا داخل صندوق البيانو وأغلقته بسرعة، كي لا يتفطّن لها أحد. وانسحبت.

استفاق الحضور من شرودهم، وانتبهوا أنّ العزف قد توقّف، وأنّ العازفة غادرت مكانها، وانتقلت للشّرفة المطلّة على الحديقة. ترك يوجين مكانه، وتسلّل إلى الشّرفة، والتقيا هناك تحت ضوء القمر. بدت ليندا مضطربة بعض الشيء، حاولت إخفاء ذلك، لكنّه تفطّن، لم يشأ أن يسألها حينها، فهو لم يرد تفويت تلك اللّحظات المسروقة خفية عن أعين الجميع. لم يرد سوى أن يظلّ

صامتا، ويُنعم النّظر في وجه محبوبته الحزينة.

خيّم هدوء طويل. سكنت الحركة إلّا من طيفين يبدوان من بعيد تحت تلك الأنوار المرسلة من السّماء، كتمثالين من مرمر.

لو اقتربت قليلا، وألقيت نظرة عن كثب، وتفرّست في عيني تلك الفتاة، لرأيت سَيلا من الدموع ينهمر، وهي تضع رأسها على كتف يوجين.

الشّرفة شبه مظلمة، رغم ذلك الشّعاع المتسلّل من بعيد، مسحت ليندا دموعها قبل أن ينتبه، رسمت على ثغرها ابتسامة ولزمت الصّمت، لم تقل كلمة واحدة ولم تنبس ببنت شفة، مضت فقط، مثلما كان حضورها هادئا وغير متوقّع، ظلّت تلتفت، ودّعته وغادرت مسرعة.

بعد ما يناهز الساعة، انصرف جميع الضيوف والأصدقاء، وتوجّه يوجين إلى غرفة النوم. غيّر ثيابه واتّكأ على كنبة بالقرب من مكتبة صغيرة يوجد فوقها بضعة كتب وأوراق وأقلام. جعل يعبث بساعة ذهبيّة ذات سلسلة قصيرة، كانت تتأرجح فظلّ يتابع حركتها في صمت. كانت الأفكار تراوده تارة وتستفزّه تارة أخرى، وأسئلة يطرحها عقله ويحاول معالجتها في آن واحد. التفت لأحد الكتب الذي لم ينته بعد من قراءته وبقي صامتا لدقائق، ثم جذبه وفتحه عشوائيا واستغرق في التّفكير في أمر مّا، قال في نفسه: «إنّ قراءتي للكتب كانت نقطة البدء نحو تعلّم ما يجري من حولنا في هذا العالم الوسيع، لكنّ تذوّقي لثمار العاطفة كان بداية الطريق نحو فهم ما يعتمل في دواخله. السّلوك الإنساني معقّد جدا، معقّد إلى درجة لا تقدر الكلمات على وصفه. لذلك لم يكن من اليسير فهم ما يعتري ليندا من صراع داخلي. حاولت

الاقتراب قدر المستطاع لأستجلي ما يدور في نفسها، لكن دون جدوى. من الصعب تخيّل كيف يمكن للمرء أن يتصرّف بعكس ما تفرضه طبيعة الأوضاع. إنّ مجرد التفكير في هذا يشعرني بأن شيئا غير طبيعيّ يحدث، وأنّ هناك مأزقا سيقع لا محالة، إن التظاهر بالقوة في أشد الأوقات ضعفا ليس دليل خير أبدا، من ذا الذي يعلم أيّ ألم يكابده المرء من أجل الوقوف على قدميه في مثل هذه الأوقات العصيبة القاسية.»

أطلق صيحة مكتومة اندفعت في صدره كصرخة لا يَسمع صداها سوى في أعماق قلبه وفكره. نهض من متّكئه وظلّ يخطو خطوات قصيرة وثقيلة داخل الغرفة، ثم اتّجه عند الزّاوية. وقف قبالة المرآة ينظر إلى صورة انعكاسه عليها، لاحظ شعرة بيضاء تختبئ وراء جيش من الشّعر الأسود. راودته خاطرة غريبة. أحسّ لحظتها بشعور غريب، وتعجّب: «لا قدرة لسنوات الهدوء والرّخاء على إيقاف تقدّم الزّمن!»

ظلّ يتأمّل سنوات عمره الّتي مضت، وكيف كان يقضّيها في الدراسة والقراءة وتجميع المجلّدات والمخطوطات في مكتبته. انتابه شعور بأنّ شيئا مّا ينقصه، وأدرك ساعتها أنّ حياته كانت روتينية جدا، بطيئة ومملّة. انقبض قلبه وأحسّ بوخزة فيه. خلد للنوم، وبالكاد أغمض جفنيه، فقد أرّقه هذا الخاطر الذي لم يخطر على باله من قبل. ظلّ يبحث في سنوات عمره المنقضية عن شيء حقيقي، شيء يحمل بصمة مّا، أمرا عميقا ذا معنى، فلم يرَ سوى صور قديمة باهتة وبالية. أوجعته هذه الحقيقة كثيرا ولم يدرِ ما العمل.

في الصباح الباكر، داعبت أشعّة الشّمس بلّور نافذة الغرفة

التي ينام فيها. نسمة باردة تسلّلت وحرّكت السّتائر فدفعت السّاعة الذهبية التي كانت موضوعة على حافة المكتب القريب فسقطت على الأرض. عندئذ أفاق على وقع سقوطها وقد أصابه الذعر. نهض من فراشه ومشى بخطوات مسرعة والتقط السّاعة وفحصها. كانت سليمة تماما، لم يصبها أي ضرر. فتح النافذة وأطلّ على المشهد في الخارج. كانت هناك مساحات شاسعة خضراء تمتدّ على مرمى البصر ورائحة عبق الورد الأحمر المتفتّحة حديثا ملأت الأرجاء. ملأ رئتيه بهذا الشذى الصباحي المحفّز وهبط السلالم واتّجه للقاعة البيضاء، حيث شاهد البيانو الأبيض يستقرّ في مكانه.

كان مشهد البيانو من الأشياء التي اعتاد يوجين مشاهدتها صبيحة كل يوم، فهو يزوّده بطاقة عظيمة. لم يكن مجرّد جهاز موسيقي عاديّ، بل هو بمثابة صديق مشترك بينه وبين ليندا، هو حافظ الأسرار، وكيف لا يكون كذلك وموسيقاه الّتي تنتشر كلّما بدأت ليندا العزف تمطرهما بالرّسائل التي لا يفهمها سواهما. لقد اتّفقا ذات يوم أنّ الموسيقى نوع من أنواع البوْح، فكل معزوفة تعزفها ليندا هي عبارة عن رسالة.

جلس على الكرسيّ المريح أمام البيانو وجعل يتحسّسه ويداعبه بأطراف أصابعه. داعبت أنفه رائحة حبيبة إلى قلبه ومألوفة، كانت الرّائحة تصدر من داخل صندوقه. فتحه فتطايرت ألوان من أريج الورد الأحمر وغشيته سطوتها واحتلّته مكانتها فاسترخى جسده واستنفر قلبه فجعل يدقّ دقّات منتظمة وسريعة. لم يلبث أن أحسّ بكسل يثقل أعصابه وفتور باد على عينيه كأنّه ثمل. مدّ يده داخل الصّندوق كأنه يطيع أمرا

قاطعا، وجذب ظرفا أبيض اللون ذا حواف ذهبيّة تنبعث منه رائحة مسكرة لها في ذاكرته حيّز خاصّ، كلّما نشطت تبدر منها مثل أحوال العاشقين.

لم يفاجئه وجود الظرف هناك، فلطالما كان مثل مستودع الأسرار الذي تختبئ فيه حكاياته مع محبوبته. فتح الظرف بلهفة كبيرة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رائقة، فقد اعتبر هذا الفعل الذي أتته ليندا، دليلا على تحسّن مزاجها وعودتها إلى سالف عهدها، وهو ما أثار فيه الغبطة والسرور. فتح الظرف كمن يفتح صندوق مفاجآت لا يعرف ما يستقرّ بداخله من هدايا. كانت رسالة مكتوبة بخطّ يد مألوف ومحبّب لعينيه وقلبه، لكنّه رغم ذلك الشّوق العظيم الذي ارتسم منذ لحظات على كامل ذرّات جسده، بدا مذعورا كمن شاهد شبح الموت آت لأخذ روحه. جحظت عيناه وخارت قواه وارتعدت فرائصه، وصرّت أسنانه صريرا مزعجا، وقد سقطت دمعة حارقة مؤذنة بتتالي سيل من العبرات الجارفة. وقف مشدوها، وأبعد الرسالة عنه وحاول إزاحة نظره عنها، كمن يخشى أن تصيبه الكلمات بالخدوش في وجهه. ظل يرتعد وقد تصبّب العرق من جسده وبات تنفّسه ثقيلا وصعبا.

* * *

«ليلة سعيدة، أيها الحبيب المسكين، يا قطعة من هذا القلب، يا رفيق روحي الضّالة،إنّي تائهة في ظلامي، هائمة على وجهي، أتعثّر في طريقي نحو الخلاص. حرّرني منك لأرى نور العالم، لأكتشف ذاتي.. كي أعود إليك، حتّى أسجد بمحراب روحك العميقة وذاتك الطّاهرة النّقيّة. إنّي عازمة على الرّحيل كي أحطّم قيودي

وأرجمَ شياطيني وأطهّرَ قلبي. لا تنتظر حبيبتك، بل انتظر الرّوح التي ستنصهر في روحك يوما مّا، فقد لا تراني مجدّدا، وقد لا نلتقي أبدا، لكنّني واثقة من أنّك ستشعر بي هناك بين أضلعك.

يوجين.. أيّها الحبيب المسكين، ما أعظم مصيبتنا. أتعلم ما يرضيني وما يهوّن عليّ هذا الفراق؟ أشياؤك التي تسكنني، روحك المحلّقة في الفضاء والكون، عيناك البريئتان، دمعك الحزين المسكوب على عتبات روحي، تلك النظرة المقدّسة التي تعلو وجهك حين تتوقّف عن النّقاش، كي لا تضيع بهجة الأوقات، كي لا نغضب.. ثرثرة صمتك البليغة، ووجهك الحزين الجميل. حزنك لحزني من أسعد الأشياء على قلبي، كم سأفتقد كل ذلك!

يوجين.. يا طبيب روحي، سنشقى اليوم كثيرا، لنتعذّب قليلا، لنحترق بخورا، كي يستنشق الكون عطر هوانا. لنحترق كالفراشة التّائقة إلى نور الحكمة دون خشية العواقب. سيصمت صوت العقل منذ اللّحظة، وستنطلق صرخات القلب منذ الآن، وليكن ما سيكون..

ليندا»

لم يَعِ شيئا. أيصدّق هذه الكلمات، أم يكذّب شعوره الذي يشِي بأنّ كلّ ما يحدث حقيقة. لكن، تبدو هذه الحقيقة قاسية ومؤلمة، إلى درجة أنّه لا يجب في موقف كهذا سوى الدعاء أن يكون ما يجري مجرّد كابوس سيمضي. كانت معرفته الدقيقة بصاحبة الخطّ الذي كتبت به الرسالة، علامة خطر في تلك الآونة. كانت معرفة تثير الرعب، تمنّى لو أنّه يجهل كلّ شيء، شكل خطها ورائحة الورد الأحمر وصندوق أسرارهما. تمنّى لو

أن كل تلك الأشياء العزيزة على قلبه تصير عدما وتندثر في ثوان. أراد أن يأتيه الخادم ليخبره بأنّ كلّ ما يحدث ليس سوى دعابة سيئة، قام بها أصدقاؤه في اللّيلة الماضية بتواطؤ مع ليندا. نعم كان سيغفر لها تواطؤها ويغضّ الطرف عن مثل هذه المزحة القاتلة، المهمّ بالنسبة إليه هو أن يخبره أيّ أحد بأنّ ظنونه ومخاوفه الحاليّة التي تحرق كبده لا داعي لها. أحسّ كم هو خطير هذا الشعور الذي ينخر عظامه ويأكل قلبه.

جلس يوجين على الأرض، فوق البلاط البارد ممسكا الرّسالة بين يديه، يرمق البيانو بنظرات قاسية كأنّه يتوعّده، وانخرط في البكاء، بكاء مريرا وخانقا. شعر بالقسوة التي لم يشِ أيّ شيء من قبل بإمكانيّة التعرض لها. كانت قسوة تعادل تلقّي طعنة من أمّ حنون ومحبّة، لابنها الوحيد المطمئنّ بين أحضانها. أصابته الخيبة المهينة التي لا يعوّل كثيرا على إمكانية التخلّص منها. تمكّن منه الشعور بالمرارة إلى درجة أنّه صار يرى القاعة البيضاء الواسعة زنزانة ضيّقة ذات جدران سوداء رطبة. شعر بالاختناق، ولا منفذ للهواء من حوله. أراد أن يتنفّس هواء جديدا، لكنّ الهواء المحيط به ثقيل وسامّ. بات يصارع أنفاسه التي تخنقه، رأى البيانو يتحوّل إلى وجه بشع ساخر، أراد أن يحطّمه وينتقم منه، لكنّه فتح صندوقه وابتلعه. كان شبح الموت يطلّ برأسه داخل ذلك المكان المظلم الذي يقبع فيه الآن. أحس أنّه سيلقى مصرعه على يد أحبّ أحبابه.

لقد كانت ليندا بالنسبة إليه مساحة من النور قادرة على فسخ كل عتمة محتملة أو ظلام وشيك، لم يكن حبّا اعتياديا يقبل منطق اللقاء والفراق، فهما مشدودان ومتّصلان بطريقة عجائبيّة. ما

كان حبّا على الطريقة التقليديّة التي شاعت بين المحبّين في سائر العصور، بل إنّ من سِمات هذا الحبّ أنّه لا يطمئنّ للمخاوف ولا يركن إليها. كان حبّا يتعدّى كلّ ذلك ويتجاوزه.

ذلك الشيء الذي انبعث فجأة من داخل يوجين وأيقظ مداركه الشعوريّة، استلّ نفسه من بين كل ذلك الظّلام والوحشة والمخاوف، ووقف صامدا على قدميه. ظلّ يوجّه لكمات في الهواء كأنّه بصدد مبارزة خصم عنيد قويّ، وقد كان خصمه في تلك اللحظات شكوكه المفرطة ورِيبته التي ليس لها داع. كان كمن اكتشف ثغرة داخل حلقة بؤسه، فرأى منفذا مطلاّ على أرض هادئة يحيطها التعقّل والتريّث.

عادت مداركه تتحفّز وتعمل بنشاط مميّز، فأدنى منه الرسالة وأعاد قراءتها للمرّة الثانية لعلّه يمسك بطرف خيط يفسّر له ما يحدث. لم يفارقه رغم ذلك، الشعور بالمرارة التي ارتبطت بالفقد وكلمات الوداع. أحسّ بأنه رغم صموده المفاجئ، غير قادر على طرد أحاسيسه التي تبثّه سيناريوهات لخاتمة تراجيديّة بائسة.

عاود قراءة الرّسالة للمرّة الثّالثة، فتحدّرت هذه المرّة دموع شفقة ودعة. أمسك بطرف الحكاية، وبدأت تتكشّف له المعاني المستَتِرة التي كانت بحاجة إلى قلب واثق وفؤاد متيقّن لتستجليَ الظروف التي كتبت فيها تلك الكلمات.

قال يحدّث نفسه وملوحة حارقة تغطّي مساحة أهدابه: «لم أكن لأفهم ما تمرّ به ليندا من آلام وأسى، لم يسبق لي أن خبرت مثل حالات التشظّي تلك حتّى بين صفحات الكتب التي قرأتها، لكنّني أعرف الآن أنّ قدراتي لم تكن لتسعفني على معالجة أمر كذلك، وهذا الأمر يقهرني. أنا عاجز عن التفكير، وليس

بيدي حيلة، وليس لي الحقّ أبدا في لومها.»

تذّكر الحوار القصير الذي تبادله معها داخل المكتبة العامّة. رنّت كلماتها في أذنه، وسمع لها دبيبا مزعجا. حاول إسقاط أقواله على ما يحدث معه في هذه اللحظات الحاسمة، وظلّ يفكّر: «أَمِن المنصف أن أتبنّى نظريّات لا يمكنني تطبيقها على أرض الواقع؟ وهل من العدل التباهي بالكلمات الرنّانة والمؤثّرة، ثم العجز عن إنفاذها لتصبح جزءا من عالمي الخاصّ؟ أليس من القبح قول ما لا يمكن فعله؟ أَكُنْتُ متباهيا أرجو انتباه الآخرين، راغبا أن يظنّوا أنهم يقفون أمام حكيم ذي اطّلاع؟ أَمِنْ أجل هذا قضّيت جلّ عمري باحثا بشغف عن الحكمة والمعرفة؟»

لمح في زاوية عميقة من فكره تنبيهًا أخبره بأنّه مسؤول عن كلّ حرف قاله مادام حرّ الإرادة. أحسّ بأنّه معنيّ بكلّ ما بدر منه، وأنّه لا مناص من أن يواجه الحقيقة الثابتة، حقيقة كلماته ومواقفه. لاحت عبارته بشكل واضح، وتذكّر كيفيّة قولها وحيثياتها كاملة، فراعه ما يمكن أن تفتح عليه مثل هذه الكلمات من تفسير واضح لما يعتريه من حيرة وتسآل: «قد يكون عثورنا على الأشياء في الحقيقة ليس سوى عودة حتميّة إليها.»

تساءل في نفسه: «إذا كان الأمر كذلك، وأنا في هذه اللحظة مُوقن بأنّ هذه حقيقة لا يمكن طمسها، فما الذي عثرت عليه ليندا؟ لقد برّح بها السؤال وأرّقها عدم فهم العالم، ولعلّها اهتدت أخيرا إلى الطريق، أو لعلّها تخوض الآن أولى الخطوات عليه!»

كان في نظراته ساعتها شيء جديد، بدا كمن أدرك حقيقة بعد جهل طويل ومرير. لم يكن في ما مضى أشدّ ثقة في مداركه ووعيه كما يفعل الآن، فاللحظة الراهنة مصيريّة وصعبة للغاية. كان

يعلم أنّ في مثل هذه الأوقات تكون العاطفة حاضرة بقوّة رغم ما يتطلب الأمر من إعمال للعقل واتّباع لحجّة المنطق. لكنّه أغفل كل ذلك، وتجاهله بطريقة عنيدة تنمّ عن رغبة في تغيير كلّ شيء. رمى جميع حججه المنطقيّة جانبا، وتمسّك بعاطفته وحدسه، كأن لا شيء يمكن خسارته في هذا العالم.

لم تطل فترة الرّكون للتفكير أطول ممّا ينبغي، كأنّه يعلم جيّدا أن ذلك من شأنه أن يعيق إرادته الحقيقيّة ورغبته في إنفاذ مسعاه. قرّر أخيرا إطلاق سراح نفسه من كلّ عبء. وخلال يومين فقط، كان قد تخفّف فعليّا من ذلك الثقل الذي رزح على نفسه طيلة سنوات عمره الماضية. وبينما كان يلقي آخر نظرة على أضواء شوارع مدينته التي خلّفها وراءه، والتي تلوح من مكانه هذا خافتة باهتة، كانت الأفكار تنهال عليه متواصلة وبغزارة منقطعة النظير. وَقَدْ حضرت هذه الفكرة حينها بقوّة، كأنّها استطراد أو تعليل لمسائل معيّنة.

«لم أحلم يوما بكلّ هذا الثراء، كان يكفيني كوخ صغير وزوجة طيّبة وأبناء معافون، لكن بدل ذلك، ورثت هذا العبء الثقيل. والآن، كم أنا سعيد لقدرتي على التخفّف منه. الآن صرت حرّا تماما، تحرّرت من آثار عائلتي، ومزاج مدينتي، ووهمي القديم. اليوم أرحل وحيدا متخفّفا من كلّ شيء، إلّا من فكرتي ورغبتي الحقيقيّة. الآن فقط أشعر بالهناءة التي لم أظنّ من قبلُ أنّ لها نظيرا في هذه الدنيا. الآن أمضي راجيا ألاّ يلحق بي كلّ ما ليس أنا، إلى هناك.»

في لحظات كتلك، حين يكون الذهن صافيا والمدارك تشتغل وفقا للوعي الجديد والمنطق المتحرّر، تفاجأ يوجين بفهم مغاير

لمسألة طالما بحث عنها بين الكتب والدراسات: «إن الإنسان يميل بشدّة إلى تبنّي الأفكار التي تقول بوهم الإرادة الحرّة، لأنّ ذلك في الحقيقة يريح كاهله ويجنّبه تلقّي الكثير من اللّوم، لأنّه لا يريد تحمّل نتيجة أفعاله، فهو لا يريد تصديق أنّ طبيعته الشخصيّة هي التي ألهمته فعل تلك الفظاعات التي يمارسها، أو تلك التي تمارس في حقّه، وهو بذلك يتخلى عن حريّته بكل طواعيّة، دون أن يهتزّ له طرف.»

* * *

كانت المدينة تبتعد، تختفي خلف أجنحة الظلام، وكان الطريق يبرز، فيبدو مغريا للخوض فيه، رغم الوحشة المحتملة، والمجهول الحتميّ، لكن بدا ذلك لائقا بمثل هذه المساعي..

«مازلنا في بداية الطريق وهذه العربة تحدث جلبة كبيرة. سأترجّل لأواصل السّير على الأقدام، فأنا لا أريد أن أستهلّ مسعاي هذا بأيّ عون. عد أنت أدراجك الآن، فلقد أصبحت كلّ أملاكي تحت وصايتك. تصرّف على النّحو الذي تراه مناسبا، فسيساعدك المحاسب. كن بخير... أمّا أنا فقد لا أعود مجدّدا إلى هذه المدينة المليئة بالذّكريات، فلا معنى لبقائي هنا.»

كنت دائما أجد بين صفحات الكتب القديمة التي امتلأت بها مكتبتي، مقولات في الحبّ تدور على هذا المعنى: «إنّ المسير من أجل الحبّ يتطلّب تضحية حقيقيّة».. ولذلك انتابني شعور عميق، وأدركت أنّ الأمر يستحقّ العناء. كان من الممكن أن أمتطي جوادا أو أختار صحبة يعينونني في سفري وبحثي. لكن، ما فائدة شيء كهذا، هناك بعض المساعي التي تحتاج إلى تجرّد من كلّ شيء، وأعتقد أنّ هذا واحد منها.

* * *

لم يحمل يوجين معه سوى ساعة ذهبية في جيبه. لعلّها الشيء الوحيد الذي أخذه معه. ومضى يستره ظلام الليل ووحشة الطريق. لقد ظننت أن خروجنا في جنح الظلام لن يتعدّى كونه نزهة للتخفيف من توتّره، خاصّة وأنّنا لم نكن مستعدّين، ولم نأخذ معنا أغراضا أو حقائب للسفر، لكنه كان قد أعدّ لكل شيء مسبقا، وأخذ القرار لخوض رحلته.

خيّم السواد السرمديّ على الأرجاء. كان شبحه يتجوّل بين الثنايا، مستترا عن أعين الجميع، يعبر كالظلال تحت أغصان الشجر. يسرع الخطى دون أن يلتفت خلفه، ماضيا دون وجهة معيّنة، هائما وكئيبا.

في ذلك الطريق الطويل، حيث لا ريح تحرّك أغصان الشجر، ولا صوت يبرز من وراء جدار الصمت، ولا أطياف تعبر مسرعة محاولة إضفاء بعض الغموض على اللّيل وظلمته، ظلّ يسلك دربه الجديد، حيث تكتشف قدماه وخطواته أماكن بعيدة وتتحسّس أحاسيس جديدة مختلطة، بين التأمّل والتوجّس.

قبل أن ينتصف الليل بقليل، توقّف عن المشي، نظر مليّا إلى السماء التي استعادت ألقها وضياءها بعد أن كانت تحجبها ظلمة سوداء حالكة. بزغ القمر من خلف غيمة صغيرة، تلك الغيمة الوحيدة التي ظلّت تحجب نوره طيلة الليل، كأنها حارس شخصيّ مكلّف بمهمّة. أطلّت ابتسامة خاطفة من بين شفتيه، ولمعت عيناه وهو يراقب هذا المشهد. بدأت الطبيعة حوله تستمدّ زينتها من نور هذا البدر العجيب.

غير بعيد عنه توسّط جدول ماء قطعة أرض خضراء، رشقته

السماء بسهام نور فضيّة اللون، مخترقة حاجزا ضبابيّا كثيفا، جعلت المكان يبدو غامضا وأسطوريّا، حتى أنّ بعض الطيور نزلت من أعشاشها في هذه اللّحظة السّاحرة، كأنّها ترغب في نيل نصيب من القطرات التي خيّل إليها أنها مقدّسة مباركة. انعكست على الجدول صورة قمر عجيب، فاصطبغت مساحته بلون فضيّ شفّاف وصاف، فبدا كأنه قرص من فضّة يسبح في بركة من شراب العنب. اتّكأ على جذع شجرة وغطّى رأسه بشال كان يضعه على رقبته. أطرق صامتا للحظات طويلة يفكّر في خاطرة مّا، ويناجي نفسه: «من أين أتيت؟ إلى أين أمضي؟ هذا طريق لم تسلكه من قبل خطواتي. هذا طريق لم تسر فيه من قبل ذاتي. كل شيء يبدو حديثا، لا أحد قد مرّ من هنا من قبل، بالرغم من أنني لست أول العابرين، وبالرغم من أن المقصود واحد. كم تاهت الخطى قبل هذا في الحياة الباذخة، وما أرسخ موضع القدم وأثبته منذ الشعور الأوّل باليقظة في هذه السبيل الكأداء.»

ظلّ لدقائق يتدبّر في كلّ شيء، تأمّل الحياة السّابقة والذّكريات التي تحيط به من كل اتّجاه، وقال مخاطبا نفسه: «إن أسوأ كابوس على الإطلاق، حياة تسير وفق نمط لم يصطدم يوما بأيّ حقيقة، حياة خطّتها الوحيدة الانكفاء على الذّات، والتّسليم بفكرتنا ونظرتنا إزاء الكون. لقد خبرت ردحا من الزّمن، لم أفعل فيه سوى هذا. لقد ظننت أنّ كلّ شيء في هذا العالم الكبير يتعلّق بي، بي أنا وحسب.»

أطلّت الشّمس من مخدعها أخيرا. كان مستعدّا ليواصل مسيره ورحلته. نهض من متّكئه ونفض الغبار عن ثيابه، فرك رأسه ورفع بصره عاليا. نظر إلى الشّمس وإلى السّماء، جال

بنظره نحو هذا المكان. مسح بيده على جذع الشّجرة التي قضّى ليلته تحتها، كأنّه يشكرها على حسن الحفاوة والترحيب به في ضيافتها. اتّجه نحو بركة الماء القريبة ليغتسل وفكره مشغول بهذا المسعى الذي أقدم عليه. لعلّه تأخّر في الأخذ بزمام المبادرة، أو لعلّ المجازفة بترك ماضيه وراءه والمضيّ قدما لم تكن أمرا واردا. لعلّ زمن التّغيير لم يكن ليأتي قبل حدوث بعض المستجدّات، كالشّعور برتابة الحياة، أو ظهور الحافز للإقدام بخطوة مماثلة نحو دروب أخرى، كلّ تلك الأمور الّتي تقلب حياة المرء تحدث هكذا، ببساطة، حيث يكون الخيار صعبا، ولا يكون هناك سبيل للتّراجع، دون الخشية من العواقب.

اقترب من بركة الماء فلاحظ وجود شخص غريب المظهر يقف غير بعيد. ظنّه رحّالا يجوب المدن والبلدان. انحنى ليملأ يديه بالماء فاقترب منه. لم يُبد يوجين أيّ علامات حذر بل أنهى غسل وجهه وأطرافه. سحب الشال، جفّف وجهه، وتوشّحه واستعدّ للمغادرة. دنا منه الغريب وظلّ يراقبه عن كثب، بدت سيماه غريبة بعض الشيء. كان الرجل طويل القامة، نحيلا، يرتدي ثيابا يميل لونها إلى الأصفر الفاقع، ملامحه تتّسم بالوضوح والوقار، جبينه أبيض يكاد يضيء، كأنّه قطعة من نور. وجهه منير بطريقة مثيرة للانتباه، مستدير كقرص الفضّة، كصورة انعكاس ذلك القمر على بركة الماء في هذه الليلة المنقضية. بدأت الشّكوك تساور يوجين وقد اعتراه شعور حذر، فوجود شخص بتلك الهيئة والملامح في مكان خال من البشر ليس أمرا اعتياديا، وقد كانت نظراته غريبة، وفي حركته شيء من الخفّة والسلاسة، إذ بدا غير ثابت في مكانه كأنّ الهواء يحمله حملا. ظلّ يراقبه ويمعن

فيه النّظر وقد تهيّأ لأي طارئ قد يحدث، فمثل هؤلاء الغرباء لا يمكن التكهّن بأفعالهم وتصرّفاتهم.

تحرّك الغريب بضعة أمتار في اتّجاهه وابتسامة ضئيلة جدّا تبدو على ملامحه، ثمّ قال بصوت عميق هامس: «من أنت أيّها المسافر المهموم؟ ما الذي يفعله شابّ نبيل مثلك في هذا الجوار الموحش؟»

بدا الارتباك جليّا على ملامح يوجين، فهو لم يتوقّع أن تكون تلك كلمات رجل غريب الأطوار لا تربطه به سابق معرفة، وبالرّغم من ذلك فهو عالم ببعض ما يتعلّق به. حاول ألاّ يبعث في نفس مخاطبه ما يشي بالهلع والحذر، وقال بنبرة تصطنع الثقة:

-«أدعى يوجين. أنا مسافر قادم من مدينة آريلا.» وأشار بيده ناحية الشرق. «من أنت أيّها الرجل؟ لست من هذه البلاد؟»

-«بل هذه البلاد الوسيعة بلادي..» فتح يديه وحرّكها بشكل دائريّ مشيرا إلى الاتّجاهات جميعها.

صمت لبرهة وأمعن النظر في مخاطبه وأردف قائلا:

-«كنت الليلة المنقضية أحرس هذه الأرض وأراقبها، أسترق السّمع متلهّفا لمعرفة ما يقصّه الناس من حكايات وأحداث، حين انتبهت لوجود نور عجيب يسطع من تحت تلك الشجرة. لم يكن نوري، فأنا أعرفه وأعلم أين أرسله وكيف يبدو من فوق، لذلك هبطت مسرعا لأكتشف من صاحبه وما قصّته، فوجدتك متّكئا هناك، حاولت معرفة من تكون، لكنّ هالة عظيمة كانت تحيط بك، ولم أتبيّن ملامحك، لقد كنت مستترا عن النظر، لكنّني سمعت فحوى نجواك. أخبرني عن حقيقتك أيها المسافر.»

أوجس يوجين في نفسه خيفة، وبدت عليه علامة الهلع

الشديد. قال في نفسه: «لا بدّ من أنّ هذا الرجل جنّي أو شيطان من عالم مّا..»

هزّ الرّجل كتفيه وطأطأ رأسه وجعل يهمس بكلمات غير مفهومة ثمّ سكت عن الهمس. فزادت حدّة توتّر يوجين، وبقي صامتا يراقب الرّجل الذي يقوم بحركات غريبة، وفجأة تذكّر ما قرأه ذات يوم في الكتب المليئة بالحكايات والأساطير؛ في زمان غابر كان معشر الجنّ يتّخذون صور البشر وهيأتهم كي يستطيعوا التّواصل مع الآدميّين. لكنّه سرعان ما طرد هذه الفكرة التي أثارت في نفسه المزيد من التوجّس.

«لكنّني لست جنّيا..» قال الغريب، ثمّ استطرد مضيفا: «ومع ذلك يجب أن تعلم أنّ هذا العالم مليء بالأسرار والخفايا التي لا يمكن أن تغضّ الطرف عنها. قد لا تكون صادفت شيئا كهذا من قبل، لكنّ ذلك لا يعني أنّه غير موجود، إنّ الفكر قد يعيق أصحابه أحيانا ويصهرهم في حياة مغلقة، لكنّ القلب وحده من يقدر على ولوج تلك العوالم، ومادمت تملك تلك الجوهرة بداخلك، فلا بدّ من أن يكون لك شأن عظيم، فأخبرني ما قصّتك.»

لم يكن يوجين قادرا على فهم ما يحدث، أصابه الذهول إلى درجة أنّه لم يقدر على قول أيّ شيء، شعر بأنّ لسانه ثقيل جدّا، ووجد أنّ الكلمات لا تجد طريقها للتحرّر. اقترب الغريب بسرعة منه وتسمّر أمامه، وضع يديه على كتفيه فأغمي عليه وسقط على العشب الأخضر فانتهى إلى عالم عجيب من الرّؤى.

«بقعة الضوء المنير اختفت.. بقعة الضوء المنير اختفت.. لم يعد هناك سوى بصيص صغير، نعم، هو خافت جدّا، لكن.. لكنّه

كاف لرجل منهك مثلي أن يتتبّع أثره، لا خطوات راسخة على الطّريق، لقد امَّحَتْ الآثار، لكنّ عبقا عتيقا مازال ملتصقا بجذوع الشّجر وأطراف العشب الطريّ. آه، يا لهذا الشّذى العتيق، إنّه كالخريطة السريّة المخبّأة بعناية في الكون، وفي الذّاكرة. من ذا الذي يقدر على منح كلّ هذه المواهب، من ذا الذي يستوعب دقّة هذه الهبات، من ذا الذي علّم الفؤاد تتبّع الطريق المنسيّ، إنّه بلا شكّ النّور الأعمّ، ما يحفّز مجرى المدامع بفيض إحسانه.. بقعة الضّوء المنير اختفت، لكنّ قبسا صغيرا خافتا ظلّ يهدي الإشارات كنوع من التّعويض. نعم، لن تترك وحيدا بلا أمل، لن يضلّ الطريق من رغب في السّير فيه.. لن تعمى العين والنّور الأبديّ ما يزال قائما، ولن يزول..»

ارتفعت في الأرجاء أصوات حزينة، كأنّها نحيب مخلوقات لا تنتمي إلى هذا العالم، ثمّ هدأ المكان بطريقة خرافيّة، وإذا بصوت الغريب يأتي من العدم دون أن تنبس له شفة، هامسا وحانيا:

-«لمن كلّ هذا الوجد، أيّها المحبّ العظيم؟»

-«لرفيقة روحي، لمستقرّ المودّة، نهر الحبّ المتدفّق في عروقي، فراشتي وبخوري. إنّها لُؤلؤة نادرة من زمن غابر تسكن أعماق بحر الحبّ، وأنا الطّفل الصغير الحائر الذي لم يُجِدْ بعدُ السّباحة في تلك البحار العميقة. إنّني أقف على الحافة، أيها الغريب، أقف بقدمين عاريتين باردتين. أشعر بتلك الرغبة الجامحة في الغوص إلى الأعماق، والرغبة في الغرق. لا بدّ من أن أقتفي أثرها، فإن لم أجدها، فسيكفي جسدي الفاني أن يُدفن هناك للأبد، لأصير جزءا من عالمها العميق ولتسكن روحي صدفتها. أنا أتلمّس الطريق، أتحسّس دربي البعيد، أسعى خلف مسعاي، لا يقودني

في رحلتي هذه سوى قلبي، هو مرشدي وبوصلتي. قلبي سيقودني حتما إليها.»

كانت الكلمات مثقلة بالحنين، شافّة عن وجد حقيقيّ برّح بصاحبه، وكأنّ كلّ المشاعر السّابقة لم ترتق لمثل هذا الرّقيّ الباذخ، كأنّ هذه النار التي أحرقت كبده لم تكن لتستعر لو ظلّ على عهده القديم بتعريفات الحبّ. لقد سمح لنفسه أن يتجرّع مرارات كهذه لكي يَخبر عن العواطف بعض جوانبها الدّقيقة، الباطنيّة، بدل أن تقتصر معرفته على قراءات تجارب أشخاص آخرين.

تكلّم الغريب وقد شفَّت نبرته عن تأثّر عميق بالغ، وقال بصوت حالم وديع:

-«يوجين. أيها المحبّ العظيم،إنّ طريق الحبّ طريق خاصّة، يتطلّب السّير فيها قلبا حيّا يمكّن صاحبه من فهم الإشارات التي لن يدرك معانيها إلاّ حين يتخلّى عن رغبته من أجل خير العالم. إنّ طريق الحبّ هي طريق أولئك الصادقين المتجرّدين من أعباء أوهامهم وأطماعهم، فحين تسلكه وتمضي فيه أولى خطواتك ستتبدّل الصّور الباهتة وستسقط الأصنام المتكبّرة، فكن حينها مستعدّا بقلبك، لأنّه لا جسد هناك ولا أنا، بل هناك نداءات ورؤى، فأغمض عينيك، وافتح أذن قلبك واتّبع النداء. إنّ العشق عبء كبير، وهو الرّاحة لذلك العبء. سر أيها المحبّ، سر نحو ضالّتك، فالمحبّون تُطوَى لهم الأرض وتخِرُّ لوقع خطاهم، ما أروعه من مسير، ما أسعدك بهذا المسير!»

أفاق يوجين. فتح عينيه ببطء، وجعل يتفقّد المكان من حوله وقد بدا هادئا مطمئنّا. ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة. كان الغريب واقفا مكانه، نظراته تراقب يوجين الذي بدا مستغرقا

في التفكير وقد علت شفتيه ابتسامة، كأنّه ظفر بشيء مّا. بادله الغريب ابتسامة وأشار بيده إلى قلبه وقال:

-«اتبع قلبك أيّها المحبّ، فهو الدليل الوحيد الذي سيرشدك إلى الطّريق، حين تختلط عليك الأمور، وتتشابك السّبل.»

انحنى يوجين وطأطأ رأسه خاشعا. التفت الغريب تجاه قبّة السّماء الزّرقاء، فغشيته الأنوار وتبدّلت صورته. صار أشبه بالملاك. ضرب بأجنحته وحلّق بعيدا، نحو عين الشمس الحامية، وغاب عن الوجود.

* * *

واصل يوجين رحلته، لا يدري إلى أين يمضي، لكنّه كان يتبع شيئا مّا كامنا في ذاته، غير واضح المعالم بعد. لكنّه رغم ذلك شعر بوجوده وبسطوته، فهو يُسيِّره ويقوده دون أن يوضّح معالم الطريق له. راودته الأفكار من جديد، حاول فهم سّر ذلك الكائن الذي كلّمه في رؤياه، فراودته خواطر عجيبة:

-«ما الكون؟ وما مدى اتّساعه؟ هل قبضنا بين أيدينا على حقيقته أم نحن بعيدون عن فهمه والإحاطة به؟ هل يصادف ألاّ نكون الوحيدين القادرين على الوعي والتفكير؟ وإن كانت هناك عوالم أخرى لا يمكننا إدراكها بعد، فكيف يمكن أن نعمل في أفقنا هذا دون أن نستشعر وجود تلك العوالم؟ ما هو ذلك الكائن؟ وما اللّغة التي يمكنها أن تعبّر عمّا لم نُحط به علما؟ وهل اللّغة عاجزة عن الإحاطة بالموجودات، أم نحن ننفي وجود الأشياء لأن اللّغة قاصرة ومحدودة؟»

راوده حينها شعور بأنّ رحلة الحياة لا تبوح بجميع أسرارها، وبأنّه من العدل أن تستتر الأسرار، في عالم لا يوليها أيّ اهتمام ولا

يلتفت إليها محاولا كشف الأقنعة عنها. ظلّ يحاور نفسه: «نعم، إنّه عالم مغلّف بالجفون، إنه عالم عيناه نائمتان..» وواصل مسيره حاملا في ذهنه كل تلك الحيرة والأسئلة. وفيما هو كذلك، مرّ بإحدى الغابات، حيث شاهد عددا من الحطّابين منهمكين في قطع جذوع الأشجار. راقب الفؤوس وهي تضرب بشدّة فتهزّ الأغصان. كان غير بعيد، فلمح تساقط الأوراق والأعشاش الصغيرة. بعض الثمرات تدحرجت للأسفل وطارت بعض الطيور الصغيرة قبل أن يحين ميعاد طيرانها. فشعر بوجع الأشجار وهي تتخلّى عن روحها وكاد يسمع تأوّهها. بل كأنّه سمع صوتا عميقا حائرا في تلك الآونة يقول:

«أيتها اليد المباركة فلتقطعي جذعي،
ولتجمعي غصني،
ولتحرقي لحائي،
لكن هلاّ عدلتِ لحظة
حتّى أودّع أصدقائي..
هلاّ جمعت بيننا
بيني وبين الجذر الذي
تحت الثرى..
ماذا يحلّ، لو افترقنا،
يا ترى؟
ذاك الذي أبكيته
هو موطني
مأساتي هي
أن تتركيني للعراء..»

مسح دمعة تسلّلت من عينيه ومكث يسترق السّمع، يراقب الأوراق المتناثرة. أمعن النّظر في أثر الفأس بجذع الشّجرة، مشفقا على حزن عصاه الخشبيّة، التي لعلّها تنهش جسد أحد أقربائها. ثمّ غادر المكان وفي قلبه وجع جديد.

واصل مسيره. ظلّ يمشي هائما على وجهه، وعلى رأسه شال من حرير يحتجب به من أشعة الشمس نهارا، و يغطّي به رأسه ليلا حين يخلد للنوم. كان يحثّ خطواته مخلّفا وراءه كل عالمه القديم، ماضيا في مسعاه، من أجل حياة جديرة بالحبّ والوصل والسّلام. وبينما كان يعبر الطريق بين الأشجار، حطّ على كتفه عصفور، لعلّه استوحش وحدته وغربته. كان لهذا الطّائر الصغير صوت جميل جدّا، يغنّي، يقفز، يعلو، ويحطّ. ظلّ يستمع إليه دون أن يجفله، حاول مجاراة زقزقته، وجعل يغنّي معه أنشودة بلا كلمات. أنشودة لها صوت يشبه روح هذا الكون الفسيح، أنشودة الحياة السرمديّة، أنشودة المحبّة.

ظلّ يمشي طوال اليوم بلا توقّف، يتغذّى على فاكهة الأشجار البرّية المترامية الأطراف، ويشرب من ماء الجداول. طريقه مجهول، لكنّ البوصلة التي تسكن ضلوعه، ترشده إلى الطّريق، كأنّها تتبع صوتا أو نداء خفيّا. أدركه اللّيل أخيرا وقد أسدل ستائره على الكون. افترش الأرض وتلحّف السماء. جعل النّجوم قناديله، واتّخذ جذع شجرة عتيقة متّكأ له. أمسك الطائر الصغير بيديه. خبّأه بين ثنايا ذراعيه، ووضع الشّال على رأسه، وخلد للنّوم. لقد كان مرهقا جدّا، إلى درجة أنه لم يشعر بالسّاعات تمضي، إلاّ حين سمع صوت طائره الصغير وهو يغنّي منبئا إيّاه بحلول نهار جديد.

في ساعات الصّباح الأولى، والجوّ ما يزال منعشا، حمل يوجين طائره برفق، وصنع له عشّا على غصن قريب، ووضعه هناك، وودّعه، كأنّه يقول: «ها هنا تفترق طرقنا، فليعشْ كلّ غريب قصّته وقدره، لكن لنفترقْ أصدقاء.»

مضى يبحث عن الماء كي يغتسل ويشرب ليروي عطشه. ظلّ يمشي لدقائق حتى عثر على نهر غير بعيد، حيث وجد شيخا يتّكئ على عكّازه، يرتدي ثوبا من الصّوف، طويل القامة، أبيض اللّحية. فاقترب منه وألقى التحية فلم يردّ الشّيخ. دنا منه أكثر ليتعرّف على ملامحه. كانت التّجاعيد تغطّي وجهه، سمرة طفيفة صبغته كأنّه تمثال من خشب. بدت يداه قويّتين من طريقة إحكام قبضته على العصا التي كان يتّكئ عليها.

ظلّ يراقبه في صمت، ثمّ اقترب من بركة الماء ليغتسل. صار يحاذيه، والشّيخ لا يلتفت. انحنى ليملأ يديه بالماء، فوكزه بعصاه، وقال:

«تمهّل أيّها العجول، ما حالك هذه؟ ألا ترى أنّك أخفت ذلك الظّبي الصّغير وحرمته من الماء. أتظنّ نفسك أكثر عطشا منه؟ أو لعلّك تحسب نفسك أحقَّ منه بالحياة؟»

ذعر يوجين وأمسك ذراعه التي أصابتها عصا الشيخ، وركّز بصره على نبتة كثيفة الأوراق، خرج من ورائها حيوان صغير وانطلق غير بعيد، فقال معتذرا:

-«اعذرني أيها الشّيخ، لم ألاحظ وجود هذا الظبي الصغير، سأمسكه إن أردت وأجلبه كي يشرب..»

-«افعل إن شئت..»

اقترب يوجين من الحيوان الصغير بحذر شديد. حاول

في حركة سريعة إمساكه، لكنّه فرّ بعيدا. فعاد وهو يعضّ على شفتيه، فوجد الشّيخ واقفا مكانه ينتظر.

-«هَا، أراك عدت وحيدا.»

-«نعم، لم أستطع الإمساك به، يا للأسف! لقد فرّ.. كان سريعا..»

-«أوَتعلم شيئا أيّها الشاب، لا تعتقد أبدا أنه يمكن جعل الأمور تسير وفق ما تريد لتحقيق العدل، فربّما وأنت تفعل ذلك بنيّة سليمة، تقترف السّوء والظّلم في حقّك وحقّ الآخرين. لقد ظننت أنك ستعيد الظبي بسهولة، لأنّك اعتمدت حسن نواياك في طلب الماء له، لكنّ ذاك المسكين انعدمت ثقته فيك، حين أفزعته أوّل مرة، ورأى أنّك تظنّ نفسك أجدر منه وأحقّ بالماء، فكيف يستوي أن تخيفه في المرّة الأولى وتطلب ثقته في المرّة الثانية؟ وإن فعل وتركك تمسك به كي تحضره ليشرب، فهل كنت ستسامح نفسك لو التهمه ذاك المفترس المختبئ هناك؟ انظر!»

أشار الشيخ بعصاه إلى الجانب الآخر من النهر،حيث كانت تحدّق فيهما عينان كبيرتان عن كثب. فزع يوجين من تلك النظرات الثّاقبة التي تطلّ من تحت الماء، وظلّ صامتا محاولا تدبّر ما حدث.

-«أيّها الشّيخ، لماذا سمحت لي إذن بالذهاب للإمساك بالظّبي، وأنت تعلم وجود حيوان مفترس غير بعيد؟»

رمقه الشّيخ العجوز بنظرات واثقة، وأردف كلمات أشبه بالهمس:

-«لأنّني أثق في الفطرة التي جبل عليها الحيوان، في حين أنّني أعجب لسوء صنيع الإنسان بالرّغم من حسن نواياه

وصدق رغبته. الأسلوب والطريقة هما الأهمّ. قد ترجو خيرا لغيرك، لكنّك قد لا تحسن التصرّف، وقد تريد إنزال شرّ مّا به، بأسلوب سليم، فتدرك بذلك ما لم تدركه بحسن نواياك، والعلّة هي أن تَقرِن حُسن نواياك بالطريقة المثلى، والأسلوب الملائم. فِطرة الحيوان النقيّة حَتَّمت عليه الهرب بعيدا، فنجا بحياته وإن لم يشرب، في حين أنّ نواياك الحسنة جعلتك تعود خاليَ اليدين، رغم أنّك حاولت. هل أدركت يا بنيَّ العلّة؟ لكن رغم ذلك كلّه فهذا الحيوان الصغير مدينٌ لك بحياته لأنّك أنقذته وقدّمت له درسا عظيما.»

عَلَت وجه يوجين نظرة استغراب وتساءل:

-«وكيف فعلتُ ذلك؟ لم أفهم؟»

-«لقد فعلتَ ذلك دون أن تدرك. حين أخفتَه أبعدتَه عن مكان الخطر، ولأنّه بسببك قد زرعتْ فيه صفة الحذر التي لم يكن يمتلكها بعد، حين ذهبتَ محاولا جلبه. وذاك اختبار حقيقيّ، قد تعلّم منه الظّبي الصّغير درسا غاية في الأهميّة. تحدث الأمور أحيانا دون أن نتفطّن إليها، كما أنّ حقيقة بعضها ليست كما تبدو عليه، أو كما نحسَب ونُقدِّر!»

-«هذا درس لن أنساه ما حييت، أيها الشّيخ الحكيم. لكن، أخبرني، من تكون؟»

-«أنا حارس هذه الغابة. لقد رأيتك تنام تحت تلك الشجرة، هناك، وانتابني الفضول لأعرف من تكون. فخلال سنة كاملة، لم يمرّ أحد عبر هذا الطريق الموحش، لكن هذا الأسبوع مختلف جدّا، فلقد مرّت شابة منذ أيّام من هنا، حتّى إنّها جلست تحت ظلّ تلك الشجرة لدقائق، ثمّ انصرفت. أظنّ أنّ الناس لم يعودوا

يخشون مثل هذه الأماكن.»

-«ربّاه! هل مرّت ليندا من هنا؟ أحقّا ذلك أيها الشّيخ الحكيم؟ أخبرني أتوسَّل إليك.»

-«ما قصّتك أيها الشاب؟ ومن تكون تلك الفتاة؟»

-«ربّاه! هل يمكنُ أن يحدث الأمر فعلا؟ هل أنا حقّا على الطريق، أم هي مجرّد صدفة؟ كيف تطأ قدماي أراضيَ مشت فيها حبيبتي، دون أن أهتديَ وأشعر بروعةِ حضورِها الماضي في كلِّ تلكَ الأمكنة؟»

نحا يوجين باللاّئمة على نفسه وقرّعها، لأنّ شعورا اعتراه حينئذ لم يقدر على تجاهله، فلقد ظنّ أن عدم تفطّنه لمثل تلك التفاصيل الصغيرة كان بالأساس سبب هجر حبيبته منذ البداية، فبالرغم من إدراكه أنّ معرفة أشياء كتلك يعدّ أمرا مستحيلا، إلّا أنّه لم يسمح لضميره بالتّخاذل وتحقير الأمور كما يحلو له، واعتبر مرور حادثة صغيرة كتلك دون ردّة فعل صارمة قد يجعله شخصا لا مباليا في قادم المرّات. ولئن كان التّفكير بمثل تلك الطريقة أمرا مبالغا فيه، فهو يعتبر ذلك كلّه، -من وجهة نظره الشخصيّة-، حرصا حميدا من شأنه أن يحسّن من خصاله وطبيعته. ولعلّ ذلك الشيخ، بالرغم من أنّ يوجين لم يفصح له بما جال في نفسه، ولم يبدِ ما يشي بما يفكّر فيه، قد لاحظ تلك الحيرة بادية على محيّاه، فما كان منه إلاّ أن أبدى تعاطفه معه، إذ قال له وهو يهمّ بالابتعاد:

-«أحيانا يكون جهلنا بالتّفاصيل نعمة عظيمة، لأنّ الشّقاء كل الشّقاء، فكرٌ قادرٌ على الذهاب بعيدا، خلف كلّ كلمة وإشارة، ذلك أيضا قد يكون علامة على البؤس.»

قال حارس الغابة تلك الكلمات، ومضى إلى وجهة مّا، وتوارى عن النظر.

* * *

«منذ أيّام مرّت ليندا من هنا. نعم إنّني على الطريق الصّحيح. لكنّني مازلت بعيدا جدّا. يلزمني الكثير من الوقت والصبر. يستوجب عليّ خاصّة الإصغاء لبوصلة قلبي ومسايرة تلميحات روحي الكامنة والانتباه للإشارات. أظنّني إن التزمت بهذه الخطّة، فسأجد حبيبتي وسأهتدي إليها. إنّني على الطريق، أظنّني كذلك.»

واصل يوجين الطريق، آملا متأمّلا أن يلقى الخلاص، كان شاردا وكئيبا، لكنّه كان واثق العزم في قرارة روحه، محبّا عظيما لا يعجزه أمر عن إنهاء مسيره. كان الجوّ خاليا من أيّ نسمة باردة. أشعّة الشمس تنهمر من السّماء، كأنّها سهام حارقة. فجبينه يتصبّب عرقا، وقدماه تضربان في أرض مغبرّة، فيحدث ذلك تطايرا للغبار ولحبّات حصى صغيرة. كان يجول ببصره بحثا عن عابر سبيل أو قرية منسيّة في تلك الربوع، لكن لا حياة على هذه الأرض على ما يبدو. ظلّ يمشي لساعات طويلة دون أن يتوقف، كان عَدوّه حرارة الشمس والعطش الشديد. لم يشأ أن يتوقّف بالرغم من أنّ جسده مُنهك مُنهار، لأنّ روحه كانت حيّة وحرّة، تتوق لجائزة عظيمة. كانت روحه تشعّ حيوية وتتدفّق حياة وارتواء.

أدركه الليل، وقد صار في حالة يُرثى لها. أخيرا ها ظِلّ يسدل ستائره على الأرجاء. كانت السّماء مُزدانة بالنجوم المشعّة المتوهّجة، والقمر مختَف وراء غيمة غريبة الشكل، يكاد ضياؤها

يصرخ من خلف الغيمة: «إليكِ عنّي»..

طيور صغيرة تجول في الأجواء، وتُصدر أصواتا متنوعة. رفع يوجين رأسه للسماء بصعوبة، ثمّ سقط على الأرض مُغمى عليه. بدأت الغيمة الغريبة الشكل تقترب شيئا فشيئا. لاح القمر في هيئته المكتملة، وأضاء كلّ الكون، فبات من الجليّ رؤية أشكال الحياة. طلعت الحيوانات الصغيرة من جحورها وأعشاشها. اقتربت تلك الغيمة الغريبة، فسقطت قطرات مطر باردة. اجتمعت الحيوانات مستبشرة بهذا الغيث الذي انقطع عن أرضهم طويلا، فسمع لها أصواتا جميلة، اختلط هديل الحمام ونزيب الظباء وضغيب الأرانب وعندلة العنادل، وصوت تساقط المطر، فأحدث سمفونية الحياة الخالدة، لوحة فنيّة عفويّة راقية مجرّدة. أفاق من الإغماء، ظلّ يستمتع بضربات المطر الهادئة الباردة على جسمه، مستمعا إلى تلك المعزوفة النادرة. أدرك حينها أنّ الحياة تولد من رحم التفاصيل الصغيرة، وتنبعث من العدم في لحظة صفاء ونقاء، فخطرت بباله ذكرى لقائه مع ليندا للمرة الأولى، فابتسم. وردّد وهو مُنتش بحلاوة الذكريات الغابرة: «يا لروعة التّفاصيل الصّغيرة في الحياة..»

نهض من مضجعه الأرضيّ. ظلّ يشاهد ذلك المشهد الرائع، وجعل يدور ويرقص تحت زخّات المطر، كالمجانين، أو كالدّراويش، والأطفال الحالمين.

(2)

كان «يوجين آلديم» شابّا في الثلاثين من عمره، لكنّه يخوض مثل هذه الأحاسيس والتّجارب للمرة الأولى في حياته. هو يتصرّف كمن أطلق جناحيه أخيرا، كمن غادر القفص، لذلك صار يرى العالم من منظور آخر مختلف. لكنّه، في رحلته ووحدته تلك، لم يكن يبالي بأي شيء، فلا رقيب يحكم على أفعاله، ولا خجل يعتريه بسبب نقد الذات. لقد تخفّف من كل تلك الأعباء، لذلك كان خفيفا، يجول الأراضي ويقطع الطرقات الغابرة المنسيّة، ينام تحت الأشجار ويشرب من الأنهار، و يأكل ممّا يصطاده، أو ممّا تُنبِتُ الحياة من ثمار برّية، دون أن يعكّر ذلك صفوه وحرّيته. وفي الأخير انتهى به المطاف، بعد أيّام من السّير المتواصل والسّفر الطويل، إلى حدود بلاد أجنبيّة لم يزرها قطّ من قبل، إلى قرية صغيرة يحاذيها نهر جار. الأشجار في هذا المكان منتشرة على امتداد النظر، ومن بعيد تلوح غابة كثيفة.

وقف يتأمّل الأسوار العالية التي شُيِّدت على مشارفها، وتفحّص وجه جنديّ نائم بالقرب من مدخل بابها الخشبيّ الضخم. سمع صوتا قادما من ورائه، فالتفت، فإذا عربة يجرّها حصان، تحمل براميل وصناديق وأشياء أخرى، يقودها رجل مسنّ، ظلّ يرمقه بنظرات غريبة، وقد بدا خائفا ومذعورا. اقترب الرجل منه، وقال بصوت خافت حذر:

-«ماذا تفعل هنا أيّها الشابّ، ألا تعلم أنّ هذه البقاع محرّمة؟ تعال، أُدْنُ، قبل أن تتسبّب في كارثة. هيّا اصعد العربة.. بسرعة..»

صعد يوجين وجلس بمحاذاته، دون أن ينبس بكلمة واحدة، وقد اعترته الحيرة. نزع الرجل معطفه وأعطاه إيّاه، وطلب منه ارتداءه والتزام الصمت.

-«انهض أيّها الجنديّ.. لقد وصلت.. هيّا أيّها الكسول..» قال الرجل بنبرة حادّة.

استيقظ الجنديّ متكاسلا، وبدأ يتثاءب. فتح فمه فظهرت بضع أسنان صفراء، وضرس ذهبيّ، لعلّه الشّيء الوحيد ذا القيمة الذي يمتلكه بالنّظر إلى بذلته الرسميّة البالية، وملامحه الشّعثاء الرثّة، وشاربه الطويل. يخيّل إليك حين تنظر إليه أنّه بالإمكان إخفاء طائر صغير، أو صنع عشّ، داخل ذلك الشعر المجعّد الأشقر.

بالكاد فتح عينيه، بكسل شديد، تقلّب على جنبه الأيمن ليكمل نومه داخل كوخ الحراسة الصّغير الذي لا يمكن أن يتقاسمه شخصان لشدّة ضيقه واتّساخه، فصدرت من داخله رائحة كريهة. انتشرت حوله بقايا أكل، وجوارب متّسخة، وحشرات صغيرة، وعند الزّاوية ترى جرذا يقضم قطعة خبز يابسة بجانب سّلة طعام. كان صوت الجرذ وهو يقضم قطعة الخبز اليابسة مزعجا، كدَّر على الجنديّ راحته، ففتح عينيه، باحثا عن أيّ شيء يرميه به. حينها انتبه لوجود رجلين بالخارج يفحصانه، فوثب من مكانه مستنفرا، وجذب بندقيّته وصوّبها نحوهما واقترب حذرا وهو يصيح:

-«من هذا الغريب أيّها اللّعين؟ إنّك تخالف أوامر القيادة،

لن أسمح لك بالمرور. أمّا هذا...» أشار تجاه يوجين موجّها إليه فوّهة بندقيّته، «فسيذهب معي إلى المدينة لنرى ما أمره! هيّا..»

لم تثر كلمات الجنديّ فزع الرّجل المسن، إذ هاجمه بحدّة مهدّدا:

-«لقد سمح لي القائد لاتسا باصطحابه، فلا تزمجر وعد إلى الحراسة ولا تنم، وإلاّ أخبرته بأنّك تسرق الخراطيش من مخازن السلاح وتبيعها للصيّادين. إنّها تجارة تدرّ مبالغ محترمة، ولا أريد أن أفسد أعمالك، فأنت تعيل عائلة كبيرة.»

رمق الجنديّ الرجل المسنّ بنظرة ازدراء. خفض سلاحه، وفتح الباب الكبير دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، وتركهما يدخلان. تحرّكت العربة وعبرت إلى الدّاخل. التفت الرّجل ليوجين وأخبره بما خطر على باله لحظتها:

-«أحيانا، يجب أن نكون أشرارا، كي نقدر على العيش بسلام.»

خلف تلك الأسوار، لاحت الأكواخ والبيوت المتناثرة على مساحات متباعدة؛ إصطبلات وأقنان، أغنام وخراف تركض في كلّ مكان، كنيسة قد تداعى جزء من أحد جدرانها، فتبرز من خلال شقوقه الفوضى وأكوام القشّ والتّبن، كأنّها تحوّلت إلى مستودع أو مخزن. بدا المكان خاليا من الناس. اتّجهت العربة إلى كوخ في أقصى القرية. فتح الرّجل الباب وطلب من مرافقه الدخول والجلوس. دلف يوجين إلى الدّاخل وجلس على كرسيّ خشبيّ. فجلب المضيف إبريق شاي، وضعه على النار، وانضمّ إليه. ظلّ الرجلان يتفحّصان بعضهما بعضا بضع دقائق سادها الصمت والترقّب. فجأة قاطعهما صوت إبريق الشّاي وقد فاض ماؤه وانسكب فوق الجمرات. أسرع الرّجل وحمل الإبريق،

وصبّ في كأسين من البلور بعض الشّاي الدافئ، وقدّم لضيفه أيضا بعضا من الخبز واللّحم المقدّد.

أخذ يوجين يأكل ما قدّمه مضيفه في نهم، فهو لم يتناول طعاما حقيقيّا منذ مدّة. تذكّر الأيّام الماضية، حين كان يقتات على ثمار الأشجار وما كان يصطاده من أرانب وطيور. أنهى طعامه وشكر مضيفه وأثنى عليه.

قال الرّجل:

-«لقد كدت تتسبّب في مقتلك أيّها الشاب، ما الذي كنت تفعله عند باب القرية؟ الجميع يعلم أنّه لا يسمح لأيّ أحد سواي بالدّخول والمغادرة، لا بدّ من أنّك غريب عن هذه البلاد، هل أنت تائه؟ لا أعلم لمَ أوقعت نفسي في ورطة كهذه. لقد كذبت على الجنديّ وجعلتك ترافقني، لو علم القائد لاتسا بذلك فسأعلّق على حبل المشنقة. يا إلهي ماذا صنعت..»

-«اعذرني يا عمّ، فأنا لم أقصد أن أتسبّب بأيّ متاعب. لقد كنت أبحث عن مكان أرتاح فيه كي أكمل سفري في ما بعد..»

-«يمكنك المكوث معي الآن، وسنرى لاحقا ما العمل.»

جعل الرّجل يخلّل لحيته البيضاء، وفي خاطره شيء مّا، حدّث نفسه قائلا: «أخشى أنّي ارتكبت حماقة كبرى، لطالما كنت متحفّظا وأكثر حرصا. ليرحمنا الربّ.»

-«أنا ممتنّ لك كثيرا يا عمّ..»

-«يمكنك مناداتي باسمي، ديميتري. على الأقل ستكون الشخص الوحيد الذي يعترف باسمي الحقيقيّ، إنها فرصة ثمينة.»

فحص الرجل يوجين بنظراته، ثمّ أردف موضّحا:

-«لا تستغرب، فأنا رجل تعيس، لا هويّة لي، ففي المدينة يدعونني بشيخ المؤونة، لأنّني أذهب هناك لاقتناء المؤن فقط، والقرويّون هنا يسمّونني الزائغ، لأنّهم يعتبرونني مختلفا عنهم. الوضع هكذا منذ سنوات. لكن، أرجو ألاّ تتردّد في مناداتي باسمي، فذلك يعني لي الكثير.»

-«يسعدني ذلك يا عمّ ديميتري.»

شعر ديميتري بالسعادة الغامرة، فهو يسمع اسمه يتردّد على لسان شخص مّا للمرة الأولى منذ سنوات. لقد كانت من بين عاداته أن يظلّ يردّد اسمه مرّات كثيرة كلّ يوم، عادة أجبر عليها، كنوع من التعويض، أو كردّ اعتبار لاسمه.

-«إنّي أرحّب بك في ضيافتي، وأرجو ألاّ تنزعج من كلام ذلك الحارس، سأتدبّر أمري معه.»

تنهّد ديميتري، أخذ نفسا عميقا، ثمّ واصل حديثه:

-«لا أخفيك سرّا، إنّ هذه المنطقة محرّمة، لا أحد يجرؤ على القدوم إلى القرية أو مغادرتها، ما عداي طبعا. ولذلك تفاجأت حين رأيتك تقف قبالة الحارس. خلتك ستقوم بأمر متهوّر، وخشيت إن رآك بمفردك أن تسبّب لنا المتاعب أيضا.»

-«و كيف ذلك؟ لم أظنّ أنّ الأمور بهذا السّوء.»

-«بل أسوأ ممّا قد يذهب إليه خيالك. الحكاية طويلة، سنرى في ما بعد إن كنت ستهتمّ بسماعها أم لا. لمْ تخبرني ما اسمك، ومن أين أتيت، وما حكايتك؟»

-«أدعى يوجين. أظن أنّ حكايتي لا تقلّ غرابة عن حكايتك.»

مسافرا بالذّاكرة إلى زمن غير بعيد، هناك من حيث أتى،

بدأت الذكريات تعود وتتجلّى. قال:

-«منذ زمن غير بعيد، كان بيتي لا ينطفئ نور قناديله، ولا يهدأ قدره ولا تفرغ موائده خلال المآدب وحفلات العشاء. لم أشعر يوما بالوحدة، فكل يوم يطرق بابي ضيف أو عابر سبيل. كانت أيامي مختلفة وحافلة. كان لديّ حبيبة وهوايات أمارسها، عمّال وخيول ومزرعة كبيرة. كانت حياتي مرتّبة ودافئة. لقد كنت هادئا ومطمئنّا، نعم، هكذا أتذكّر حياتي. لكن، في أحد الأيام غادرتني الفتاة التي أحبّ، تاركة في قلبي صدعا وشرخا كبيرا. حينها فقط، أدركت أنّ كلّ شيء سيتغيّر ولن يعود كما كان. وبالفعل، تحوّل كلّ شيء جميل بشعا؛ حرّيتي باتت قيدا وبيتي صار منفى، رغم كلّ أسباب الرفاه التي تحيط بي.»

-«قصّتك حزينة يا بني، لعلّك تشبهني. أنا أيضا منيت بعذابات فَقدِ زوجتي وولديّ الوحيدين. أخذت منّي الحرب جميع أحبّتي.»

سكت ديميتري لبضع ثوان، مسح بطرف قميصه دمعة فرّت من عينيه، ثم أضاف بنبرة منكسرة:

-«لا يجب أن يفارق الناس أحبّتهم، لا يجب على الآباء مواراة أبنائهم التراب. لِمَ يسرق منّي القدر كل شيء، ويبقي عليّ وحيدا؟»

اقترب يوجين منه وجلس عند قدميه. أمسك بيده المرتعشة وأخذ يواسيه:

-«لا تُخْفِ دموعك يا عمّ ديميتري، حرّرها ودعها تنطلق، فهي كفيلة بإزاحة تلك الأحمال التي تعتمل في صدرك. الدّموع وحدها تكشف مدى سماحة أرواحنا ونقائها. لطالما أشفقت على

أولئك الذين يدّعون القوّة، ويحبسون الدّموع ويخفونها خوفا من أن يراها الآخرون. هم يقتلون جزءا من أرواحهم الكامنة ويضعفونها، أمّا أولئك الذين تحرّكهم المواقف والعواطف فتحزن قلوبهم وتبكي عيونهم، فهم أصفى روحا وأنقى سجيّة وأبرأ نفسا.»

ظلّ ديميتري ممسكا بيد يوجين بشدّة، ولم يحاول هذه المرّة كبت دموعه وحزنه. بل أطلق لنفسه العنان، وترك العبرات الحارقة تنزل، لتحرق تلك الذكريات المظلمة التي مازالت قابعة في أعمق أعماق روحه. بكى بكاء شديدا مريرا، كبكاء المعذّبين وبكاء المظلومين الذين لم ينصفهم القدر.

اعتقد يوجين جازما أنّ للدّموع مجدا ووقارا لا يمتلكه الجبابرة والطغاة، بل هي حكر على أولئك المساكين، الأنقياء، أصحاب القلوب العظيمة، فهم وحدهم من يعيشون مجدهم الشخصيّ ووقارهم، بعيدا عن ضوضاء التكبّر وصخب التعالي. الدّموع بالنسبة إليه وسام معلّق على صدور أصحاب القلوب الحيّة والحرّة، ونيشان تَقدِير به وحده تتمّ التَّفرقة بين الإنسان الحقيقيّ وأشباه البشر. لذلك فهو شخص سرعان ما يتأثّر. كان بكّاءً كبيرا، وكان وقورَ الحزنِ.

* * *

نزل يوجين في ضيافة ديميتري عدّة أيام، كان مضيفه سخيّا، كريما جدّا، رغم ما يبدو عليه من خصاصة وفقر، حتى أنّه عرض عليه العمل معه ومساعدته، لجمع الحطب للقرويّين، فالجميع لديهم أعمال أخرى يقومون بها، ولا يجدون الوقت الكافي للذهاب إلى الغاب، أو هذا ما ظنّه في بادئ الأمر.

استحسن الفكرة، ولم يجد مانعا من ذلك، فهو وإن كان يسعى إلى القيام بأمر آخر، فقد شعر بدافع لتلبية رغبة مضيفه الذي أدخله بيته في ظروف غامضة. وبدافع ردّ الجميل والحصول على برهة من الزّمن للتفكير في ما يجب فعله في قادم الأيّام، قرّر المكوث بالقرية إلى أن يستعيد عافيته ويعيد لملمة أفكاره.

-«سأعود إلى المدينة غدا صباحا، قد أبقى هناك يومين أو أقلّ، فلديّ بعض الشّؤون أقضيها. الطقس يزداد برودة، وبصفتي شيخ المؤونة يجب أن أجلب ما تحتاجه القرية. فهل توصي بشيء؟»

أطلّت ابتسامة من بين شفتيه، وظلّ ينتظر ما سيقوله يوجين كأنه يتوقّع كلمة معيّنة.

-«اعتن بنفسك يا عم ديمتري ولا تقلق بشأني، كن بخير.»

أطلق العجوز العنان لنفسه وجعل يضحك، كطفل صغير، وبمرح صبياني اعترف ليوجين بشعوره:

-«لا يمكنك تخيّل الأثر الذي يحدثه سماع اسمي في نفسي. إنه شيء ممتع، لكن لا أحد يتفطن لذلك. لقد تعوّدوا، وما أبأس الإنسان حين يتعوّد، فهو يفوّت أشياء كثيرة، أشياء حقيقية ذات معنى، أشياء كفيلة بإدخال البهجة إلى القلب.»

أطرق ديميتري يفكّر كأنّه تذكّر أمرا مّا، وواصل حديثه بنفس المزاج:

-«بالمناسبة، تستطيع الذهاب إلى الغابة إن أردت، سأطلب من ذلك الجندي الوقح السماح لك بالمغادرة، سيضطرّني فعل أمر غريب كهذا إلى المجازفة، وسيكون إقناع القائد لاتسا بكلّ هذه الأمور خطرا أيضا، لكن، ما الذي سيخشاه شيخ هرم مثلي،

إني أشعر ببعض الإثارة، هل تصدق ذلك؟ كأنّ هذه المشاعر قديمة جدّا، كأنها تأتي من مكان قصيّ وبعيد يا بني، شكرا لك، إذ منحتني كلّ هذا..»

كان ديميتري خائفا، ولكنه سعيد سعادة غامرة. كان يبتسم كرجل استردّ كيانه الذي فقده منذ سنوات. لم يبت ليلتها ولم يغمض له جفن، ظلّ ينتظر الصباح بفارغ الصبر، وهو على أهبة الاستعداد لمواجهة الحياة من جديد.

غادر القرية باكرا، في حين ظلّ يوجين في الكوخ لا يجد تسلية سوى بعض الذكريات القديمة، يعيد بها تصوير حياته الماضية. أمسك ساعته الذهبية، تأمّل عقاربها وريشتها التي تدور، فخطرت بباله صورة ليندا. زمّ شفتيه، واستغرق في خياله يرسم لنفسه لقاء قريبا يعيد إليه روحه التي باتت شاردة.

الطقس يزداد تعكرا وبرودة كل يوم. خيّم سكون مريع على القرية، واختبأ الجميع في دورهم وأكواخهم. تواصل هذا السّكون زمنا، ثم هبّت الرّياح وتلوّنت السماء بلون قاتم مظلم، وتلبّدت معلنة غضبها وسخطها على قاطني هذه الربوع الخالية. أذعنت الأشجار لمشيئة الزمن، وأخذت تتخلّى عن أوراقها التي كانت تكسوها وتجمّلها، فصارت عارية مجرّدة من زينتها ومن البهرج الذي زانها طيلة الأشهر التي انقضت.

أوقد يوجين نارا، ووضع حوله دثارا قديما، وجعل يفرك يديه، لينعم ببعض الدفء. الهواء البارد يقتحم وحدته، ويتسلّل من الثقوب التي ملأت أرجاء الكوخ، فيزيد من تعكير صفوه. ارتعشت فرائصه واصطكّت أسنانه، وقد أطلّ إصبعه من جوربه المثقوب، كأنه يحاول الانضمام إلى صاحبه ليواسيه وليؤنسه، أو

لعلّه يحظى ببعض الدّفء المنبعث من تلك الجمرات التي تتطاير شراراتها كلّما اقتحمت الرّيح المكان.

قام متثاقلا لا تكاد قدماه تقويان على حمله، باحثا عن بعض السكّر والشّاي بين الأواني، لعلّه يتمتّع بمشروب ساخن يزيده قوّة ودفئا، ليقاوم البرد القارص، وليوقف اصطكاك أسنانه الذي لا يهدأ. وضع إبريق الشّاي فوق النار وأطلّ برأسه من نافذة صغيرة تفتح على مكان مظلم، وقد رسم على شفتيه ابتسامة. كانت بالقرب منه قطعة من القماش معلّقة على الجدار، جذبها ونفض عنها الغبار وبعض القش الذي التصق بها، واتجه مسرعا ناحية ذلك المكان المظلم. «سأعتني بك أيها الحيوان المسكين، لا عليك.» غطّى يوجين ظهر الحمار بقطعة القماش، وعاد إلى داخل الكوخ.

غلى الشاي، فأسرع وسكب بعض المشروب الساخن في كأس، وأخذ يرتشف ببطء شديد. كان يوما طويلا جدّا، باردا وممطرا، ما اضطره إلى المكوث بالداخل. كان تعبُ الأيام الماضية التي قضّاها على الطريق حاضرا بسطوته وإرهاقه وآلامه المبرّحة؛ عضلاته مشدودة، ومفاصله تصدر صوتا مزعجا. لم يغادر السرير أبدا، ارتفعت حرارة بدنه، وشعر بخدر يسري في كامل جسده، وأغمي عليه. نام طويلا كما لم يفعل من قبل، نوما عميقا هادئا كنَومِ الأطفال، كنوم الأموات، كنوم المرهقين من الحياة.

أقبل الصباح معلنا ميلاد يوم جديد. أفاق من النوم وقد خفّت حدّة الآلام حتّى إنّها اختفت تماما حالما نهض وقام ببعض الحركات. أعدّ فطورا سريعا، حمل الفأس وقطعة جلد تبدو

كالحقيبة. وضع بداخلها بعض لوازم العمل والقليل من الأكل. ألقى التحية على الحيوان الهزيل، لكنّه لم يجبه ولم يعره أيّ اهتمام. رضي يوجين وسعد بتلك اللاّمبالاة. ابتسم وبدأ يحثّ الخطى في الطريق إلى الغابة. وضع يده على قلبه متمتما: «لا بدّ من استراحة قصيرة أيّها القلب، كي تستطيع المضيّ قدما وخوض الطريق كاملا في ما بعد.»

أمام البوّابة الكبيرة، كان هناك حبل يتدلّى، سحبه بقوّة فانطلق صوت الجرس ينبّه الحارس المستلقي داخل غرفته، ليسمح له بالخروج. فُتحت البوّابة، فانطلق يوجين، وحين وجد الحارس، ألقى التّحية لكنّه ظلّ يرمقه بازدراء كأنه استحضر تهديد ديميتري له. مضى إلى وجهته، غير مبال بكل ذلك، فأمور مثل هذه غالبا ما تحصل.

الغابة ممتدّة وشاسعة، شجر باسق، ظلاله ممتدّة عبر المدى، وطيور كثيرة تسكن الأغصان العالية، وثمار قد جفّت أسقطتها الرّياح. توسّط المكان حيّز كبير لعبت فيه فأس الحطّابين على مدى الأزمنة، مخلّفة بقايا جذوع يابسة. في هذه المنطقة الفارغة، لا صوت للطّيور، فقط بقايا أعشاش يابسة، لم تسعفها الظّلال ولا قطرات النّدى المنسكبة من أوراق الشجر. أعداد كبيرة من الأشجار تمّ قطعها، وأعشاش كثيرة تّم إتلافها، وبقايا بيض مكسور جعلت من الأرض فسيفساء قشور بيضاء تستلقي فوق أعشاب صفراء، تحضن بقايا أغصان صغيرة بلون أخضر يميل إلى الاصفرار. «ماذا لو أشعل أحدهم نارا وغفل عنها لبضع دقائق؟» قال يوجين في نفسه. «ستصبح هذه الغابة مجرّد ركام ورماد في ساعات قليلة! ماذا لو تواصل هذا الاحتطاب

العشوائي لأشهر أخرى؟ ستتحول الغابة إلى بقعة جرداء لا حياة فيها، وسيضطرّ القرويّون إلى قطع مسافات طويلة لجلب الحطب بأنفسهم ويهملون أعمالهم. يجب فعل شيء إزاء هذه المشكلة!»

تفحّص يوجين جيبه كأنّه يبحث عن شيء. أدخل يده وأخرج السّاعة الذهبيّة. هي الشّيء الوحيد الثمين الذي احتفظ به. كانت إرثا عائليا يذكّره بماضيه وأهله ومسقط رأسه. ظلّ يسترجع شريط حياته، وتذكّر كيف وصلت إليه. بعد أربعة أجيال انتهى بها المطاف عنده. كانت الذكرى تستدعي واجب البكاء والحسرة، لكنّه ابتسم رغم ذلك وقد عزم على أمر مّا.

«ما فائدة ساعة ذهبية تظلّ بلا حياة وبلا فائدة، منسيّة في جيب قميص؟ ساعة لا حياة فيها سوى ريشتها التي تغتال كلّ ثانية فيها ذرّة من العمر وتدني الأجل. لا.. لقد آن الأوان كي ينبعث منها بعض الأمل، ستنبعث الحياة بفضلها، وستزدهر من خلالها، يجب أن تولد من روحها حيوات أخرى. هكذا سأضمن أنّ ميراث عائلتي سيبقى حيّا وخالدا، سيرثنا الكون، ستكون ميراثا كونيّا ذا قيمة. سيتخلّى الذّهب عن بريقه الجذّاب ليعود شيئا من تراب. كانت الحياة وستظلّ، تولد من رحم التّراب.»

كانت فكرته الملهمة أن يشتري فسيلات صغيرة ليغرسها في هذه الأرض المجرّدة من نباتها، مكان كلّ شجرة يابسة يتمّ قطعها، كي يعيد الحياة إلى هذه الغابة ويجدّد روحها، من أجل دورة طبيعيّة متواصلة ومسترسلة. تتبادل الأشجار مواقعها، واحدة يابسة بأخرى فتيّة نضرة. تطلّع بعينيه في الأفق الوسيع، وجال ببصره في المكان. أخذ نفسا عميقا، وملأ رئتيه بالهواء البارد، وظلّ يتأمّل هذه البقعة من الغابة، كأنّه ناقد أو فنّان يتأمّل

لوحة فنّية لرسّام عظيم. حاول أن يفهم كل تلك الحيوات هناك، والتي خلّفت بقاياها كشاهد يثبت أنّها كانت هنا ذات يوم، أو لعلّها توقّفت قليلا للاستراحة، محاولة المضيّ بعيدا في ما بعد. جعل يتجوّل بنظره في ذلك الحيّز السّاكن، الخالي من كلّ أشكال الحياة، الأجرد، المثقل بوطأة الزمن، الباهت جرّاء تعسّف حاجة البشر، وضرورة أخذ نصيب من روح هذه الغابة. ذلك البرود وذلك الجفاء الذي خلّفه هذا اللّون الأصفر هنا، صفرة العشب والأغصان المقطوعة المتناثرة، صفرة المكان الباهت، صفرة الهواء الذي يمكن تمييزه بسهولة. أحاله المشهد على فكرة مّا، فقال ونبرة التساؤل تغزو صوته: «إلى أين تمضي بنا الحياة؟ أإلى هذا الكمّ من التعاسة والشّقاء تقودنا رحلتنا؟ هل هذه الوحدة الصّمّاء، وهذا الصّمت الكئيب، يخفي داخله يا ترى أيّ شكل من أشكال الجمال؟ لعلّ فهم أمر مماثل يتطلّب أكثر من مجرّد نظرة عابرة أو شعور أوّليّ أو حدس يخالج النّفس فيبدي لها عكس حقيقة الأشياء. لكن، أَوَليست الحياة تولد من رحم العدم، وتزدهر حين تتواصل وتستمرّ تلك الدورة الكونية الأزليّة، فتولد وتنبت من لَدُنِ العتمة، حياة مّا، كانت مستترة ودفينة، شجرة تموت فتَخلِفها أخرى؟»

متشبّعا بتلك النّظرة إلى الأشياء، وطريقته في تأمل العالم، استنتج يوجين: «إنّ الحياة تحتاج إلى لمسة إحياء وتجديد، فالتّغيير يحدث كي يمضي الكون في ازدهاره، فتحصل الفائدة وينعم بها الجميع، كي لا يضطرّ القرويّون للتّخلي عن جزء من وقتهم، للذّهاب بعيدا لجلب الحطب. هنا تظهر الأقدار وتبرز قدرتها على توزيع المهامّ والخطط، فكلّ شيء إنّما خلق من أجل فعل

أمر مّا. تلك هي الدّورة الأزلية، فكلّ شيء في الكون يهدي للحياة عربونا وقطعة من روحه، ليكمل النقص في مكان آخر. الكون يتكامل ويتفاعل في صمت بليغ، قد لا يتفطّن الكثيرون لهذه العلاقات ولهذا العطاء، لأنّهم أنهكوا بأمور أخرى روتينيّة يوميّة، لكنّ هذا الأمر يحدث فعلا، مرارا وتكرارا، فالحياة تزدهر في أبسط الأشياء، والتفاصيل الصغيرة الكامنة والمستترة، هي التي تصنعها، ليست فقط تلك الأمور العظيمة التي يقف عندها الناس شاخصين في ذهول.»

بدا يومه الأوّل في الغابة طويلا باردا. عاد في المساء إلى القرية منهكا، فاستلقى على فراشه الذي صنع من خشب قطع من أشجار الغابة، والتحف بغطاء خشن قُدَّ من القماش وصوف الأغنام. وضع رأسه على وسادة قاسية تمَّ حشوُها بالقشّ وريش الإوزّ. أراد الاستراحة من عناء يوم مُضن قضّاه في قطع الحطب وجمعه، ثمّ حمله على ظهر الحمار والمشي طول تلك المسافة في جوّ بارد. لكن ظلّ يشغل باله أمر مّا. كان يسترجع ذكريات الأيّام الخالية، وطيف ليندا يمرّ أمام عينيه كأنّها تجلّت حقيقة. هذا الشعور الذي يعتريه، كفيل بأن يوقد بين ضلوعه نارا هوجاء تستعر، لتأتي على الأخضر واليابس. لكنّ هذا الشعور أيضا يبعث في روحه الطمأنينة والأمل. حين تتسلل عبرة حارقة من عينيه، وتغطّي ملامحه ابتسامة شغف، وعندما تنساب مشاعر الألم والفرح في لحظة واحدة، وعلى وجه واحد، يمكن عندئذ القول إنّ العاطفة الإنسانية عُملة، على وجهيها تجتمع المتناقضات، فالإنسان يحمل في ثنايا روحه لغة تعبّر عن جوهر الكون، لغة قادرة على أن تفسّر في لحظات بسيطة ظواهر معقّدة

ومركّبة؛ الإيثار، الحبّ، الإحسان، الرحمة الإنسانية... كلّ هذه الأشياء التي تهب الإنسان المعنى، حيث ترسل الإشارات التي تستقبلها القلوب الحيّة، فتنكشف عن وجه الحياة الأقنعة الكامنة، لتغوص في أبعادها الظاهرة والمستترة، وتنتقل من مستوى إلى آخر، من دائرة المادة الصّرفة الصّلبة، إلى عالم التفكّر والتقاط جوهر المعرفة والحكمة، ثم يغوص أكثر فأكثر نحو عالم أوسع وأعمق وأبعد، عالم العمق. هذا العالم الذي يفيض بالمعاني السّامية والدّرر الخالصة، حيث تعمل الجوارح والحواسّ بشكل مغاير تماما، كأنها تخترق ما وراء الحجب. حينها يدرك المرء أنّه كان غافلا وجامدا، وأنّه عاش لوقت من الزمن مُقيّد اليدين، مُسلسَل القدمين، وعلى العينين غشاوة. ذلك الزمن يكون زمن يقظته واستيقاظه.

هذا ما اعترى يوجين، وهكذا كان استيقاظه بعد أن عاش زمنا طويلا مخدّرا ونائما. لقد انتهى إلى هذه الحالة بفعل شعوره العميق بالخسارة، ووعيه النّافذ الذي أراه الفرق ما بين أن يملك المرء الأشياءَ، وأن تملك الأشياء المرءَ. لقد أدرك أنّ الماضي الذي خلّفه وراءه لم يكن سوى حاجز أخَّره عن فهم بعض هذه المعاني المستترة، الكامنة في رحاب «المضيّ قدما»، بعيدا عن «الرّوتين اليوميّ»، بعيدا عن كلّ المسلّمات القديمة.

حلّ الظّلام، وبدأت زخّات المطر تتساقط حبّات متفرّقة هنا وهناك، دخان المداخن يتصاعد، بعض القرويين يتّجهون صوب الحانة، كعادتهم المسائية كل يوم، وآخرون يحملون براميل النّبيذ التي وصلت منذ قليل من المدينة، فيقومون بوضعها ورصفها في المخازن.

التفّ ثلاثة أنفار حول النار ليدفئوا أجسادهم. كانت ثيابهم خشنة، وملامحهم متعبة، وروائحهم كريهة. اقترب رجل قصير القامة، يرتدي رداء طويلا ويضع على رأسه قلنسوة، من باب الحانة ودلف للدّاخل. ظلّ يلتفت وراءه ويفحص المكان، بحثا عن شيء مّا.

في الداخل جلبة كبيرة. رجال يدخّنون النارجيلة، لحاهم طويلة وأسنانهم صفراء. عيونهم شاخصة في الكؤوس التي يحدث صوت اصطدامها ببعضها البعض قرقعة، تبعث على المتعة والنشوة في مزاج القرويّين. كؤوس تصطدم، ترتفع في الفضاء ثم تهوي إلى قرار سحيق، هناك حيث تُنفث رياح حارّة لاسِعة، فتخرج من بين الشفاه روائح كريهة وتنتشر في المكان. لكن لا أحد يكترث لذلك. فالجميع فقدوا حاسّة الشمّ ومَلكة الذوق. نبيذ مسكوب يقطر من الكؤوس، يتمرّغ باللّحى، يتحدّر من بينها مسرعا في رحلة نحو الأسفل هبوطا، وتنسكب منه بعض القطرات الناجية من تلك الأفواه المتعطّشة دائما للمزيد، لكن هناك دائما جشع يُعجّل بكُمِّ ثوبه، ليمسحها قبل أن تلامس الأرض.

دنا الرجل القصير من صاحب الحانة، ذاك الرجل الضخم، أقرع الرأس. كانت عينه اليسرى معصوبة بعصابة سوداء كتلك التي يضعها القراصنة. يدعى آندري. نزع قلنسوته فتكشّفت ملامحه المخفيّة؛ شارب طويل، ندوب على الوجه ووشم يمتدّ من أسفل رقبته إلى أذنه اليسرى على شكل ثعبان. سحب كرسيّا وجلس قبالة آندري وبادره بالحديث:

-«ما الذي يحدث في القرية؟ من ذاك الغريب الذي نزل بكوخ

ديميتري؟ وكيف تمكّن من تجاوز الحاجز الذي وضعه الجنود؟ بشقّ الأنفس حصلنا على هذا السلام. مازالت القلوب مشحونة بالأحقاد، ولا نريد أيّ مفاجآت قد تؤدّي إلى فنائنا جميعا.»

تجهّم وجه آندري، ولمعت عينه فبدت ممتلئة سخطا وغضبا. كأنّ الذكريات عادت به إلى زمن غير بعيد، أيّام المواجهات، وصور الجثث والضّحايا الذين امتلأت بهم الطرقات، وصوت الصّراخ ونحيب الزوجات وهنّ يرون أزواجهنّ يُعدمون. لم ينسَ أبدا جثّة قائده هرماندينا المعلّقة بالحبال على سارية من الخشب، وقد سالت دماؤه، وأحاطت به بعض الجوارح والغربان تنهش لحمه. مازال يذكر زوجته ميلندا، ويتذكّر ذاك الصّباح الذي أعدّت له فيه الفطور، وقد أنبأته بأنّها حامل والسعادة تملأ عينيها وصوتها. الآن تقبع تحت التراب جثّة هامدة، وهي التي لم تحظ بجنازة لائقة شأنها شأن بقيّة القتلى.

على الرغم من كونه أنزل الهزيمة بالمتمرّدين، إلاّ أنّ الوحشيّة التي اتّسم بها الملك إينو كانت منقطعة النظير. كان يستمتع بثأره، ويتلذّذ بفَرضِ أصناف العذاب عليهم. لم يكن القتل ليُذهِب غيظه ويُخمد النار التي اشتعلت داخله، فأفكاره المظلمة الحالكة جعلته يتفنَّن في تلقين أولئك العُصبة من القرويّين شكلا جديدا من القهر والأذى. أراد باراديسيوس تلك الجنّة التي تَهب الحياة وتجزل الثروات، مقبرة للنّاجين من عقاب الموت، بل أراد أن يكون للموت شكل جديد، حسب ما كان يعتقد ويأمل.

لقد كان آندري مساعد القائد هرماندينا الذي قاد معركة باراديسيوس ضد سلطة الملك إينو منذ بضع سنوات. تلك المعركة التي دُعيَ إليها رجال القرية، وطلب منهم التمرّد ضدّ

القصر الذي بات شغله الشاغل نهب ما تجود به القرى من خيرات. لم يكن الأمر متقبّلا، في ظل انتشار عمّال الكنائس وموظفيها الذين أصابهم الجشع والطمع، فغدوا يذهبون ويجيؤون، متسترين بحجة الدِّين لابتزاز المتديّنين وسرقة أموالهم. لقد كان جشع الكنيسة لا مثيل له، ولأنّها تحظى برجال أقوياء داخل القصر يدينون لها بالولاء، بدأت حملة شرسة ضدّ المزارعين والفلاّحين، فاقتُطِعت أراضيهم، وابتُزّت العائلات وسرقت أموالهم ومحاصيلهم. تمّ ذلك باسم سلطة الكنيسة وبناء دور العبادة ونشر المسيحية في الأماكن البعيدة الكافرة.

كانت حملة في ظاهرها مقدّسة، وظّفها رجال الدين الذين باتت لهم تجارة وأعمال في المدن والقرى، وقد ظهرت عليهم مظاهر الثراء الفاحش، بينما يرزح سكّان باراديسيوس وغيرها من القرى تحت ثقل الفقر والتعاسة، بعدما كانت قريتهم تنتج أفضل أنواع الخضراوات والثمار وتُدِرُّ أبقارها وأغنامها أجود أصناف الحليب والجبن والزبدة المحليّة الصنع.

إثر انتهاء التمرّد الذي لم يدم سوى يومين، تمكّنت السلطات من السّيطرة على الوضع وكسب المعركة التي دفع فيها القرويّون عشرات القتلى والجرحى، وقد انتهى المطاف بقائد التمرّد إلى حبل المشنقة وإعدامه أمام من نجا من رفاقه.

سلّم المتمرّدون الذين نجوا من الحرب كل أسلحتهم وعتادهم، وفُرض على القرية حصار طويل، مُنعوا بموجبه من مغادرة باراديسيوس، ووضعوا على حدودها حرّاسا وجنودا يمنعون دخول الناس و خروجهم. خمسة عشر رجلا نجوا من هذه المعركة، رضخوا بعد تكبّد كل تلك الخسائر وأذعنوا للأمر

الواقع. ومنذ ذلك الحين، عُيِّن ديميتري مراقبا للقرية، والمتكفّل الأوحد بتوفير حاجيات الرجال، من مستلزمات ضرورية يأتي بها من المدينة. في مثل هذا الوقت العصيب المليء بالذكريات المؤلمة الحزينة التي جعلت رجلا قويّا وصلبا مثل آندري يسقط على قدميه أرضا ينتحب كالأطفال، لم يكن للكلمات أدنى حظّ في الظهور. خيّم الصمت الكئيب للحظات طويلة ثمّ استجمع الرجل رباطة جأشه وقال:

-«سنرى ما الذي يحدث.. فلينظر أحدكم أين ديميتري الزائغ وليأتني به..»

* * *

داخل الكوخ، ظلّ يوجين ينكمش ويتقلّب محاولا تدفئة جسمه، وقد وضع بعض الأغطية حول جسده، وتدثّر جيّدا ليقي نفسه البرد المتسلل من الجدران. ظلّ ينظر من خلال النافذة مستمعا إلى صوت الريح في الخارج، وهي تهزّ الأشجار وتعبث بالأبواب والشبابيك في الداخل. كان صوت وقع قطرات المطر قريبا جدّا. ثقب في السّقف انسابت من خلاله القطرات، فجعل دلوا في القاع كي تتجمّع داخله. ظلّ يفرك يديه ويطلّ من تحت الدثار يجاهد نفسه ويحثّها على النّوم. لم يكن برد الطقس ما يؤرّقه ويزعجه فقط، بل برد من نوع آخر، برد الشعور أصابه، وغياب الحبيبة أنهكه، وقشعريرة في العظام التي هزّها الشّوق وأنهكها. راح يدندن بعض الكلمات، ليخفّف عن نفسه. كان طيف ليندا يلازمه، فأيقظ فيه النيران الخامدة. لقد أضناه الفراق فباتت أيّامه مجرّد انتظار وأمل في لقاء قريب.

سمع صوت قرع خفيف على الباب، ظنّ للوهلة الأولى أنّ

الريح تحرّكه، لكن سرعان ما عاد الصوت مرّة أخرى. نهض من فراشه مسرعا ليفتحه، وإذ به ديميتري قد عاد لتوّه من المدينة.

-«ألم تخلد بعد للنّوم يا بني؟»

-«سأنام حالا يا عمّ ديميتري.»

-«حسنا، يجب عليك ذلك، فغدا أمامنا يوم عمل شاقّ. ليلة سعيدة.»

حرّكت هذه الكلمة شيئا قديما في ذاكرته، فلاحت له تفاصيل الرسالة التي تركتها ليندا داخل صندوق البيانو. ارتعد قلبه مرتجفا، وردّ على ديميتري بصوت متقطّع هامس:

-«ليلة سعيدة.. ليلة سعيدة.. ظلّ يكرّر ذلك في نفسه، وفي قلبه حسرة عظيمة.»

* * *

كان الطقس غائما. الشمس تحاول جاهدة أن تطلّ بأشعّتها الذهبيّة بين كتل الغيوم المجتمعة في كبد السماء. فأس ديميتري تنهش جسد الأشجار. رغم كبر سنّه إلاّ أنه يتمتّع بلياقة جيّدة. يوجين منشغل بجمع الحطب وجعله في رزم ووضعه فوق العربة. توقّف ديميتري عن قطع الشجرة. وضع فأسه جانبا واتجه لرفيقه وبادره بالحديث:

-«منذ خمسة عشر عاما وأنا أعمل في هذه الغابة القديمة يا بنيّ، لم أنعم خلالها بأيّ صحبة. كنت دائما أجيء وحدي وأعود أدراجي بمفردي. أذكر أنّه في أوّل يوم لي في العمل هنا، أصابتني الوحشة والكآبة. لكن مع مرور الأيام تعوّدت شيئا فشيئا، حتى صارت هذه الغابة جزءا من حياتي، ولم يعد بإمكاني التخلّي عنها. فأنا أعرف أشجارها جميعها، وأقدِر أن أميّز أشكال الحياة فيها

بمختلف طيورها وحيواناتها. لقد أصبحت آنَس بهذه الوحدة. إنّنا سريعو التأقلم والتعوّد. كلّ ما في الأمر هو مجرّد الصبر لبضعة أيام أخرى، حتى يصبح الشّيء الذي يزعجنا، عادة وجزءا لا يتجزأ منّا. ومنذ خسارتي العظيمة لعائلتي وفقدي لبعض الصّحب والأهل، صرت وحيدا، أتجنّب التقرّب من أيّ أحد من رجال القرية. وها قد أرسلك القدر كي تؤنس وحدتي، وتساعدني في عملي الشاقّ هذا.. إنّني أريدك أن تقوم بأمر شديد الأهمية.»

-«وما هو يا عمّ ديميتري؟»

-«أريدك أن تتجنّب رجال القرية؛ لا تجالسهم، ولا تقبل دعواتهم. لا يغرنّك هدوؤهم ووداعتهم، فهم في حقيقة الأمر مختلفون جدّا. الحرب يا بنيّ، لم تدع في القلوب مكانا للإنسان داخلنا، ثمّ إنّك لم تلاحظ خُلوَّ القرية من النساء. أليس كذلك؟»

-«لقد لاحظت ذلك يا عمّ ديميتري، لكنّني ظننت أنّ من عادات سكّان القرية ألاّ تشارك النّسوة في الحياة العمليّة، وأنّهن يقمن بالواجبات المنزليّة وتربية الصغار.»

أخذ ديميتري نفسا طويلا مستهلاّ حديثه الآتي بجرعة كبيرة من الهواء النقيّ، كأنه يخشى التورط في حالة من الضيق والاختناق التي سيقود إليها سياق الحديث لا محالة.

-«قبل أن أسرد عليك بعض الأمور التي يجب أن تعلمها عن قريتنا هذه، أريدك أن تعرف أنّ ما سأقوله ثقيل جدّا، تضيق له القلوب والأفئدة...»

أسند ديميتري رأسه إلى الخلف، متكئا على جذع شجرة زان ذات أوراق كثيفة، حمراء اللون. كانت عيناه شاخصتان في الأفق

البعيد.

-«إنه كالجمرة التي تحملها روحي، وأخشى أن تحترق روحك، فليس لدى الجميع طاقة الاحتمال نفسها..»

-«لنتقاسم ذلك الألم والوجع معا، فالمشاركة دائما تنتصر.» قال يوجين وهو يربّت على ذراع ديميتري.

صمت ديميتري هنيهة ثمّ باح بما اعتمل في نفسه من مشاعر لحظتها:

-«هل تصدّق إن قلت لك إنّني منذ سنوات لم أشارك أحدا أي شيء؟ ما أصعب ألاّ تجد شخصا تقول له كم أنت ضعيف وهشّ، هل تعلم معنى أن لا وجود لمن يحفل بك؟ تشعر أنّك وحدك، تتحرّك في الحياة كالغريب.. كم هو صعب أن تكون موجودا ولا يُعترف بوجودك. ليس هيّنا الشعور بهوانك على الآخرين، لكنّك تظلّ تؤدّي وظيفتك في هذه الدنيا، تتمسّك بذيل أمل يتسرّب من بين الأنامل كالسراب، لقد أبقى الأمل على حياتي.. وحين رأيتك لأوّل مرّة، عرفت أنّك أنت، ذلك الأمل.. خفت أن أفقدك، ومن أجل ذلك خاطرت بكلّ شيء. إن الإنسان يعرف أن خلاصه لا بد من أن يأتي ذات يوم، لذلك يظلّ دائما ينتظر.. ينتظر بلا ملل، مهما كلّف الأمر، ومهما دفع مسبقا من أثمان..»

كان يوجين شاهدا على تلك النظرة في عيني ديميتري، شعر بتلك النبرة في صوته، حتّى حركات يده وملامح وجهه، أبدت أنّه في حالة روحية عالية. كانت لحظات حقيقة واجه فيها ديميتري مخاوفه وعرّى نفسه وتجرّد من كلّ تدليس ولا مبالاة. سرعان ما عطف على كلامه، يريد إخراج ما علق بنفسه من

أشياء. أحسّ ديميتري أنّه قد لخّص خشيته في بضع كلمات، لكنّ ذلك ليس كافيا. فأردف والإثارة طاغية على صوته ونظراته:

-«أعتقد أنّ الغرباء يلتقون في النهاية، إنّ الأمر يحدث حقّا، إنّه أشبه بوعد، في الأخير يعثر كلّ واحد على الآخر، كأنّ الحياة تصطفيهم بعناية وتمرّرهم عبر العذابات، ويجتمعون عندئذ. تخيّل ذلك المشهد حين تكون منهكا ومستنفد القوى، وتجد من يفهم كلّ ما مررت به، حتّى أنّه قد يختصر عليك عناء تفسير ذلك، لأنّه مثلك، مرّ بتجربة شبيهة. يا للعبء الكبير المُنزاح! تدرك حينها أنّك لست الناجي الوحيد. انظر إلى كلّ هؤلاء البشر الذين تمّ إنقاذهم. إن العثور على الآخر هو عمليّة إنقاذ حقيقيّة، لذلك نحن نميل للاجتماع والتجمهر، إنّها إحدى غايات البشر الكبرى.»

نهض ديميتري حاملا فأسه وتوجّه إلى شجرة يابسة راح يضرب جذعها بكلّ قوّته، وجعل يقطع أغصانها ويكدّسها فوق بعضها البعض. لقد ألهمه ذلك شيئا مّا، فأشار ليوجين:

-«إنّ ما تفعله الحياة بالإنسان الهشّ، يشبه ما تحدثه الفأس بتلك الشجرة اليابسة، إنّها تستأصله، تضربه بكلّ قوة، تلقيه أرضا، دون أيّ شفقة، لا لأنّه يستحقّ ذلك، بل لأنّها حين مرّت به وجدته بلا حول ولا قوّة، وجدته منكفئا على نفسه، ومواضع الضعف تلك سرعان ما يُنتبه لوجودها. إنّها تصرخ قائلة «تعال أجهز عليّ، إنّي لقمة سائغة».»

راح يوجين يجمع ما تناثر من أغصان وحطب وجعله أكداسا وحزما وربطها بإحكام، ثمّ انحنى والتقط عودا رقيقا جافّا، ضغط عليه فانكسر بسهولة، وقال:

-«إنّ العود الضعيف الهشّ هو الذي يستوعب شرارة النار الصغيرة، التي قد تحرق الغابة العظيمة فيما بعد. إنّ أغلب عظماء العالم كانوا ضعفاء لأنّهم لم يتحمّلوا رداءة الواقع. ولو كانت لديهم القوّة والتحمّل لظلّوا صامتين، ولما فعلوا شيئا، طالما لا شيء يؤثّر فيهم. إنّ الذين انهاروا في لحظات مّا، هم من استطاعوا تغيير العالم.»

ظلّ ديميتري يقلّب تلك الكلمات في رأسه مليّا، ثم ابتسم أخيرا ابتسامة هانئة:

-«آه يا عزيزي يوجين، كم هي مريحة كلماتك، أنت قادر على جعل السمّ عسلا. يالها من موهبة.»

-«أردت فقط أن أقول إنّ هناك دائما فرصا أخرى يا عم ديميتري، فأنا لا أؤمن بمنطق الفرصة الواحدة، لا شيء سينفد، هناك دائما المزيد، أوَليس ذلك باعثا على الأمل؟»

-«آه منك أيّها الأمل الحبيب. لمَ لديك ألف وجه وألف قناع؟ في كلّ مرّة تطلّ بهيئة جديدة. أنت تحاصرنا من كلّ ناحية، مع أنّ القبض عليك صعب المنال.»

-«لقد أصبحت شاعرا كبيرا يا عمّ ديميتري، إنّي أحسدك على ذلك..»

أقبل ديميتري تجاه يوجين باسما وعانقه عناقا طويلا، ثمّ عاد يقطع الأغصان بنشاط غير معهود. توقّف فجأة ثمّ عاد يقف بالقرب منه، وقال كأنّه تذكّر شيئا:

-«لقد نسيت أن أخبرك بشيء مهمّ، حين كنت في المدينة مررت على القائد لاتسا وأخبرته بأنّ لديّ ضيفا. وقد قبل مكوثك عندي، بعد أن قدّمت له بعض المعلومات عن وضع

القرية وحلفت له بكلّ ما هو مقدّس أن لا ضرر في استقبال ضيف مسالم، فهو وإن كان يخدم ملكا طاغية، إلاّ أنّه رجل متديّن على الطراز القديم، يصدِّق القسم ويثق في من يحلفون أغلظ الأيمان بالربّ. لقد كانت تلك نقطة ضعفه الوحيدة، وكنت مضطرا إلى الركوع على قدميّ ورسم الصّليب على صدري، بالرغم من أنّ تديّني لا يبلغ هذا المستوى.»

-«أنا مدين لك بالكثير يا عمّ ديميتري، وأرجو ألاّ يسبّب وجودي أيّ مشكلة. لكن، أوَلمْ تكن تنوي إخباري عن القرية، هل يوجد شيء يجدر بي معرفته؟»

حاول ديميتري عبثا إخفاء دمعة فرّت من عينيه، فقال وهو يرتجف:

-«لقد قرّرت أن أؤجل قول ذلك، لكن مادمت قد سألت، حُقّ لك أن تعلم.»

ابتلع ريقه بشقّ الأنفس وأردف قائلا بحسرة:

-«لقد نفا الملك إينو نساء القرية وأطفالها، وجعلهم خدما له وعمّالا. فلم يبق هنا رحم يهب الحياة. لم تعد هنا زوجات أو بنات أو أمّهات، كلّ الذين بقوا، ليسوا سوى أشباح رجال، أجساد تسير، تأكل وتنام، ينتظرون الموت بفارغ الصبر. لقد انحدرت الحياة إلى الحضيض في هذه البقعة البائسة، حتّى أنّ رجال القرية أصبحوا مهووسين ومختلفين. لك أن تتخيّل شكل الحياة في مجتمع لا نساء فيه. هل أمكنك تخيّل ذلك؟ إنّها صورة بشعة. أليست كذلك؟ لتعلم إذن أنّ ما يحدث في هذه القرية ليس مجرّد خيال وتصوّرات، إنّه الواقع يا بني، إنّها لمأساة لا نظير لها. لقد نجوت منها لأنّني قادر على الخروج، أنا شخص محظوظ،

لكن أولئك العُصبة من الرجال، لم يمتلكوا هذه الرفاهية. إنّ رؤية امرأة ولو من بعيد قد أنقذ حياتي.»

لم يتمالك يوجين نفسه من هول ما سمع، فضمّ ديميتري بكلتا يديه وجعل يمسح دموعه المنهمرة بغزارة. لقد ألجمته تلك الكلمات ولم يجد في دنيا الكلام قولا من شأنه أن يخفّف من وطأة ذلك الأسى، لم يمتلك من كلمات العزاء ما يسرّي به عن ديميتري ويسلّيه. لقد كان هو نفسه لحظتها محتاجا إلى يد تربّت عليه وتسرّي عنه، لكنّ نفسه كانت تتوق للبكاء بشدّة. وبحركة لا إراديّة أخفى وجهه بين كفّيه كأنّه يخشى إطالة النظر في عيني ديميتري الباكيتين. طفق كذلك لبرهة من الزمن بدت طويلة جدّا، احتدّت مشاعره لهول ما تعمّق فكره في تخيّل هذه المأساة الإنسانيّة. لم يكن يتصوّر أنّ الحياة قادرة على إنتاج هذا الصّنف من الوحشيّة المتطرّفة. لم تكن مكتبته وكتبه على علم بما يحدث في هذه الأرض وتحت هذه السماء الشبيهة بسماء لياليه الماتعة. لقد كان قلبه يخفق بشدّة وعيناه تؤلمانه وجسده يتصبّب عرقا. كادت أنفاسه تختنق داخل ضلوعه. ركع على الأرض رافعا رأسه إلى السماء، وجعل يتضرّع كمن مسّه الضرّ في نفسه. لقد بدا تعيسا جدّا، حتّى أنّ ديميتري أشفق عليه وجعل يحرّكه بكلتا يديه، ونظراته مصوّبة نحو عينيه الجاحظتين.

(3)

أنا أعلم أنّي صرت بعيدة جدّا، وأعي أنّ ما ذرفته من الدموع غير كاف، فلن يخبو صوت ضميري ولن يهدأ جلد الذات، وهذا ما حسبته حاصلا دون أدنى شكّ، منذ اللحظة الأولى التي فكّرت فيها بالرحيل. لقد كنت مدركة منذ الوهلة الأولى أنّ العذاب سيكون مصيري، وهذا ما أعيشه ليلا نهارا.

منذ قدومي إلى المدينة، للمكوث في بيت عمتي جيمينا، حاولت جاهدة صرف تفكيري عن كلّ أمر قد يضيق له صدري، وحاولت طيّ صفحات الماضي من أجل بداية جديدة. لكنّني لم أفلح في ذلك، فصوت الذاكرة ظلّ يؤرّقني، وأنزل بي عذابات مضنية، وأعتقد أني أستحقّ كلّ هذا.

العمّة جيمينا امرأة متديّنة وطيّبة، ولكونها تعتبر نفسها خادمة مطيعة للربّ وللكنيسة، فقد قضّت كلّ سنوات شبابها تساعد المحتاجين والفقراء وتخدم المسيحيّة كأحسن ما يكون. ولذلك فقد ارتأت أنّ الزواج والاعتناء بزوج كثير المتطلّبات وأبناء كثيري الرغبات والاحتياجات، قد يثبّط عزيمتها ويحدّ طموحها الذي تظنّ أنّها خلقت فقط من أجله. ولأجل ذلك، فهي تعتبرني بمثابة ابنتها التي لم تنجبها. لقد كرّست جلّ وقتها أو كلّه من أجل الكنيسة وخدمتها. ولأنّها راهبة تؤمن بالعمل الخيريّ، فقد جعلت من بيتها ملجأ للأيتام والأطفال المشرّدين، ولقد

كان من دواعي سروري مساعدتها في هذا العمل النبيل، فرفقة اليتامى والأطفال تشعرني بكثير من الأنس طيلة النهار. لكنّي حين أختلي بنفسي في غرفتي ليلا، أجدني غارقة في نزق حكايات الذاكرة والتفاتات القلب هناك، حيث تركت روحي وهربت جسدا منهكا تائها، لا يعرف أيّ طريق تقودني نحو الخلاص والسّلام الداخلي الذي أبحث عنه.

«يوجين أيّها الحبيب. لعلّي لم أحبّك يوما كما ينبغي لامرأة مثلي أن تُحِبّ رجلا عظيما مثلك. فاصفح عنّي، لأنّي لم أحبّك بالطريقة التي أنت أهل لكي تُحَبَّ بها. أنا في حيرة من أمري، فلم أعد أستطيع تحمّل هذا الزّخم الكبير من المشاعر الذي استوطن قلبي. قد لا أكون عارفة بالطريقة التي يجب أن أتصرّف بها حيالك، لكنّني أعلم أنّ في هذا الفراق حكمة عظيمة. لطالما كنّا نؤمن بالقدر ومشيئته. لعلّ حكايتنا تستحقّ بعض الهجر كي تنضج. لا أعرف ما الأمر. صدّقني، أنا في حيرة حقيقية...»

ككلّ ليلة، كانت مصيبتي أنّ الكون يهدأ ولا يهدأ قلبي، ولا يتوقّف عن إرسال الرّسائل الصّامتة التي كانت تخفّف قليلا من ألم وحدتي ومعاناتي. كنت على وشك الخلود للنّوم، وإذ بطرقات خفيفة على باب غرفتي، وصوت العمّة جيمينا ينبعث هادئا تستأذنني في الدخول. دلفت العمّة ونهضت أستقبلها. فبادرتني بالحديث:

-«ما بك يا صغيرتي؟ أرى أنّك لم تنامي بعد! ما الذي يشغل بالك يا حبيبتي؟»

-«لا شيء مهمّ، فقط بعض الأفكار والخواطر التي تراودني قبل النوم. لا تقلقي، فلقد تعوّدت مثل هذه الأمور.»

اقتربت منّي وعلى شفتيها ابتسامة مازحة، وهمست في أذني وكأنّ هناك من يتجسّس على حديثنا:

-«من الذي يشغل تفكيرك؟»

لم أستطع إخفاء ابتسامة صغيرة تسللّت من بين شفتيّ، لكنّني حاولت التصرّف بجدّية فتمالكت نفسي، كما لو كنت أخشى أن تنفضح مشاعري ويُكشف ما يجول بداخلي من صراعات، وقلت في نفسي: «ذلك سرّي الصغير ولن أُطلِع عليه أيّ أحد!» وفي محاولة لتغيير وجهة الحوار، قلت لها بنبرة جادّة:

-«كيف عثرت على الأطفال يا عمّتي؟ ولماذا يقيمون في البيت بينما كان يمكن للكنيسة تدبّر أمرهم؟»

دنت منّي وجلست على طرف السرير. بقيت للحظات تغمغم وتنظر إلى سقف الغرفة. أطلقت زفرة حارّة من صدرها، ونظرت إلى عينيّ مباشرة، وقالت:

-«المساكين.. وجدتهم على قارعة الطريق، وقد كادت أجسادهم تتجمّد بردا، وصوت بكائهم يملأ المكان. لم يهتمّ أحد لأمرهم، خاصّة وأنهّم طردوا من القصر.»

-«لماذا طردوا؟ أبناء من هم؟ ما حكايتهم؟»

-«حكايتهم طويلة يا حبيبتي..» صمتت لبضع ثوان ثمّ أردفت قائلة.. «بعد أن تمّ إبعادهم عن عائلاتهم بسبب الحرب. أحضروهم إلى المدينة ليكونوا عبيدا وخدما. لكن يبدو أنّ الملك غيّر رأيه لسبب مّا. لعله وجد أن لا فائدة ترجى من تربية أعداء محتملين داخل أروقة قصره، فخشي أن تبقى الضغائن والأحقاد مغروسة في قلوب هؤلاء الصغار. لقد تخلّوا عنهم ورموهم في الطرقات بكلّ بساطة، وبشكل همجيّ، حتّى أنّه لم يفكّر في

إعادتهم إلى مسقط رأسهم، ليعيشوا حياة طبيعية بين أهلهم كبقية أطفال العالم. لقد أعمى الحقد بصيرته، والآن يدفع هؤلاء المساكين ثمن أخطاء الآخرين.»

-«إنّ حكايتهم حزينة ومؤلمة يا عمّتي. وهل يوجد من يمتلك مثل هذه القسوة؟»

-«أنت لم تخبري العالم جيّدا يا بنيّتي، إنّ الكره يعمي البصائر ويفقد الناس التمييز بين الخير والشرّ. ثمّ إنّ الحرب لا تعترف بالأخلاق والعدالة، بل تعترف فقط بفرض قانون القويّ ورغبته.»

-«هل تعرفين من أين أتوا؟ يمكننا البحث عن عائلاتهم وإعادتهم إليهم.»

-«حين عثرت عليهم تائهين ومشرّدين دون مأوى، رقّ لهم قلبي ولم أستطع تركهم هناك. حاولت البحث عن عائلاتهم، فأخبرني أحد الحرّاس قصّتهم الحزينة، فقرّرت أخذهم معي إلى البيت والعناية بهم. وها قد جئت يا ابنة أخي الحبيبة فصارت مسؤوليّة رعايتهم الآن من مهامّك.»

-«يسعدني ذلك يا عمّتي، إنّه لمن دواعي سروري.»

-«حسنا يا حبيبتي سأتركك الآن لتخلدي إلى النوم. ليلة سعيدة.»

-«ليلة.. سعيدة.. ليلة سعيدة..»

غادرت العمّة غرفتي وبقيت كعادتي أصارع أفكاري وهواجسي، وأتساءل بيني وبين نفسي، «هل تراه يغفر لي يوجين ذات يوم!» أخذت الوسادة وضممتها إلى صدري بشدّة، وعدت إلى خيالاتي وذكرياتي وطعم المرارة في حلقي. ماذا فعلت؟ وأيّ

خطإ فادح ارتكبت؟ حتّى لو شاءت الأقدار أن نلتقي مجدّدا وغَفرتَ لي خطيئتي وسامحتَني، فلن أغفر لنفسي أبدا.

ليلتها أرّقني السّهر كثيرا. بالكاد حصلت على إغفاءة صغيرة، فلقد أخذ منّي التعب كلّ مأخذ، ونهشتني الوساوس، وبتّ أخشى من مجهول أتوقّع حدوثه.

* * *

«اعلم أنّك سائر بالقدر واعلم أن مشيئتك باتت مقيّدة وطريقك قد اختير لك، فاستجب، فأنت تكاد تطأ الطريق. ألم يستشعر قلبك ذلك بعد؟»

أفقت من نومي مذعورا أردّد: « بلى.. بلى.. إنّي أستشعر ذلك.»

كاد قلبي يفرّ من بين ضلوعي. نعم.. لقد شعرت بذلك. كانت المرّة الأولى في حياتي التي أرى فيها رؤيا كهذه. كاد قلبي ينخلع من الرهبة، لكن رغم ذلك، سرت حالة من الطمأنينة في كامل جسدي. نعم، لقد كان شعورا بالأمان لا يمكن وصفه، ولا يمكن التعبير عنه. مازلت أستشعر دقّات قلبي المتسارعة، وأحسّ بالسّلام يحتلّ كياني وذاتي. لكم تمنّيت أن تعاودني الرؤيا مرّات عديدة، كي أغوص في تلك البحار من الأحاسيس المتلاطمة العميقة، الهادئة الساكنة.

حين فتحت عيني، رأيت ديميتري متسمّرا في مكانه ينظر إليّ، ويراقبني بنظرات فاحصة مستفسرة. دنا منّي وتساءل:

-«أهُو كابوس؟»

أدركت أنّه قد سمع تلك الكلمات التي ردّدتها لحظة استيقاظي مباشرة. لم أعرف بماذا أجيبه، لكنّني لم أشأ الكذب، فقلت له إنّها

رؤيا.

-«هل لك أن تقصص عليّ ما رأيت، فلقد كان والدي رجل دين، وكنت أسمعه مذ كنت صغيرا يفسّر أحلام الناس، ولقد تعلّمت منه كيف يفعل ذلك.»

-«لكنّها رؤيا مفسّرة يا عم ديميتري.» أجبت بكلّ ثقة.

اقترب منّي وجلس، ثمّ قال مازحا:

-«إن كانت كذلك فلا بأس. يبدو أنه لا حاجة إلى مساعدة رجل مسنّ مثلي. أليس كذلك؟»

ابتسم وهو يربّت على كتفي ثمّ أضاف:

-«آه كم هي عظيمة فترة الشباب.. أن تكون شابّا خير من أن تكون ملكا. ستفهم ذلك ذات يوم بطريقة أكثر وضوحا.»

أحسست بشعور غريب وجميل في آن، وقد سرت في جسدي قشعريرة طفيفة، فردّدت في قرارة نفسي: «لعلّه كما قلت يا عم، لعلّه كذلك.»

كانت الشّمس قد طلعت، وعلا صوت وقع الأقدام في الخارج. كان يوم عطلة، لن نذهب فيه إلى الغابة. قرّر العم ديميتري أن نقوم بجولة صغيرة في القرية، فمنذ وصولي، لم يتسنّ لي مخاطبة أحد أو حتى إلقاء التحيّة. ولقد تذكّرت رغبتي في الذهاب إلى المدينة، لبيع السّاعة من أجل شراء الفسائل والبذور التي سأغرسها في الأماكن التي حدّدتها من قبل. وبينما كنا نستعدّ للخروج، خاطبني العمّ ديميتري:

-«لقد تناهى لسمعي البارحة أنّ القرويّين ممتعضون من قدومك، فهم لم يتعوّدوا قدومَ الزوّار منذ أن حطّت الحرب أوزارها. لكن لا عليك، فلقد بدّدت مخاوفهم حين أخبرتهم بأنّ

القائد لاتسا لا يمانع مكوثك في القرية.»

-«إنّني ممتن لك كثيرا يا عمّ ديميتري. لكن لماذا تخبرني بهذا الأمر؟»

اقترب منّي وقال:

-«لأنّنا سنذهب إلى الحانة الآن. الجميع يحضر باكرا هناك على ما جرت به العادة في مثل هذا اليوم. إنّه يوم عطلة وستقام الحفلة الشهريّة، ولقد أرادوا رؤيتك.»

صمت قليلا ثمّ أضاف بنبرة منزعجة:

-«سنحيّيهم ونتبادل معهم حديثا مقتضبا، ثمّ نستأذن بكلّ هدوء ونغادر.»

كانت نبرته حازمة تشي بالحذر. تذكّرت حوارنا في الغابة ففهمت ما يرمي إليه. قصدنا الحانة وأنا أعيد في ذهني كلّ ما قيل متمنّيا أن تجري الأمور كما نشاء.

كان الجوّ مشمسا؛ الغيوم التي كانت تغطّي مساحة السماء بدأت تتلاشى، وحرارة طفيفة أخذت تسري في الأنحاء. البيوت والأكواخ المنتشرة تلألأت تحت أشعّة الشمس الذهبيّة، ورائحة التربة الذكيّة تبعث في النفس مزاجا رائعا.

كنّا في الطريق، وقد لاذ العمّ ديميتري بالهدوء، أو لعلّه كان مستغرقا في التفكير في أمر مّا. خارج الحانة اجتمع بعض القرويّين. كانوا منهمكين في تحضير بعض الزينة وجلب براميل النبيذ وإعداد شرائح اللحم وتتبيلها من أجل الشواء. وحين اقتربنا، تركوا أشغالهم وظلّوا ينظرون تجاهنا كأنّهم تفاجؤوا بقدومنا. ارتسمت على محيّاهم ملامح التعجّب والحيرة، لكنّني أحسست في نظراتهم بشيء من الوداعة والهدوء. رجال أقوياء

عليهم ثياب توحي ببعض التنمّق والرفاه. كست وجوه البعض منهم آثار ندوب وجراح قديمة، والبعض الآخر بدا سليما واثقا لا يشكو شيئا.

حيّاهم العمّ ديميتري ورمقني بنظرة هادئة، فحيّيتهم بدوري، ودنونا منهم، فاستقبلونا ورحّبوا بنا كألطف ما يكون على غير ما كنت أتوقّع. اقترب رجل ضخم، معصوبة إحدى عينيه بعصابة سوداء، ففسح له الجميع وتحلّقوا من حولنا. ظلّ يراقبني ويتفحّصني في صمت مريب. لبضع ثوان حسبتها مرّت دقائق طويلة، كنت بدوري أتفحّصه وأبادله النظرات، ثمّ أشحت بنظري.

بعد لحظات مدّ الرجل يده وصافحني. وقال:

-«أنا أدعى آندري، صاحب الحانة. منذ مدّة طويلة لم نستقبل ضيوفا، لكن لا تظنّ أنّنا قد نسينا أصول الضيافة.» ابتسم وقهقه بصوت عال، ما جعل الحاضرين يتبادلون النظرات وينفجرون بالضحك.

الحقيقة أنّني تفاجأت، فلم يبدر منّي حينها سوى ابتسامة صغيرة، ونظرت إلى العمّ ديميتري بنظرات تعجّب وريبة.

وضع آندري يده على كتفي وقال:

-«ولحسن حظّك أيّها الغريب أنّك التحقت بنا في يوم مميّز جدّا، ولسوف يسعدنا أن تحتفل معنا وتشاركنا المرح. لكن لمَ لا تخبرنا باسمك؟»

-«أدعى يوجين يا سيّدي. سعدت بلقائك.»

بدت الأجواء مريحة على غير ما كان متوّقعا، وقد شجّعني ذلك على مواصلة الحديث.

-«و بمَ تحتفلون؟»

أجاب أحد الحاضرين، وقد كان قصير القامة وعلى رقبته وشم غريب، بنبرة مازحة:

-«نحتفل بالنبيذ والشواء والكثير من المرح.»

امتلأ الجوّ مجدّدا بهستيريا من الضحك والمزاح، فتدخل العمّ ديميتري، وقال بصوت حازم:

-«لقد مررنا لنلقي التحيّة أيّها الرفاق، ونحن مضطران إلى الذهاب للمدينة كي نقضي بعض الشؤون.»

رمق القرويّون بعضهم بعضا بنظرات جادّة هذه المرّة، ولاح في أعينهم شيء غريب، نظرات شاخصة مستنفرة كأنّهم أحسّوا بالحنق والسّخط، بسبب مقاطعة ديميتري لهم وتلميحه بأنّه لن يقبل دعوتهم تلك. أحسست لحظتها بتغيّر سريع في نبرة صوت آندري، فقد قال في انفعال واضح:

-«كالعادة، الشيخ الزائغ يتجنّب صحبتنا! لكن ألا تترك ضيفك ينضمّ إلينا ويصيب بعضا من المرح والمتعة؟ ما رأيك يا يوجين؟»

كان يوجّه السّؤال إليّ وقد أشار بيده، وديميتري يحدّق بي منتظرا جوابا ينهي حدّة هذا الموقف. فاقتربت من آندري وقلت له بهدوء:

-«سنلتقي مجدّدا يا سيّدي، ولولا أنّ لنا حاجة ضرورية في المدينة لانضممت إليكم. فهوِّن عليك واستمتعوا بحفلتكم.»

هدأت حدّة توتّر آندري قليلا، رمق ديميتري بنظراته وقال لي:

-«وهو كذلك، نراك قريبا إذن!»

غادرنا المكان على الفور كي لا يزيد مكوثنا من توتّر الأجواء، وقد سمعت لغطا وكلمات حانقة لم أتبيّنها جيّدا، لكنّني أدركت أنّها عبارات السّخط والتذمّر وخيبة الأمل.

-«هل لاحظت ذلك؟» قال العم ديميتري.

-«ما ذاك؟» أجبته محاولا فهم ما يرمي إليه.

-«أقصد سرعة تغيّر حالة آندري، من الترحيب والمزاح إلى الغضب والثورة والعنف؟»

-«لا أخفيك يا عمّ، لقد تفاجأت. لكنّني لا ألوم أحدا منهم على ذلك.»

توقّف ديميتري وأبدى انتباها، وفيه ريبة من جوابي، وقال:

-«ما الذي تقصده؟»

-«ببساطة يا عمّ، هذه الحياة التي يعيشونها ليست حياة عاديّة. كيف يمكن للإنسان أن يكون طبيعيّا في ظلّ ظروف غير طبيعيّة.»

-«أتقصد خلوّ القرية من النساء؟»

-«نعم. حين أخبرتني ذلك اليوم عن وضع القرية، تبادر إلى ذهني سؤال محيّر..»

-«وما هو؟» قال ديميتري في اهتمام.

-«كيف استطاع القرويّون التأقلم والتعوّد على هذه الحياة الصّعبة القاسية؟ كيف تمكّنوا من التخلّي عن جزء طبيعيّ وجوهريّ من حياتهم؟ إنّي أخشى أن يؤدّي الحرمان والفقد إلى محاولة التّعويض والبحث عن البدائل، وفي مثل هذا الوضع، المفقود لا يعوّض ولا يستبدل. مازلت لا أفهم، ما القوّة التي منحتهم الصبر على مثل هذا الوضع؟»

وضع ديميتري يده على كتفي ونظر إلى السّماء بعين دامعة وقال:

-«إنّها قوّة اللامبالاة. من الحمق قول هذا، لكنّها الشيء الوحيد الذي أمدّهم بالصبر إلى حدّ الآن. في العادة يكون الغاضب شخصا يكترث، لكنّهم غاضبون لا مُبالون، ولعلّ ذلك ما جعل الأمور تبدو هادئة وعاديّة.»

فَرَكَ ديميتري عينيه بكفّ يده، ثمّ أكمل بحسرة:

-«لكم تمنّيت أن يثوروا ضدّ مضطهدهم ولو أدّى ذلك إلى فنائنا عن آخرنا، لكنّهم يعيشون كأن لا شيء يعنيهم، لقد سلّطوا ظلما آخر على أنفسهم. أنا أيضا أتحمّل مسؤوليّة هذه المأساة، لقد تجنّبتهم، نعم، لم أرد أن أكون معهم، لأنّني شخص أنانيّ لعين. لقد سعدت بيني وبين نفسي بخطاياهم ومساوئهم، كي أحافظ على صورتي الناصعة النقيّة، كي أتباهى باختلافي عنهم. وكان ذلك يعزّيني بطريقة مّا. أنت لا تعرف ما معنى أن أكون في نظر نفسي متعاليا ذا كبرياء، بعد أن جرّدوني من اسمي، ذلك الشيء الوحيد الذي أملكه. لقد كنت أيضا غير مبال، لذلك أنا أيضا تمكّنت من الصمود بينهم.»

في تلك اللحظة تاقت روحي للبكاء. لكم تألّمت لأجل قرية باراديسيوس البائسة وما حلّ بها وبسكّانها. لكم أسفت لمصير نسائها وأطفالها المساكين. لقد بكيت لأجل أولئك الزمرة من الرجال الوحيدين. كم هم أشقياء، يا لمأساتهم الكبيرة، يا لشقاوة العيش دون حبيبة أو رفيقة. كانت دموعي حارقة حارّة، وكأنّني وسط حزني هذا أسمع أصوات معذَّبي القرية ينتحبون بأصوات تقطّع القلب. كان ديميتري عاجزا عن الكلام. صمتنا لدقائق

طويلة، ولم يُسمع حينها سوى صوت آهاتنا.

خلال الدموع المنهمرة على خدّي، حين تشكّلت ضبابة رماديّة حجبت عن عيني الرؤية، لاح طيفها من بعيد. لطالما رأيتها في مثل هذه اللحظات، لحظات التّيه والضّعف والحاجة، طيف حبيبتي ليندا التي تيتّمتُ من بعد رحيلها. أنا امرؤ مسكين أيضا، أستحقّ أن تذرف الدموع لأجلي.

* * *

كانوا ثلاثة أطفال، وقد بدأت أتعوّد عليهم، إذ أقضّي معهم تقريبا طيلة النهار. حفظت أسماءهم وعرفت طبائعهم وفهمت خصوصيّة كلّ واحد منهم على حدة. كانت حالتهم النفسيّة في البداية متعبة وصعبة. الفقد وذكريات سنواتهم القليلة، مازالت راسخة في عقولهم. فكان لا بدّ لي من أن أخصّص لهم المزيد من الوقت والكثير من الحنان، لعلّي أستطيع مساعدتهم لتجاوز هذه المصاعب وتلك الذكريات.

كانت الفتاة الأكبر سنّا بينهم لا يتجاوز عمرها عشر سنوات. وجوههم الصغيرة البريئة تمدّني بالثقة والأمل والحياة. كنت أشعر بإحساس جميل ينتابني حين أكون رفقتهم. فبينما كنت أسعى لملء ذلك الفراغ في نفوسهم نتيجة الفقد واليتم، وجدتني أملأ فراغ روحي وأرأب صدع نفسي.

نعم، كان شعورا مختلفا ونبيلا، فمدّ اليد لهم لانتشلاهم من الضياع كان في الحقيقة بمثابة مدّ اليد لي لانتشالي من هوّة التيه والحيرة. لعلّ قدري هو الحضور في هذه المدينة في هذا الوقت بالذات. أحسست أنّ القدر قد سيّرني وأتى بي هنا فقط من أجل هؤلاء المساكين. لعلّ أرواحهم استدعت روحي وصوت

أوجاعهم ناداني. لعلنا كلّنا تائهون في هذا العالم، وشاء القدر أن نلتقي ليكمل بعضنا بعضا. من يدري.. لعلّ كلّ هذه الأمور التي تجري إنّما هي خير يساق لنا جميعا.

بالرغم من سعادتي الظاهرة التي كنت أبديها منذ التقائي بالأطفال والعناية بهم، إلّا أنّ روحي كانت حزينة من أجلهم. فما ذنب هؤلاء الصغار كي يعيشوا هذه الحياة المشتّتة البعيدة عن أحضان الأهل. لا يجب أن يدفع الأطفال ضريبة الكره والظلم والحرب. لماذا لا تعبأ الحرب بالدموع والآلام والعذابات؟ لمَ يوضع الجميع في سلّة واحدة، ويحاسب الجميع على أخطاء الآخرين؟! هل سأبكي مجدّدا؟ وهل أملك غير الدموع أقدّمها لهؤلاء البؤساء المساكين؟ لا.. لا.. سأقدّم لهم محبّتي. الحبّ وحده يحجّم الظلمة ويبدّدها. لعلّ الحبّ إنّما خُلِق فقط من أجل هذه الأوقات العصيبة القاتمة. نعم، فهو ما سيشيع السّلام والأمان في أزمنة الرهبة والخوف.

كان مقدّرا لي أن أقطع كلّ تلك المسافات كي أكون هنا. الآن أدرك أنّ تلك الرغبة الجامحة في المغادرة لم تكن سوى استجابة لهذا النداء الذي أرسله القدر. كان هروبا من الحبّ نحو الحبّ، من العشق إلى بذل المزيد منه. اليوم أيّها الحبيب أستطيع الشّعور ببعض الراحة والهدوء. لعلّ ضميري بات أقلّ ضجّة من ذي قبل. لم يعد ذلك الصّوت بداخلي يؤنّبني، وإن قُدِّر لكَ ذات يوم فهم هذا النداء الذي استجابت له روحي فستغفرُ لي من دون شكّ. اليوم يجمعنا العشق الحقيقيّ رغم المسافات. الآن أعلم أنّ العشق بيت تجتمع فيه الأرواح الخالصة النقيّة وتلتقي رغم الحواجز وابتعاد الديار. فلا فراق بعد اليوم أيّها الحبيب.

بينما كنت غارقة كعادتي بين أفكاري ومشاعري، إذ بي أسمع صوت أقدام تتّجه نحو غرفتي.

-«صباح الخير يا حبيبتي، هيا استعدّي سنذهب إلى الكنيسة. إنّه يوم العطلة. سنأخذ الصغار معنا.»

-«صباح الخير عمّتي، أظنّها فكرة سديدة. لعلّ أجواء القدّاس تشيع بعض الراحة والسّلام على نفوسهم. امنحيني بعض الدقائق كي نتجهّز ونلتحق بك.»

بالرغم من أنّني لا أثق كثيرا في رجال الدين، لأنني أثق في الإيمان الفطريّ النقيّ لدى الناس، لكن ما صنعته عمّتي جيمينا -وهي الراهبة منذ سنوات طويلة- بكفالتها للأطفال وانتشالهم من الطرقات والضياع، قد أسعدني كثيرا. أحسست أنه يوجد دائما الأخيار وسط كلّ هذه العتمة والظلام. وقد عزّز هذا ثقتي في الأفعال الشخصيّة للناس من خير وطيبة، أولئك الذين تتطابق أقوالهم وتصرّفاتهم مع روح الإيمان والتديّن.

قصدنا الكنيسة، وفي الطريق بدت مظاهر الحياة باهتة بعض الشيء، فوجوه الناس الذين يملؤون الشوارع تبدو متعبة ومرهقة، كأنّ أجسادهم لا أرواح فيها. كان أمرا مثيرا للاهتمام، وكدت أسأل عمّتي عن ذلك، حتّى صاح أحد الأطفال وقد كان صوت الأجراس يرتفع تدريجيّا كلّما اقتربنا من الكنيسة:

-«ما هذا الصّوت؟»

-«إنّه صوت جرس الكنيسة. لنسرع فبعد قليل ستبدأ مراسم العبادة.»

قال الصبيّ:

-«وماذا سنفعل؟»

-«سنقرأ جميعا من الكتاب المقدّس، ثمّ ننشد بعض التراتيل، وبعدها سنستمع إلى العظة التي سيلقيها الكاهن.» ابتسمت العمّة وهي تشرح ذلك بسرور كبير.

قالت هيلاريا، وهي الفتاة الأكبر سنّا، بلهجة حزينة:

-«لكنّنا لا نجيد القراءة!»

ابتسمت لها وطبعت قبلة صغيرة على وجنتها وقلت:

-«لكنّنا نجيد المشاركة يا حبيبتي، وسنتعلّم القراءة منذ الغد. فما رأيك؟»

ارتسمت على محيّا الصّغار ابتسامات عذبة، ابتسامات كانت كفيلة بإدخال السّرور على قلبي. لقد سعدوا بذلك حتّى أنّهم تسابقوا في اتّجاه الكنيسة وانتظرونا هناك عند المدخل.

داخل الكنيسة، وقف الكاهن في منتصف القاعة، على منصّة مرتفعة عن الأرض بعض سنتيمترات، وقد أمسك بين يديه الكتاب المقدّس وشرع في القراءة. أسرعنا وأخذنا أماكننا في الصفّ الأمامي، إذ كانت القاعة شبه فارغة إلا من بعض الحضور الذين يعدّون على أصابع اليد. قرأ الكاهن بصوت خفيض وقور.

-«أكرم أباك وأمّك كما أوصاك الربّ إلهك، لكي تطول أيّامك، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الربّ إلهك».[1]

كانت القاعة هادئة جدّا، والحضور ينصتون بانتباه، والجو هادئ روحانيّ، خاصّة ورائحة البخور تضفي على المكان مزاجا رائقا ورائحة طيّبة زكيّة. وكانت شعلات الشموع تضيء الزوايا

1- (5:16) سفر التثنية.

وتتراقص وتتمايل في تناغم بديع مع حركة الهواء الخفيفة، فترتسم على الجدران القريبة خيالات باهتة راقصة.

وسط هذا الهدوء والخشوع، كانت هناك يد صغيرة تضغط على ثوبي، وتناهى لسمعي صوت حشرجة رقيقة وأنين أنفاس بالكاد يسمع. نظرت فإذا بالصّغير جورج يمسك بي وقد غصّت عيناه بالدموع. قال لي كلمات بنبرة متقطعة متلعثمة كاد قلبي ينخلع حين سمعتها:

-«ليس لديّ أب وأم كي أكرمهما يا خالة.. فهل ستكون أعمارنا قصيرة؟»

لم أتمالك نفسي لحظتها، وجدتني أحضنه بشدّة واضعة رأسه الصّغير على صدري، وقبّلته وقد خانتني الكلمات والعبارات. لم أجد جوابا لهذا السؤال سوى دموعي التي سالت بغزارة وحرارة. ارتبكت جدّا حتّى أنّني صرت أغمغم بكلمات طائشة لا معنى لها، ما أثار حفيظة امرأة واقفة بجانبي، فرمقتني بنظرات اشمئزاز. فاضطررت إلى أخذ الصغار والمغادرة بسرعة، تاركة عمتي جيمينا واقفة مشدوهة لا تعرف أتلتحق بي لتفهم ما حصل أم تبقى كي لا تثير غضب الكاهن والحاضرين.

كنت أمسك بيد الأطفال وأمشي مسرعة، رأسي منكّس بالأرض وبعض المارّة يرمقونني بنظرات مرتابة. حاولت الهرب من هذا المكان المليء بالذكريات الآتية على حين غفلة. تمنّيت لو أنّي بقيت رفقة الصّغار بالبيت ولم نغادر، أو لو صحبتهم إلى الحديقة للتنزه. كنت حينها على الأقلّ سأتجنّب هذا الموقف المؤذي وخيبة الأمل التي أصيبوا بها.

لعلّ دور العبادة ليست المكان المناسب لوجود الأطفال.

لعلّه من الواجب التعامل مع الصغار بحذر أكبر، خاصّة اختيار التعاليم الدينيّة المناسبة التي تتوافق مع أعمارهم وإدراكهم ووعيهم بالأشياء. لن أسامح نفسي أبدا. كيف سأعالج هذا الشّرخ الجديد؟ وبماذا سأجيب الصغير جورج عن سؤاله ذاك لو سألني مرة أخرى؟

* * *

حلت الظهيرة، وبدأ التحضير للحفلة والإعداد لها. الجميع منهمك ومشغول بالقيام بالمهامّ الموكلة إلى كلّ فرد منهم. كلّ واحد منهم يعرف دوره؛ جماعة تجهّز شرائح اللحم وتتبّله وتقوم بشوائه، وآخرون يعدّون شرائط مزيّنة لتُعلّق بالسّقف والجدران، وأحدهم يهتمّ بترتيب الطّاولات ووضع الصّحون وعرض صنوف الفواكه والثمار.

آندري يتجوّل ويراقب العمل الحثيث، ويتفقد سير التحضيرات، يتذوّق النبيذ ويبدي رأيه حول جودته. وقف في منتصف الحانة، سحب كرسيا، وأطرق في التفكير. شيء مّا يشغل باله. زمّ شفتيه وضرب الطاولة بقبضته والحنق باد على ملامحه. اقترب أحد الرجال منه وبادره بالحديث:

-«ما الذي يشغلك؟ أراك على غير عادتك تجلس كئيبا وتستغرق في الصمت. ليست هذه من صفاتك آندري.»

-«اللعنة! ذلك الزائغ اللّعين والغريب، يتجوّلان في القرية ويغادرانها كأنّهما سيّدان، ونحن نظلّ هنا ننظر ونراقب ولا نحرّك ساكنا كالعبيد. لقد مكثنا في هذه البقعة النتنة كالخنازير، لا قيمة لنا ولا علم بما يدور خلف هذه الحدود. لقد سئمت هذا الوضعَ البائسَ ولم أعد أطيق هذه الحياة. اللّعنة على الملك وجنوده

وقوّاديه. سلبنا اللعين زوجاتنا وأطفالنا وأسلحتنا، وفرض علينا هذا المنفى البغيض. خمس سنوات من الحجز والنفي، أظنّ أنّ الساعة قد حانت، آن لنا أن نضع حدّا لهذا الوضع. إنّني ذاهب وليس يهمّ ما سيحدث.»

ذهل ياكوبوس وعقد حاجبيه مستغربا من هذا الكلام. تقدّم نحو آندري، وأمسكه من ذراعه، وقال:

-«اهدأ يا صديقي، ما سبب كلّ هذا الحنق؟ لم نعهدك بهذه الخصال. طيلة هذه السّنوات لم نسمعك تشكو أو تتذمر أو حتّى تذكر اسم اللعين إينو على لسانك.. ما بك؟»

حرك آندري يده بتوتر شديد مشيرا بإبهامه إلى صدره.

-«لقد صمتّ كلّ هذه السنوات من أجلكم فقط، كي لا أثير ما لا طاقة لنا به. كنت أعلم أنّكم لن تنسوا أبدا، ولم يكن يغنينا شيئًا الحديثُ وتذكّر تلك الأيّام القاسية. لكنّني اليوم لا أستطيع الصّمت. لقد كنّا نماطل ونخدع أنفسنا، كأنّ الأمور تسير على ما يرام. يجب وضع حدّ لهذا الأمر.»

-«لكن ماذا عسانا نفعل! لقد حصلنا على هذه السنوات من الأمن الهادئ الوادع بشقّ الأنفس، ولا يجب التهوّر في هذه المرحلة. ثمّ إنّنا عقدنا هدنة طويلة الأمد ولا يجب علينا نقضها بأيّ حال. في هذه اللحظة بالذات يجب أن تتذكّر التضحيات والدّماء والفقد. انظر من حولك، لم يبق منّا سوى قلّة من الرّجال الخائبين المنكسرين. لقد خانتنا الأقدار ولم تنصفنا، ولن يعود الأمل إلى هذه القرية أبدا، لأنّه غادرها منذ زمن.»

كان ياكوبوس شقيق القائد هرماندينا، وهو أجدر الرجال وأحقّهم بالحنق والغضب، فخسائره لا تقدّر بثمن. لكنه رغم

ذلك ظلّ يذكّر الجميع بوصيّة قائدهم الذي ضحّى من أجلهم، إذ قال لهم ساعة اِلتفّ حبل المشنقة حول عنقه: «لا تتخلّوا عن أرضكم وتمسّكوا بها، فهي لن تتخلّى عنكم حين تعصف بكم الأوقات.»

هدأت أعصاب آندري قليلا. فقال وقد خفّت ثورته:

-«لعلّك على حقّ. لقد ثار غضبي لأنّني تذكّرت أيّاما كنّا ننعم فيها بحريّتنا. صحيح أنّنا نفعل ما نشاء مادمنا داخل حدود القرية. لكنّنا محبوسون هنا، لا إرادة نملكها لنقرّر ما الذي نريد، نحن أشبه بقطيع من الخنازير، نأكل ونشرب وننام، ولا ندري ما الذي سيُفعل بنا غدا. ورغم ذلك نأمل ألاّ يأتي الجزّار. أريدكم فقط أن تتذكّروا هذا الأمر!

-«وكيف ينسى السّجين أنّه مسجون! هيّا بنا، دعك من هذا الآن، لا نريد أن نفسد على الرّجال بهجتهم. هيّا!»

أمر آندري السّاقي بتوزيع النبيذ. كان يمسك برأسه بين قبضتيه، لا يعرف ماذا يصنع. التحق به الرجال والتفّوا حول الطاولات. جلسوا وقد حمل كل واحد منهم كأسه بين يديه. صوت عزف هادئ يدغدغ السّمع. أطباق الغلال والثمار المتنوّعة متراصّة بشكل أنيق ومرتّب. أُوقدت النّار في المدفأة القديمة، وأشعلت الشّموع الملوّنة، فبدأت شعلاتها تتراقص على أنغام حركة الهواء المنبعثة الخفيفة.

كان السّاقي يرتدي ثيابا أنيقة، أعدّت خصّيصا من أجل هذا الاحتفال الشهريّ. نهض آندري من مكانه وأخذ كأسه المترعة بالنبيذ، رفع يده عاليا إشارةً إلى بدء الحفل. ضرب الرّجال كؤوسهم بعضها ببعض، وأطلقوا العنان لأنفسهم السجينة

وعقولهم المزدحمة بالذكريات للّهو والمرح وللحريّة التي لم يعودوا يشعرون بها سوى في مثل هذه الأوقات.

احتفل الجميع وأنشدوا أغانيَ قديمةً تتحدّث عن الحرب والنّساء البعيدات والشّهداء الذين سقطوا أثناء المعارك. فترتفع أصواتهم تارة وتنخفض أخرى. ترتفع الكؤوس عاليا ثمّ تنخفض، ويُسكب المزيد من النبيذ الأحمر القاتم الشّبيه بلون دماء ضحايا باراديسيوس. تنسكب القطرات على البلاط كما انسكبت من جسد القائد هرماندينا حين كانت الجوارح تنهش لحمه وتفقأ عينيه. يتواجه بعضهم ويشدّ على أكتاف الرفقاء ويحضن بعضهم الآخر. كان الجوّ حماسيّا جدّا مليئا بالذكريات القديمة المظلمة.

في مثل هذا اليوم، لا حرج لدى القرويّين في إظهار حزنهم ودموعهم وأصوات نحيبهم الممزوج بالعبرات الحارقة. هذا اليوم شبيه بمولد جديد متكرّر لذكرى لا تُنسى ولا تُمحى من الذاكرة، ذكرى الفراق والهجر والهوان والمذلّة.

مع حلول الليل، وبالرغم من ازدياد برودة الطّقس في الخارج، كانت الحرارة داخل الحانة مرتفعة جدّا. بدأت الأصوات التي كانت تنشد منذ ساعات بالخفوت حتى انقطع الغناء والموسيقى تماما. لم يعد يُسمع في الداخل سوى صوت الكؤوس المرتطمة بالطاولات. البعض مستلقٍ على البلاط والبعض الآخر مازالت لديه القدرة والرغبة في مزيد احتساء النبيذ.

كان آندري في أقصى حالات الثمالة، لكن لاح في عينه بريق حادّ ونظرة مريبة. ظلّ يقصّ بطريقته الخاصّة المفعمة بالشهوانيّة والرغبة، قصصا عن النساء والزوجات الحسناوات، ويصف

لرفاقه المترنّحين مظاهر الفتنة والجمال والأنوثة التي كانت تتمتع بها نساء قرية باراديسيوس.

كثير من الإثارة والحميميّة في كلماته، وفي عينه ترتسم ملامح الشّهوة الصارخة المعربدة الماجنة. ظلّ الرجال الثملون يستمعون إليه بانتباه بالغ، وعيونهم تتّقد شهوة وغريزة مكبوتة هوجاء، تتوق للتحرّر ونيل مرادها والارتواء، لإطفاء النيران المستعرة التي لو أطلق سراحها لأحرقت الأخضر واليابس. رائحة الرغبة قد فاحت في أرجاء الحانة وأصوات بعض السّكارى تصدر متقطّعة تئنّ، فتوحي باضطرام الأنفس وصراعها للحصول على الأجساد الرائعة المثيرة.

أمر آندري السّاقي بإطفاء الأضواء في تلك اللحظة، حين تأكّد من أنّ الجميع بات مهيّئا بانفعالاته العطشى ورغباته غير المحدودة. بقي ضوء الشّموع فقط هو ما يتراقص ويتمايل فتتراقص معه الظلال المنعكسة على الجدران والسّقف، فيخيّل للناظر منهم أنّ موكبا من الحسناوات قد حضرن ليؤنسنهم في هذه اللّيلة الحافلة. تتشابك الأيدي والأجساد في رقصة ساخرة مريعة، ويفتن الخمر وسلطانه العقول فيطلق سراح الغرائز المكبوتة وتتحرّر صرخات الجسد التّائق للمتعة، الذائب في حضرتها، المذعن أمام مشيئتها. ينظر كلّ واحد إلى رفيقه الجالس بجانبه فيستحضر صورة زوجته أو حبيبته القديمة، فيشتهي تقبيلها ومضاجعتها كرمى للأيّام الخوالي.

في هذه اللّيلة من كلّ شهر، منذ حوالي ثلاث سنوات، يبيت سكّان قرية باراديسيوس كسالف عهدهم قبل الحرب. كلّ واحد منهم يحظى بقدر من المتعة والإثارة، إلى حين يطلع الصّباح، أو

عند ذهاب مفعول الخمر. وفي الصّباح، تنسى حكايات اللّيل ومغامراته، وتبدأ حياة جديدة في القرية مع انبعاث أوّل نسمات الفجر النقيّة، ومع بروز أوّل خيط للشمس المحجوبة خلف أسوار الغيوم الكثيفة.

أفاق القرويون من نومهم وأحلامهم وزال عنهم مفعول سحر اللّيلة المنقضية، وتوجّه كل واحد منهم إلى شؤونه وأعماله.

* * *

كان ديميتري رفقة يوجين في طريقهما إلى الغابة لمواجهة يوم جديد من العمل في هذا الصّباح البارد، وقد حُمِّلت العربة بعشرات الشجيرات الصغيرة التي تمّ شراؤها من سوق المدينة، بعد أن بِيع إرث يوجين العائلي، «ساعته الذهبية».

كان ديميتري مشغولا في ذلك الوقت بأمر واحد فقط، ما الذي جعل يوجين يرى الأمور بطريقة مختلفة؟ وما الذي يحثّه على القيام بمثل هذه الأشياء؟ ما الدّافع يا ترى؟

-«هل تعلم يا بنيّ، طيلة السّنوات التي قضّيتها في العمل بالغابة، لم تخطر ببالي أبدا فكرة إعادة إعمارها وزرع شجيرات صغيرة مكان تلك اليابسة التي أقوم بقطعها.»

سكت ديميتري قليلا، ثمّ أضاف مستغربا:

-«لعلّ هذه الفكرة هي التي جعلتك تقرّر المكوث في القرية. أليس كذلك؟»

-«لا أخفيك سرّا يا عمّ، أفكاري مشوّشة قليلا، ولا أنكر أنّني أردت القيام بذلك منذ خروجي إلى الغابة في المرّة الأولى. لكنّني أظنّ أنّ هذه الفكرة جزء من حقيقة رغبتي في المكوث، أمّا السّبب الرئيسي فمازلت أجهل ما هو.

-«ماذا تقصد؟» قال ديميتري وقد زادت حيرته وبدت ملامحه أكثر استغرابا.

-«لا أعرف يا عمّ. الأمور غير جليّة بالكامل. فمنذ مغادرتي مسقط رأسي وأنا أبحث عن الخلاص الذي يحقّق توازني وارتواء روحي وهدوء قلبي. وحين ظننت أنّ ذلك لن يحدث إلاّ باللقاء مع حبيبتي الغائبة، وجدتني منذ وصولي إلى القرية ألقى بعض السّكينة بالرّغم من أنّ قلبي ما يزال يشكو ألم الفراق والهجر.»

-«يا بنيّ، إنّ قلبك الذي جعلك تغادر مدينتك بحثا عن رفيقة روحك، إنّما كان يستجيب وينصت لنداءات أهل هذه القرية البائسة، فلقد أوصلك بطريقة مّا إلى هنا، حيث يجب عليك أن تكون، وإنّني أرجو أن يحصل خلاص روحك الذي تتوق إليه بتحقيق الخلاص لأرواح رجال باراديسيوس!»

-«أتقصد أنّ خلاصي لم يكن متعلّقا بلقاء حبيبتي ليندا، بل هو مرتبط بوضع رجال باراديسيوس؟ لكن ما العلاقة بيني وبينهم؟ أنا بالكاد أعرفهم! كيف ذلك؟»

-«يا بنيّ إنّني أؤمن بأنّ كلّ ما يحدث لنا ومن حولنا لا يحدث بفعل الصّدفة، هناك قوّة خفيّة تحرّك كلّ شيء، تلك القوّة قادرة على دفعنا وتحريكنا دون وعي منّا أحيانا. أنظر إلى نفسك مثلا، لقد خرجت تبحث عن حبيبتك فوجدت نفسك في قرية غريبة محاطا بأناس لا تعرفهم. ثمّ إنّك خرجت إلى الغابة من أجل قطع الحطب، والآن تريد فعل أمر مغاير تماما وتنوي غراسة شجيرات، وقد بعت من أجل تحقيق غايتك ساعتك الذهبية، وهي إرثك العائليّ والشّيء الوحيد الذي احتفظت به لقيمتها المعنوية عندك! أتجدُ كلّ هذا مخطّطا له من قبل، أقصد ساعة

اتخذت القرار بخوض مسيرك؟»

-«لا.. لم أخطّط لكلّ هذا. حتّى إنّ الأمر الوحيد الذي خطّطت له لا أعرف كيف أقوم به. حاليّا لا أفكّر إلاّ في غرس هذه الشّجيرات، وبعد الانتهاء سأنظر في ما سأفعل في قادم الأيّام.»

-«كم وددت لو أنّك لم تبع ساعتك الذهبيّة. لقد كانت الشّيء الوحيد الذي يذكّرك بأهلك ومدينتك. لقد كانت بمثابة هويّتك.»

-«ما فائدة الذّهب يا عمّ، والحياة تكاد تضمحلّ وتختفي. اُنظر من حولك هذه المساحات الجرداء؛ الناس، الحيوانات والأعشاب أيضا، كل هؤلاء ينتفعون من الظلال والثمار والهواء وحتّى التربة أيضا تنتفع. فأيّ قيمة للذهب أمام القيمة الحقيقية لكلّ هؤلاء؟!»

-«لقد أثرت إعجابي يا بنيّ، لكن أتعلَم ما هو أهمّ من ذلك كلّه، الأمر الأهمّ من الذهب والغابة بما تحتوي داخلها من حيوات؟»

-«ما ذاك يا عمّ؟»

-«أن تحيي الإنسان وتنقذه. قدومك إلى قريتنا وظروف وصولك ومسيرتك التي بدأتها من بلادك البعيدة، لم تكن لتخطئ هذه الربوع المنسيّة.»

أجهش ديميتري بالبكاء وقد بلّلت الدّموع لحيته، وقال:

-«لعلّك تقدر على تحقيق ما عجزت أنا على القيام به. أرجو من صميم قلبي أن تهتمّ.»

* * *

للمرّة الأولى منذ وصولي إلى باراديسيوس حدّثني العمّ ديميتري عن سرّ تلك الحفلة التي تقام كلّ شهر، وعن سرّ أولئك العصبة من الرجال المنفيّين. ساعتها، لم أجد سببا واحدا يمنعني من البكاء، بل وجدت روحي تنتحب وتتأوّه لقسوة هذا الواقع المرير. كنت محتاجا في هذه اللحظات إلى الصّلاة. لقد أدركت أنّني كنت جاهلا حين أردت خلاص نفسي وروحي، كأنّ هذا العالم خال من الآلام. كنت أعمى إلى أن حظيت بنور اللطف الذي حملني على بعض الفهم، ومنذ تلك اللحظة صرت أرجو خير العالم. لقد كنت عاجزا في ما مضى عن معالجة مأساتي الشخصيّة التي كانت تقضّ مضجعي، وتؤرّق أحلامي. اليوم أجدها مستساغة كلقمة هانئة، حين شاهدت مأساة الآخرين.

لم أكن أظنّ أنّه سيأتي اليوم الذي أخيّر فيه بين المبالاة والتجاهل، وكأنّ الأمر يخصّني أنا بالذات دون غيري. فهذه المسؤوليّة قد ألقيت أمامي مباشرة، وحملتها كأنّ شخصا مثلي ليست لديه آلامه الشخصيّة، لكن وجدتني، رغم ذلك، منخرطا في المسألة برمّتها، كأن لا خيار آخر لي. لا أدري ما مأتى هذا الحرص الذي أصبت به فجأة، وهذا التبنّي التامّ لهذه المسألة، لكنّني أعلم أنّ التهرّب من مواجهة الواقع ليس من خصالي، ومع أنّني في الحقيقة سعدت بأنّ هناك من يعوّل عليّ بشدّة، إلاّ أنّني لا أعلم حقيقة، هل أنا أهل لتحمّل كلّ هذا العبء، أم صادف هذا العبء طريقي ليجعل منّي شخصا آخر قادرا على التحمل؟ كأنّ القدر يَعدني بشيء مّا، أو لعلّه يتوعّدني، أم تراه يُعدّني لمرحلة أخرى؟ حقيقة لست أدري.

لم أدرِ ما الحكمة من كلّ هذا. أحسست فجأة بضيق شديد، ثقل الوجع يكتم رغبتي في الصراخ. صدري يختنق بأنفاسي المجهدة ودمائي الفائرة تحرق عروقي وجلدي. من وراء أمطار عيوني رأيت ديميتري وهو في حالة هستيريّة. صوت نحيبه يمزّقني، وحشرجة أنينه تزيد في حدّة انفعالي.

هذا الصّباح مليء بالدّموع والأسى. أدركت اليوم أنّه يجب على الإنسان أن يتحرّك من أجل أخيه الإنسان، ويفعل شيئا لإنقاذه، لا أن يقف مكتوف اليدين ويراقبه يهوي في غياهب التيه والضّياع. «هل من الحكمة أن تظلّ باراديسيوس على هذه الحالة؟» الوضع غير طبيعيّ مطلقا، والمصيبة أنّ هذا المصير ليس نتيجة اختيار وإرادة، بل هو قدر سلّط عليهم كأمر واقع. فحين يفقد الإنسان حريّته وتنتزع منه بشريّته ويحرم من مصادر توازنه وأسباب الحياة العاديّة، من الجحود الطلب منه أن يتصرّف بمنطق وحكمة.

اليوم ازداد يقيني بأنّ حضور المرأة في حياة الرجل ليس مجرّد حاجة عاديّة، بل هو ضرورة قصوى، فهما يتكاملان معا ويخلقان أبهى صور الحياة. كلّ منهما يدفع الآخر نحو الكمال، ويرمّم الضعف الذي فيه.

في غمرة كلّ هذا، تذكّرت ليندا، روحي الغائبة الحاضرة، وأحسست بحاجتي إليها، في مثل هذه الأوقات العصيبة الحالكة السواد.

* * *

هناك دائما صوت داخلك يناديك، يدفعك، ويحرّكك. أمّا أنا فقد آلمني جدّا ذاك الصوت واحتلّ تفكيري وكياني منذ سمعته

للمرّة الأولى. ذاك الصوت الذي يدعو إلى التحرّر والتغيير الداخلي. وفي حالتي أنا، فقد قادني إلى قناعة راسخة، وهي أنّ جميع ما مررت به لم يكن مجرّد صدفة أو اختيار شخصي حرّ الإرادة بصفة مطلقة، بل كنت مسيّرا بطاقة الحبّ في البداية، ثم أصبحت أرى أنّني أمتلك القوّة والرغبة كي أختار، ولذلك بدل أن أقوم بتغيير على المستوى الشخصيّ والحصول على بهجتي الخاصّة، قرّرت أن أكون سببا في تغيير كبير في هذا العالم، وأن أتحرّر من مجدي الذاتي وتحقيق رغباتي الشخصيّة كي أقدّم للآخرين يد المساعدة والعون.

الآن أدرك الحقيقة التي كانت مستترة. في السّابق كنت أحسب أنّ رحلة خلاصي ونداء روحي الذي لا يخبو إن هو إلاّ مجرّد بحث عن تحقيق خلاصي أنا. لكنّ الأمر مختلف تماما. لطالما ظننت أنّ الأمر يتعلّق بي، وقد كنت مخطئا. وهذا الأمر هو ما اكتشفته حبيبتي ليندا باكرا، فيما استغرقني إدراكه كلّ هذا الوقت. نعم، لم نخلق لأنفسنا فقط. لم يكن المعنى في البداية متعلّقا بتحقيق رغبتي وإرضاء نفسي، بل كان مرتبطا بالمسعى وتلبية النداء.

مازال صوت داخل روحي يصرخ. كنت مرهقا جدّا ومتعبا إلى درجة أنّ العمّ ديميتري رمى بالفأس وأقبل صوبي مسرعا. كان آخر شيء أراه في تلك اللحظة ملامح وجهه الخائفة المرتعبة. صار كلّ شيء رماديّا من حولي، ولم يكن هناك لحظتها أيّ همس أو أيّ صوت واضح. فجأة برز الكون من وراء حجاب فضّي اللون. كانت الأفكار مشوّشة جدّا. أطياف قديمة مألوفة تبرز وتختفي. طيفا والديّ يقتربان. أحاول لمسهما لكنّهما سرعان ما

تبخّرا. أرى طيف ليندا يعبر الشارع. أسمع صوت أجراس تُقرع وأشاهد وجوه نساء وأطفال لا أعرفهم يحدّقون بي.

بدأ كل شيء يصير شفّافا جدّا؛ الكون يتجلّى، وسكون عجيب يملأ المكان. بقيت مشدوها للحظات بدت طويلة جدّا، كلّ شيء يوحي بالغرابة والعجب. بقيت أراقب هذا الكمّ من المتناقضات التي تلوح في الأفق، أشياء لم يسبق لها أن اجتمعت، أراها في نفس المكان كأنّها ترفض قانون المنطق والمعقول. أشيح ببصري عنها فأرى أمورا متشابهة تحدث، ووجوها تتكرّر كأنّها نسخ. حينها شعرت باضطراب وخوف عظيم. أغمضت عينيّ وحاولت طرد هذه الأفكار، فخاطبني صوت جهوري: «في الطّريق تجد الطّريقة..» وظلّ ذلك الصوت يتردّد داخل رأسي كأنّه صدى.

وضعت يديّ على أذنيّ وركضت في طريق طويل، لا تبرز نهايته. وحين تعبت من الركض، توقّفت وجلست على الأرض. رفعت رأسي إلى السّماء، فإذا الشّمس قد لاحت، ورأيت شريط حياتي يمرّ أمام عيني وخيوط النّور الذهبيّة تلوّن جزءا منه وتصبغه بلون الوضوح والأمل والثقة. لكنّني حينما اِلتفتّ، رأيت الشمس تختبئ وتختفي. أمعنت النظر فإذا بشبح عظيم مظلم ينزل من العلياء وغطّى جوانب الكون كلّه. حلّ الظّلام وأسدل الليل ستاره، وأرخى ذراعيه وأسلمها لمعانقة الأرض، ثمّ غمرني. توحّدت معه فصرنا عالما وواقعا متداخلا، فاستسلمت لرهبتي وإذعاني. تخمّرت في حالة من اللاّإدراك وتعلّقت روحي بالمجهول. أحسست ببهجة شديدة، فلقد انتابني شعور جديد لم أخبره من قبل. أقف في اللاّمكان بقدمين

ثابتتين لا تتزحزحان.

أردت استكشاف هذا الشيء، هذا اللاّمكان، هذا العدم، ثمّ عدلت عن رأيي وأقنعت نفسي بضرورة المراقبة والحذر فقط. أحيانا أظلّ أنتظر مجهولا قادما، وأحيانا يعتريني الخوف والجزع وأحيانا لا أشعر بشيء مطلقا. كان هناك صوت يتسلّل داخل روحي، يخبرني دون أن ينبس بأنّه موجود هناك يراقب وينظر. أنا لا أراه ولم أره من قبل. لكنّني أستشعر قربه ودنوّه وقوّته التي تسري داخلي كأنّه يمدّني بمدد من عنده، كأنّه يسكب في روحي صفات جديدة وقدرات، يجتاحني ويحرّرني. أظنّه يريدني أن أظلّ بعيدا للتأمل والتفكّر.

غمرني ساعتها شعور غريب. أحسست بأنّني والكونَ نقطتان صغيرتان متساويتان تسبحان في مجال قدرته. وحين أفقت من كلّ ذلك، -الرؤى أو الإلهام أو الهلوسة، لا أعلم يقينا ما ذاك-، كان العمّ ديميتري يقف مشدوها غير بعيد، وينظر صوبي نظرة مليئة بالرّعب. لكنّه حين رآني أفقت أسرع نحوي وعانقني بقوّة. الخوف باد على ملامحه، وجسمه يرتعش وعيناه تفيضان بالدموع.

-«ماذا حلّ بك يا بنيّ؟ لقد ظننت لبضع دقائق أنّني فقدتك، ولم أعرف ماذا أصنع. ماذا حصل لك؟»

-«لا تجزع يا عمّ، إنّها على الأرجح رؤيا رأيتها أو لعلّه كابوس أو حلم.. لست أدري.»

-«لا عليك يا بنيّ، اليوم لن نعمل شيئا. سنعود الآن إلى الكوخ. يجب أن تأخذ قسطا من الراحة. تبدو منهكا.»

-«لا.. لا.. أنا بخير. ثمّ إنّني أريد عمل شيء مّا كنت قد

خطّطت له.»

قمت من مكاني الذي كنت متّكئا عليه. حملت الرّفش والمعول، وسحبت العربة. كنت أشعر بطاقة تغمر جسدي، ورغبة في العمل. بلغنا وسط الغابة، هناك مساحة شاسعة جرداء لا شجر فيها ولا حياة. بدأنا بتجهيز الأرض، فحفرنا حفرا مناسبة، ووضعنا الشجيرات الصغيرة في أماكنها وغطّينا سيقانها بالتراب. استغرق الأمر النهار بطوله حتى أنهينا غراسة كلّ الشجيرات التي اشتريناها. كنّا مرهقين جدّا. استلقى العمّ ديميتري على الأرض، أمّا أنا فقد بقيت واقفا أراقب إنجازنا، وقد كنّا نتبادل نظرات الفخر والسّعادة، راسما في خيالي صورة الغابة وقد امتلأت حياة وازدانت بأنواع جديدة من الأشجار والحيوات.

-«هل أنت راض يا بنيّ؟»

كان سؤال العمّ ديميتري بسيطا جدّا، لكنّه معقّد في الآن ذاته. فمن ذا الذي يبلغ درجة الرضا والعالم من حولنا يشي بالتعاسة والظلام. لا أعتقد أنّ الرّضا من صفات البشر، حتى وإن كان مرتبطا بأحوالنا وإنجازاتنا الشخصيّة، فأيّ رضا قد نشعر به إذا نظرنا إلى واقع الحياة المرير والحالك. «هل أنا راضٍ؟»

-«لست راضيًا يا عمّ ديميتري!»

-«ولِمَ لست راضيًا؟ هل شعرت يوما بالسّخط والندم؟ هل تذوّقت يوما طعم الخيبة والانكسار؟»

كانت أسئلته لا تحمل أجوبة حقيقيّة، بل تدفع بدورها إلى التساؤل والتفكير. تمرّ بي أوقات أشعر فيها بالخيبة والسّخط. «نعم أنا حزين في أعمق أعماق روحي».

-«قل لي يا عمّ، لم تخبرني.. لمَ سُمّيت القرية باراديسيوس؟»

أطبق ديميتري جفنيه، وأطلق زفرة حادّة نبعت من أعمق مكان في روحه، وقد عادت به الذكريات إلى مكان بعيد في ذاكرته مليء بالصّور والحكايات. فتح عينيه ودنا مني، ثمّ قال متحسّرا:

-«كانت قريتنا مكانا مثاليّا للحياة؛ الخصب، السّلام، الموسيقى والمحبّة... أشياء جميلة تنتشر في الجوّ وتشعر بها، تراها رؤية العين وتشمّها بأنفك، إذ كانت الروائح الزكيّة منتشرة في كلّ مكان تفوح مع النسمات الصافية النقيّة. الجميع يحظى بالحياة التي يريدها، والرخاء من نصيب الجميع.»

سكت ديميتري عن الكلام وقد بدت عليه ملامح الحنين والشّوق، ثمّ أضاف:

-«إنّ دوام الأمور على حالها ليس من صفات الحياة. لقد كذبوا علينا، أخذوا خيراتنا وسلبوا كلّ ثرواتنا. لم يتوانوا عن فرض الضرائب واجتباء أموالنا. لقد اتّفقت السياسة والدين على تجويعنا، فصيّروا أطفالنا بلا مستقبل، وبلا آمال.»

دفعتني نبرة صوت ديميتري إلى إنهاء الخوض في مسألة تعيد الذكريات الأليمة، لكنّه واصل حديثه كأنّ البوح قد شفى ما بقلبه:

-«لقد تدهورت أحوالنا، وبتنا ننفق المزيد من المال لنغطّي تكاليف حاجيّاتنا. حتّى إنّ البعض اضطرّ إلى رهن كلّ ما يملك. كان جشع الملك والكنيسة بلا حدود. ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ، فقد دعا القائد هرماندينا رجال القرية إلى التمرّد، حين استفحلت الأمور، وبات من الضروري وضع حد لهذا الأمر. اعتُبر التمرّد عصيانا لسلطة الملك والربّ، فأُعلنت الحرب. وكما

ترى.. هذا ما آلت إليه الأمور.»

-«يبدو أنّ الثّورة كانت ضرورة ملحّة في ظلّ ظروف كتلك. أحيانا يكون الخيار صعبا جدّا، حين لا يكون البديل متاحا.»

-«ولكن رغم ذلك الألم والفقد، كان هناك معنى وقيمة في نهاية المطاف، وهذا هو الانتصار في أرقى معانيه. هذا ما لم يدركه بعدُ، طرفا الصراع.»

-«ماذا تقصد؟» قال ديميتري في استغراب.

-«أحيانا نرى الواقع، فيبدو لنا قاتما سوداويّا، إذ أنّه قد يعكس خيباتنا وهزائمنا. لكن هناك دائما جانب مضيء في الحكاية.»

-«وما هو؟»

-«رفض الظلم والتصدّي له. بالنّسبة إليّ هذا هو النّصر الكبير. ثمّ إنّ حكايات المجد والبطولة لن تطمسها الخسائر، فهي ليست سوى ثمن محاولة التغيير. الانتصار يكمن في الوعي وإرادة التغيير.. هو هناك، خلف حدود القرية.»

-«أين؟ أنا لا أفهم ما ترمي إليه.»

-«الخشية التي جعلت العدوّ يفرض حصارا على قرية لا يبلغ عدد سكّانها خمسة عشر نفرا.. أن تجعل عدوّك يخشاك وهو في الحقيقة أقوى منك وتتجاوز قدراته قدراتك أضعافا مضاعفة.. أن تكون منافسا وخصما جديرا بالاحترام. الخوف الذي تزرعه في قلب عدوّك هو الانتصار الحقيقيّ، ولو خسرت في أرض المعركة.»

ظلّ العمّ ديميتري ينظر إليّ وفي عينيه بريق من أمل وفخر. لعلّه يتذوّق، للمرّة الأولى، معاني ذلك الانتصار، ولعلّه منذ انتهاء الحرب يتحسّس أخيرا حلاوة الواقع الجديد الذي أصبح

في ذهنه مغايرا لذاك الواقع المتّسم بالفشل والانكسار والخيبة.

* * *

منذ وطئت قدماي قرية باراديسيوس، ومكثت فيها بضعة أيّام، حتى أدركت أنّ مرحلة جديدة من حياتي ستبدأ. فخروجي وراء ذلك المسعى الذي دفعني في البداية، وهجري لدياري وثروتي وكتبي، ومحاولة البحث عن حياة حقيقيّة أشعر فيها بقيمة الأشياء كالحبّ، السعادة، والمعنى، كان بداية مسيرة قادتني إلى معرفة شيء آخر في هذا العالم.

هذا العالم مسيّر بقوى خفيّة غير ظاهرة، لا يمكن لأعيننا أن تراها، بالرغم من أنّنا نشعر بوجودها، بل ونتحدّث غالبا عنها. هناك أيضا أشياء تمرّ على أحداث أيّامنا العاديّة، كالرحمة والصدق والإحسان، تلك الأمور البسيطة قادرة على تغيير هذا العالم. هذا المسير أثّر فيه القدر، الحبّ وإرادتي الحرّة أيضا، فكان يتحرّك حسب حضور كلّ واحد منهم. لكن خلاله وعبر مراحله اكتشفت أنّ هذا العالم مليء بأشياء أخرى حالكة ومظلمة وقاسية، كالكره والحقد والفقد. هذه الأمور التي تحدث فتخرّب كلّ معاني الجمال، وتفقد الإنسان كرامته وقيمته. لعلّ باراديسيوس هي الجانب المظلم في أعماق روحي، ذلك الجزء الذي لا ينبغي له أن يتحرّر.

أشياء جديدة طرأت على حياتي. تلك الرّؤى التي صرت أراها تؤرّقني وترهقني. عذابات القرويّين التي يكبتونها ويخشون الحديث عنها باتت تشغلني، الهواجس التي تنتابني. لقد فقدت بوصلتي!

كان ديميتري في حيرة من أمره. صراخ مكتوم يكاد يخلع

صدره، لكن لا تصدر منه سوى زفرات حارّة ودموع تتهاطل بغزارة. أمّا أنا فقد كنت محتاجا إلى الراحة والنوم، إلى النسيان والتجاوز. رأسي سينفجر. أحتاجك يا ربّ!

نمت ليلتي تلك بصعوبة كبيرة، وقد نال منّي الإرهاق، وصوت صراخ يدوّي داخل رأسي لا أعرف مصدره. نال منّي طول التفكير حتى تورّمت عيناي، وذرفت الدموع حتى جفّت مقلتاي، وصرت مجرّد جسد ملقى على الفراش كأن لا روح فيه.

عاودتني الرّؤى مرّة أخرى: «واقفا في منتصف الكون. في النقطة الوسط منه أرخيت جسمي. كانت الساعة تشير إلى منتصف الزمان، والمكان منتصف كلّ شيء. تفكيري بين الإدراك والغفلة، ومشاعري بين محبّتي العظيمة لهذا العالم وكرهي الكبير للظّلم الذي فيه، والحالة بين الرّضا والسّخط. وجدتني أنظر إلى السّماء عاريًا من نفسي، ومتكئا على نقطة ترتفع عن العدم قليلا، أحدّق وأصيخ السّمع. كانت السماء في تلك اللحظات مقسومة شطرين، شطرا تسطع فيه الشّمس وشطرا آخر يتجلّى فيه القمر، وبينهما خيط رفيع رماديّ اللون. شطر الشمس تتدلّ فيه غيوم بيضاء وشطر القمر تتأرجح فيه النجوم. وكان جسدي يتقاسم مع هذين الشطرين ملامحهما، فأنا بين النوم واليقظة. وهناك بالضبط، عند الخيط الرماديّ الرفيع أحدّق وأصغي، فإذا بروح قديمة عتيقة تخاطبني وتقول:

-«لا تبرح مكانك حتّى تشرق الشمس.»

أستغرب فأرفع رأسي، فإذا بالشمس مشرقة. فأقول:

-«لقد أشرقت الشمس!»

فتقول لي:

-«لا.. حتى يغيب القمر.» وتضيف: «لا تبرح مكانك حتى يطلع القمر.»

فأرفع رأسي وأنظر إلى السماء، فإذا بالقمر ظاهر. فأقول للروح:

-«لقد طلع القمر!»

فتجيب:

-«حتّى تغيب الشمس.»

فأقول لها:

-«ويحك!»

فتقول:

-«ويلك.. إنّك عالق فتخلّص.»

أنحني برأسي مذعورا أفتّش عن ذلك الخيط الرمادي، أمسكه ثمّ أسحبه، فيختلط القمر بالشمس والنجوم بالغيوم، فيسقط مطر رماديّ اللون، وفي بضع لحظات يصبح العدم عالما أرضيّا وأجدني عاريًا من أسئلتي وحيرتي، وعلى لساني مذاق جميل، إنّه طعم من ظفر بشيء من الحقيقة.

أمعن النظر أمامي وقد استحال كلّ شيء ضبابيّا، فإذا بنفق طويل مظلم يسطع في آخره نور باهر، ووراءه تبرز أطياف كثيرة. أحاول الاقتراب، فأسمع صوت حبيبتي ليندا. فجأة، يصدر من الأفق نور عظيم يحجب الرؤية عن عيني، لكنّني أحاول رغم ذلك تبيّنه. كان هناك، وشعرت به يراقبني ويبسم لي.

استيقظت من نومي أردّد بصوت مرتفع: «ظفرتُ بك.. ظفرتُ بك..»

(4)

كان آندري يحمل سكّينا وقطعة لحم مقدّد في يده. ظلّ يقطع شرائح صغيرة ويضعها في فمه، وأخذ يلوكها بعصبيّة كأنّه ممتعض من أمر مّا. سمع صوت قرع على الباب، فانطلق ليرى من الطارق، فتفاجأ بشخص يقف قبالته، على وجهه ترتسم ابتسامة خالية من أيّ لؤم. كان يوجين واقفا بالخارج منتظرا أن يسمح له بالدخول. بدا آندري متضايقا من هذه الزيارة غير المتوقّعة، لكنّه سرعان ما فسح له المجال، فدلف يوجين للداخل.

لم يكن يوجين، حين تشاور مع ديميتري بشأن هذه الزيارة، مباليا بردّة فعل آندري، لأنّه عقد العزم على إثارة مسألة قد شغلت باله وتفكيره. ولهذا السبب بالذات، بدا واثقا من نفسه، غير عابئ بالأخطار التي قد تنجرّ عن سوء الفهم أو التسرّع. لم يشأ أن يطيل المقدّمات أو حتّى أن يمهّد لما يريد قوله، بل فاجأ آندري قائلا:

-«أظنّ أنّ الوقت قد حان لتخبر غريبا مثلي عن كلّ ما يثير خوفك وقلقك. شخص مثلك لا يمكن أن يكون لامباليا إلى هذه الدرجة، فأنت تدرك جيّدا خطورة الوضع.»

-«ما الذي تقصده بكلامك هذا؟» تابع آندري يوجين بنظراته، محاولا معرفة ما يرمي إليه.

-«أظنّك لا تمانع زيارتي لك، وإن كان الأمر كذلك، دعنا

نتحدّث كرجلين لا يكنّان أيّ ضغائن أو أحكام مسبقة، فما جئت إلاّ بداعي الصداقة، وأرجو أن تصغي إليّ وتسمعني.»

-«تفضّل قل ما عندك.»

-«أعتقد أنّك لا تثق فيّ، وهذا أمر مفهوم، فأنا غريب عن القرية ولا تعرف عنّي شيئا. لكنّني أريدك أن تعلم أنّنا متشابهان.»

عقد آندري حاجبيه، فيما وضع قطعة أخرى من اللحم المقدّد في فمه، وجعل يلوكها، ثمّ قال بفتور واضح:

-«عن أيّ أمر تتحدّث؟ ادخل صلب الموضوع.»

-«حسنا.. لقد علمت بأنّك الشخص الوحيد الذي يمكنني التحدّث معه بشأن ما يحدث في القرية، لأنّ الجميع يعتبرونك بمثابة قائد لهم، ثمّ إنّهم يطيعونك.. أخبرني ديميتري بهذا، وقد جئتك كي نتكلّم سويّا، ولكي نصير صديقين.»

لم يخطر ببال آندري أن يتطرّق يوجين إلى مثل هذا الموضوع، وقد استغرب جرأته وإقدامه لخوض مثل هذا الحوار معه، فقال بفضول:

-«أكمل.. إنّني منصت إليك.»

سحب يوجين كرسيّا وجلس، دون أن يشيح بنظره عن آندري وقال:

-«لقد كان لديّ في الماضي حياة وعائلة وأهل وحبيبة. لكنّ القدر شاء أن أفقدهم كلّهم، ولذلك هاجرت تاركا ورائي كلّ شيء، ومن ذلك اليوم وأنا هائم في كلّ أرض. لم أجد طعم السكينة إلاّ حين قادتني الطريق إلى قريتكم.»

قال آندري ساخرا:

-«أنت محظوظ جدّا، فلقد تمكنت من ترك المكان الذي لك

فيه ذكريات سيّئة. نحن لم نحظ بهذا الخيار، لذلك فنحن لسنا متشابهين.»

-«أعلم أنّك حاقد وقد سئمت هذا الوضع..»

قاطعه آندري غاضبا:

-«يبدو أنّك قد سمعت قصّتنا، لكنّك رغم ذلك لا تفهم! لست حاقدا على أحد. لقد دافعنا عن كرامتنا وكنّا نعرف أنّنا نخوض معركة خاسرة. لقد دفعنا الثمن ونحن فخورون بذلك. بعض الواجبات نقوم بها مكرهين لأنّه لا مناص من ذلك. إنّ الذي يؤلمني هو ما آلت إليه أحوالنا. أتظنّني لست مدركا للعواقب؟ كلّ أولئك الرفاق يعلمون أنّهم غارقون في الأوحال، قابعون في الحضيض، لكن ليس هناك بديل، لا خيار متاح. لم أقدر أن أكون مثاليّا وسط هذا العالم الداعر المهووس. إنّ هذا العالم الذي تزدريه كان بالنسبة إليّ الوجودَ كلّه، فأنا لم أكن أرى غيره. من السهل الحكم من خارج المعمعة. لن تعي هذا أبدا.»

صمت آندري ورمى السكّين بقوّة ناحية النافذة، فانغرست في أحد الحواف الجانبيّة. ثار غضبه فجعل يتنفّس بصعوبة، تضخّمت عينه وتورّمت، لكنّه تكلم بصوت أكثر هدوءًا عن ذي قبل. حرّك سبّابته بطريقة عشوائيّة مشيرا إلى أمر مّا.

-«حتى ديميتري الزائغ، كان يشبهنا، بالرغم من أنّه ظلّ بعيدا عنّا. كان يراقبنا في صمت، وأحيانا يلمّح لشيء مّا ويختفي لأيّام. لقد كان كالشبح بالنسبة إلينا، ونحن لم نكن نبالي بكلمات الأشباح.»

ظلّ آندري يرمقني بنظرات لم أجد لها تفسيرا ساعتها، بدا لي رجلا يملؤه القهر، ولم تكن حدّته سوى سلوك يخفي رقّة

لا متناهية. لم أكن في الحقيقة خبيرا في معالجة مثل هذه الأمور النفسيّة، لكنّني شعرت بأنّه يريد التّعافي ممّا هو فيه، كأنّه يعلم علّته ويخشاها. لقد أحسست وهو يخاطبني بنبرته تلك، وعينه الحزينة المشفقة، كمن عثر على بصيص نور في نفق طويل مظلم، مال على حائط الغرفة وأسند إليه رأسه وانخرط في بكاء عميق. بقيت أراقبه وقد عجزت عن فعل أيّ شيء.

كم شعرت بالخزي ساعتها! بقيت للحظات أراقبه وأتتبّع حركاته وخطواته المضطربة. ظلّ يضرب بلاط غرفة الجلوس بقدميه، ويلوّح بقبضة يده في الهواء. هالني حجم السّخط الذي كان يقبع في نفسه. لكنّني شعرت بسعادة غامرة لأنّه فتح لي قلبه وأخبرني بكلّ تلك الأشياء.

قال لي بعين ملؤها الدمع وصوت مختنق بالعبرات:

-«لقد تخلّى العالم عنّا. أحيانا أفكّر في الانتحار ووضع حدّ لحياتي البائسة، لكنّني لا أستطيع فعل ذلك. ليتني كنت جبانا، على الأقلّ يمكنني حينها أن أنسب أفعالي إلى طبيعتي المنهزمة، لكنّني وغد له آمال كبيرة. أتعْلم لماذا لم أقدم على ذلك إلى الآن؟»

نهضت من مكاني واقتربت منه محاولا معرفة مقصده، وقلت له:

-«ما الذي منعك؟»

مسح دموعه المنهمرة، تمالك نفسه، وقال بصوت خافت أسيف:

-«لقد وعظني جدّي ذات يوم، ببعض الكلمات التي لم أنسها، طلب منّي يومئذ أن أتذكّرها جيّدا. قال لي: «يا بنيّ، إنّ في القلب نورا لا ينطفئ أبدا، ولا ينبغي له أن يذويَ، فاعلم أنّه

باق فيك لا محالة، فلا تيأس من نفسك، ولا تيأس من الآخرين، فلهم نورهم أيضا. يمكنك أن تعوّل على ذلك دائما. يجدر بك التمسّك به حتى إن خفت، أو عندما تعصف بك الأيّام».»

تقدّم يوجين من آندري الذي بدا عليه التأثّر الشديد، فربّت على كتفه وأثنى على كلامه مصدّقا إيّاه، وقال:

-«لقد صدق. ثمّ إنّ رجلا حكيما قال لي ذات مرّة: «إنّ للنجاح سرّا مرتبطا بأمرين أساسيّين؛ أن تكون لدينا الرغبة في القيام بالأمر، وأن نقوم به بالطريقة الصحيحة».»

-«نحن لم نفكر أبدا في القيام بالأمر.»

-«إذن، يجب عليكم التفكير فيه.»

-«بعد كلّ هذه السنوات، لا يسعنا تغيير أقدارنا. حتّى وإن فكّرنا وتمكّنا من ذلك، فكيف سيستطيع أيّ منّا النّظر في وجه الآخر. نحن نقبع داخل الحضيض، من يفكّر في الخروج منه سيلقى نفسه منبوذا وحيدا، لا يقدر على التأقلم خارجه.»

-«سيكون الأمر صعبا.. لكن يجب أن تتحلّوا بالإيمان.»

علت وجه آندري ابتسامة ساخرة، وقال مستهزئا:

-«الإيمان، الربّ، الأمل، لقد تخلّى هؤلاء عنّا منذ زمن.»

-«لكن يجب فعل الصواب، ألا تشاطرني الرأي؟»

-«ليس الصواب شيئا يمكن معرفته منذ الوهلة الأولى أو الإشارة إليه بكلّ بساطة. حتّى تلك الأشياء العاديّة صارت مبهمة وغامضة، ففي هذا العالم الذي نعيش فيه، لا يوجد ما يسمّى بالمنطق لأنّ الذين يقبعون داخله فقط يمكنهم الشعور بالفرق، حتّى إنّ مجرّد قول كلمة عاديّة قد تنهك روحك وتستنفد طاقتك. إنّ المقاربة هنا مختلفة تماما، لذلك لو جلست

دهرا من الزمن تحدّث الآخرين، فلن يحرّك فيهم ذلك أيّ شيء، ليس لأنهم لا يريدون الفهم، بل لأنّ ما يطمح إليه كل فريق مختلفٌ عمّا يطمح إليه الفريق الآخر. لن ينصتوا لك إلاّ إن كان الهدف واحدا.»

أراد يوجين استغلال هذه الفكرة التي أشار إليها آندري لصالحه، فعَجِل بتوظيف سياق الحديث منتهزا هذه الفرصة:

-«لكنّك تتمتّع بوعي عالٍ، أظنّ أنّ ذلك العالم الذي وصفته لم ينل منك بعد، أظنّني لم أخطئ عندما توجّهت مباشرة للتكلّم معك، إنّك مخلّص هذه القرية.»

نهره آندري غاضبا:

-«بل أنا الشيطان الذي سيحمل على عاتقه كلّ اللوم والذنب.. وليكن ذلك، يجب أن يتحمّل أحد مّا المسؤولية في نهاية الأمر، يجب أن يكون في مكان مّا أحدٌ يحمل عن الآخرين أوزارهم. الحياة تعمل بهذه الطريقة، إنّه المتوقّع طبعا. أليس كذلك؟»

-«لكن، أليس ممكنا أن ننقذ الآخرين من أنفسهم بدل تحمّل العواقب نيابة عنهم؟ ألست تقول إنّ أحدهم يجب أن يتحمّل المسؤوليّة؟ ألا يبدو الصواب واضح المعالم؟»

حرّك آندري رأسه نافيا:

-«إنّه ليس بالشيء المتاح. لقد كان لنا ذات يوم حياة كالبشر، كان لنا منطق كمنطقهم، ومشاعر كمشاعرهم. اليوم نحن لا نملك سوى أجساد منهكة، وأفكار مظلمة حالكة، وعادات يشمئز منها الشيطان. لا يمكننا النهوض بعد أن وطئنا بأقدامنا الحضيض.»

دنا يوجين من آندري، وضع يديه على كتفيه وجعل يهزّه عاتبا:

-«أنت مخطئ يا صديقي. انظر إلى نفسك، أنت لست رجلا هشّا يمكن أن يختبئ خلف مبرّرات وهميّة كتلك، إنّ لديك وعيا كاملا بكلّ تلك الأمور، هي لم تمتلكك بعدُ، أنت حرّ، يمكنك التخفّف من جميع الأعباء الآن، أرح خاطرك. أنت لست مذنبا، تذكّر ذلك النور الذي في قلبك، إنّ الروح التي ظلّ فيها بعض النور أيّامَ الظلامِ والوحشة، ستشرق مرّة أخرى وستعثر على الطريق. يجب علينا أن نحترم المعاناة والحزن، لكن لا يليق بنا أن ننكفئ عليهما فنغرق فيهما إلى الأبد. إنّ الحياة تستمرّ، إنها تفعل ذلك دائما.»

لم يبدِ آندري أيّ مقاومة، كان جسده يهتزّ، وعينه مثبتة في عيني يوجين الذي يتكلّم بحرقة. ظلّ يفكّر في تلك الكلمات. حاول تحليل الموقف برمّته، بحث عن شبهة سخرية أو تشفٍّ يمكن أن تكون مستترة خلف كلمات يوجين، لكنّه لم يجد ما يشي بذلك فشعر بالطمأنينة وبالرغبة في البكاء.

-«لمَ تفعل هذا؟»

قال آندري بنبرة منكسرة كأنّه يكلّم نفسه. فأجابه يوجين بصوت خفيض:

-«يجب مشاركة الآخرين أوقاتهم الصعبة، فإنّ لنا أخطاءنا أيضا، ومساوئنا، وسنحتاج يوما مّا إلى معروف أو كلمة طيّبة. إنّ العالم ليس ساحة تعجّ بالملائكة، كما أنّه ليس مرتعا للشياطين. لقد انتدبت نفسي كي أغيّر شيئا في هذا العالم، لذلك لم أستطع التغاضي والقول إنّ كلّ شيء على ما يرام.»

أراد آندري قول شيء مّا لكنّه تردّد. استجمع نفسه كأن لا مناص من البوح بما في صدره:

-«لقد أدرت مع نفسي أحاديث مشابهة لهذه مئات المرّات، لقد كنت لئيما، لم أغفر لها يوما. فبأيّ حقّ تغفر أنت؟ ما سرّ نظرة العطف التي أراها في عينيك؟ كان يجب ألاّ يتورّط شخص شريف مثلك مع حثالة مثلي. غادرْ هذه البقعة البائسة، أُنج بجلدك. إنّ خطايانا معدية، غادر مادامت نفسك لم تتلوّث بعدُ. كلّ شيء هنا يبعث على السقم، أرجوك.. اذهب فقط.. ولا تعد.»

نزلت الدموع من عيني يوجين بغزارة، فقال ونار الأسى تأكل قلبه:

-«إن رحلت سأصبح وغدا لا يعوّل عليه، سأكون عبءًا ثقيلا يحلّ بالمكان الذي أنزل به، لا يمكنني الرحيل، أنا أنتمي إلى هنا، لأنّه يوجد ما يمكنني فعله.»

غمرت آندري مشاعر مختلطة، لكنّه ميّز أنّ مخاطبه لا يضمر أيّ سوء. لاح له بصيص نور خلف ذلك النفق الحالك الظلمة. اعتراه شعور بالأمان لم يشعر بمثله من قبل. كانت الدموع تنهمر من عينه، دموع حبيسة منذ سنوات تنتظر مثل هذه اللحظة.

خفتت حدّة التأثّر التي بدت على يوجين منذ قليل، وقد انتبه إلى أنّ الفرصة مواتية للقيام بالخطوة الثانية بعد أن بات متيقّنا من أنّه قادر على إدارة حوار مع آندري دون أيّ مخاوف. نمت لديه الرغبة في مبادرته بالحديث حول موضوع كان يظنّ أنه يحتاج إلى مزيد من الوقت كي يتجرّأ على مفاتحته به. ومن دون أيّ مقدّمات قال معوّلا على تأثير الصّدمة التي قد ينتج عنها ردة

فعل متجاوبة:

-«سنقوم بحفر نفق.»

تلقّى آندري الخبر الذي صدمه، بتوجّس وحيرة، وقد ارتسمت على وجهه ملامح البلاهة، إذ لم ينتظر أمرا مماثلا في أقصى توقّعاته حنكة.

-«أظنّ أنّك قد فقدت صوابك! نحن لا نفكّر في الهرب من قريتنا، ولا نريد مغادرتها. أتظنّ أنّنا لم نكن قادرين على ذلك طيلة هذه السنوات. هل قدمت إليّ من أجل فكرة مجنونة كهذه؟! ثمّ.. لمَ نحا الحديث هذا المنحى بمثل هذه السرعة؟»

جعل يوجين يتفرّس في ملامح آندري دون أن يهتزّ منه طرف، مبديا صرامة تليق بمثل ذلك الحديث.

-«أعلم أنّكم جادّون جدّا حين يتعلّق الأمر بحماية باراديسيوس. لكنّ النّفق سيكون من أجل غاية أخرى. سأطلعك عليها فقط إن وافقت على شرطين...»

ظلّ آندري يرمق صاحبه بنظرة فاحصة، كأنّه يحاور مجنونا أو مختلاّ، ثمّ سأل يستوضح الأمر:

-«أفصح يا رجل، أنت تزيد الوضع غرابة.»

أدرك يوجين أنّه مهتمّ بسماع المزيد، وأنّه سيستجيب لاقتراحه، فعجل بإخباره:

-«أوّلا يجب أن تقنع الرجال بمساعدتنا على الحفر. ثانيا يجب أن يبقى الأمر سرّا بيننا نحن الثلاثة. أنا وأنت والعمّ ديميتري. فما رأيك؟»

-«أخبرني أوّلا عن السّبب الحقيقي للقيام بهذا الأمر.»

اقترب منه وأسرّ له ببضع كلمات. لمعت عين آندري،

وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة. فوضع يديه على كتفي يوجين وقال بحماس منقطع النّظير:

-«سنقوم بذلك، لا ريب عندي، لا ريب.»

في اللحظة ذاتها كان ديميتري قد دلف إلى الداخل، إذ وجد الباب مفتوحا، وقد سمع تلك الكلمات الأخيرة. تبادل نظرات مع يوجين الذي خاطبه مباشرة كأن لا وقت لديهم لتضييعه:

-«سنحتاج دعما من خارج القرية لإتمام مهمّتنا، ويجب أن يظلّ الأمر في غاية السرّية.»

اقترب ديميتري من آندري وربّت على صدره، وابتسم قائلا:

-«نحن لم نعمل سويّة منذ أمد طويل أيّها الصديق القديم.»

شعر آندري بإحراج نتيجة تلك الظروف التي بدت حماسيّة وعاطفيّة جدّا، وقد بدا متأثّرا لأنّ هذه الأجواء ذكّرته بمجده الذي كاد ينساه. فدنا من صديقه القديم وربّت على صدره أيضا بنفس الحركة، وقال كمن يخرج كلمات قديمة لم تستعمل منذ مدّة، من أعماق ذاكرته:

-«لقد أنعشت ذاكرتي يا صديقي ديميتري بوريس.»

قال آندري ذلك وهو ينزع العصابة عن عينه، كأنّ نذرا قديما قد تحقّق. رماها بعيدا، فبدا شخصًا مختلفًا تماما، كأنّه صار يرى الحياة الآن بمنظور جديد.

كان تأثير سماع اسمه كفيلا بجعله في أحسن حالاته. لقد عنى ذلك لديميتري الكثير. ظلّ كلّ منهما واقفين مكانيهما، وقد اغرورقت أعينهما بالدموع. أرادا أن يقولا شكرا ليوجين، لكنّه عاجلهما بأن جمعهما بين ذراعيه في عناق طويل، كأنّه أب مشفق، يحمل كلّ حنان الكون.

* * *

داخل القاعة الملكيّة المبهرجة بالتماثيل والأعمدة الرخاميّة ذات النقوش البديعة، تربّع الملك إينو على عرشه، وقد وقف قبالته كبير الوزراء، يهمّ بقول أمر في غاية الخطورة:

-«إنّها الفتنة يا مولاي. إنّ صوت الغوغاء والحاقدين بات مرتفعا، لقد رصدنا بعض الحركات المتمرّدة التي تقوم بتوزيع مناشير مناهضة لسياساتكم، ولقد تزايد عدد الغارات على قوافل التموين، وسُرقت العديد من البضائع واقتُحمت المخازن. يجب إخماد هذا التمرّد في مهده قبل الانتشار والتوسّع في بقية المقاطعات.»

لم ينهض من مقامه، لكنّه زمجر متوعّدا، وقد تطاير الشرر من عينيه:

-«تبّا! وأين عيوننا التي بثثناها في المدن؟ أريد معرفة من يقود هذه المؤامرة. اللعنة على الغوغاء. ماذا يريد هؤلاء الحمقى الناكرين للجميل؟ أريد رؤوس هؤلاء المخرّبين. اقبضوا عليهم وانصبوا المشانق في الميادين ليكونوا عبرة للآخرين. يجب فرض النظام واستعادة هيبتنا بسرعة!»

بالكاد كان كبير الوزراء منتصبا في وقفته بسبب كرشه الكبيرة، وكان يلهث ويتنفّس بصعوبة، وقد أمسك بيده منديلا حريريّا ليمسح به لعابه السائل من فمه بين الفينة والأخرى.

-«إنّ القحط الذي أصاب البلاد أثقل كاهل الفلاّحين، ثمّ إنّ الضّرائب التي فرضتموها زادت من حدّة توتر الرّعاع.»

أشار الملك إينو بإصبعه بعصبيّة ناحيته دون أن يتحرّك جسده قيد أنملة من مقامه، بالرغم من أنّه بدا منتفضا بشدّة:

-«تبّا لك أيّها الوزير. ألم تكن فكرتك؟ الآن تجادلني وتلقي اللوم عليّ؟ إن لم تخمد هذه الثورة فسيكون رأسك أوّل ما أطيح به. أفهمت؟»

طأطأ كبير الوزراء رأسه، وثبّت نظراته اللئيمة في الأرض مبديا علامات الطاعة والخشية.

-«العفو يا مولاي.. سنقوم بكلّ ما يتطلّبه الأمر!»

كانت حركة التمرّد التي يقودها الجنرال أنطونيو بيرولّي تغلق الطرقات، وتمنع خروج القوافل التي تحمل المحاصيل والثّروات الواقعة في منطقة نفوذه. كانت تلك القوافل تستنفد كلّ الثروات وترسلها إلى مخازن القصر حيث يتمّ توزيعها على الأعيان والحاشية والكنيسة التي مدّت جذورها وتمكّنت من بسط نفوذها واكتسبت حلفاء ومناصرين أصحاب مناصب عليا.

اكتسب المتمرّدون تأييدا من قبل المزارعين والفقراء الذين أنهكت كاهلهم الدّيون والضرائب المفروضة منذ أشهر. وفي خضمّ تلك الأحداث بدأ الجنرال أنطونيو بيرولّي يعدّ للمرحلة الثانية من التمرّد، وأخذ يجيِّش ويستنفر الفقراء والمتضرّرين من سياسة الملك إينو والكنيسة، ودعاهم إلى الخروج للسّاحات والميادين والتوجّه للقصر من أجل المطالبة بحقوقهم والتمتّع بثرواتهم.

بدأت بعض الأصوات تعلو هنا وهناك، وقد انتشر خبر التمرّد في المدن والقرى المجاورة. لكنّ الجنود والعيون المنتشرة بين صفوف الناس شنّوا حملة اعتقالات واسعة. واقتيد العشرات للسّجون والمعتقلات. فبدأ صوت الثورة يخمد شيئا فشيئا، وخاف الناس ولزموا الحذر طيلة أيّام، ما اضطرّ الجنرال أنطونيو

بيرولّي إلى الابتعاد قليلا والاختفاء حتّى تهدأ الأوضاع وتتوقّف حملات التفتيش والبحث.

في أثناء ذلك، أمر الملك إينو بطرد العمّال وبعض الخدم الذين يعملون لديه بسبب الشّكوك المتزايدة في وجود قوّادين ومتواطئين داخل أروقة القصر. وبذلك تمّ تسريح العديد منهم، وبات كثيرون منهم لا يجدون مأوى أو حتى رغيف خبز.

* * *

-«أين سنذهب الآن؟» قالت إحدى النّسوة وهي تمسك بيد ابنتها الصغيرة.

-«نحن غير مرحّب بنا. ولن نجد أيّ مساعدة، فالجميع يعاني الفقر والخصاصة. لنذهب إلى الكنيسة، لعلّنا نحظى بالمساعدة.»

-«لا أظنّها فكرة سديدة!»

-«لنجرّب، لن نخسر شيئا.»

كنّ مجموعة من النساء اللاّتي طردن من القصر، وقد بتن من دون ملجأ أو سقف يؤويهنّ، هائمات في الطرقات بخطى متثاقلة، وصوت صراخ أطفالهنّ يملأ المكان ضجّة. جلسن أمام الكنيسة، على الأرض، في حين دلفت إلى الدّاخل إحداهنّ لملاقاة أحد القساوسة أو الرّهبان كي تطلب يد العون.

كانت القاعة فارغة، وكبير القساوسة راكع على قدميه قبالة طاولة وُضعت فوقها شموع. انتظرته حتّى فرغ من صلاته، فتقدّمت نحوه وانحنت تحيّيه. قبّلت يده، وقالت والدّموع تنهمر على خدّها:

-«لقد جئتك أيّها الأب كي تنجدنا ممّا نحن فيه!»

-«ما بك يا ابنتي؟»

-«لقد أتيت صحبة بعض النسوة اللاّئي فقدن أعمالهنّ وبتن دون مأوى، وها نحن نجوب الطرقات منذ الصّباح ولم نعثر على مكان نلجأ إليه. ومعنا أطفال صغار لا يحتملون قسوة الشتاء وأفواههم وبطونهم فارغة. لقد أنهكنا الجوع أيّها الأب.»

-«فليكن الربّ في عونكم. لا يوجد لدينا مأوى حاليّا يا ابنتي، والكنيسة لا تقوم بمثل هذه الأعمال. وليس لدينا في خزينتنا مال نقدّمه. لكنّني سأصلّي من أجلكم ولتكن مشيئة الربّ!»

غادرت المرأة الكنيسة تجرّ أذيال الخيبة، تفكّر في النسوة اللاّئي يتوقّعن خبرا يعيد إليهنّ الأمل.

-«لقد تخلّى عنّا الجميع!»

كانت الخيبة مرتسمة في وجوههنّ، وهنّ يمسكن بأيدي الأطفال ويحاولن حملهم على الصّمت والكفّ عن البكاء. كان الجوّ باردا، وقد جلسن على الأرض يحتضنّ الصغار لكي يشعروا ببعض الدفء.

في الأثناء مرّت جيمينا بالقرب من الكنيسة، فرأت هذا المنظر. هرعت إليهم وقد جلست على ركبتيها تنظر إلى إحدى الفتيات الصغيرات التي تمدّدت في حضن والدتها وقد شحب لونها، كأن لا دماء في جسدها. كانت حرارتها مرتفعة جدّا، عيناها شبه مفتوحتين، تصدر أنينا متقطّعا كأنّ روحها تفارق الحياة.

-«ربّاه! ما الذي يحدث؟ ولمَ تجلسن على الأرض هكذا؟» صرخت جيمينا وهي تتحسّس نبض الطفلة وتعاينها.

-«نحن مشرّدات، لا نجد من يستقبلنا. الجميع أدار لنا ظهره حتّى الكنيسة التي ظننّا أنّها ستعيننا على محنتنا هذه، تخلّت عنّا.

تخلّى الربّ عنّا مرّة أخرى!»

-«انهضن واتبعنني.. حالا!»

لحقت النسوة بجيمينا، وكانت آمالهنّ معلّقة على هذه المرأة الغريبة، التي أبدت تعاطفا كبيرا معهن. مرورا بالأزقّة المتلاصقة، والمطر قد بدأ يتهاطل، أخذت جيمينا تركض مسرعة والنسوة من خلفها، بعضهنّ يحملن أطفالهنّ في أحضانهنّ.

وصلوا إلى منزل في نهاية الحيّ. ففتحت الباب وراحت تصرخ مستنجدة بابنة أخيها. هرعت إليها مذعورة، وقد صدمت بذلك المشهد المفزع. كانت إحدى الفتيات الصغيرات بين يدي أمّها قد ابيضّت عيناها وسال الزّبد من فمها، تتلوّى وجسمها ينتفض ويرتعش بشدّة. راحت جيمينا تبعد بعض الطاولات والكراسي وتخرجها من قاعة الجلوس بحركة متشنّجة فزعة. جلبت عددا من السّجاجيد والأغطية وفرشتها على الأرض. كانت النسوة يراقبن حركاتها والدموع على خدودهنّ.

-«أسرعي حبيبتي، اجلبي عدّة التمريض وأحضري بعض الملابس من الدّولاب.»

-«حسنا يا عمّة.»

انتشلت جيمينا الفتاة الصغيرة من حضن أمّها ووضعتها على الفراش، وطلبت من النسوة أن يغيّرن ثيابهنّ المبتلّة بأخرى جافّة، وأخذت تمسح الماء وتجفّف شعرها. نزعت ثيابها، ولفّتها بملاءة نظيفة. ظلّت تفرك جسمها وتدفئه، ثمّ أسرعت إلى المطبخ لتصنع حساء ساخنا.

جلبت ليندا الدّواء، وأعطت جرعة للفتاة. كانت حرارة جسمها مرتفعة جدّا، وقد بدأت تدخل في حالة إغماء. لم

تتمالك الأمّ هذا المشهد، تراقب ابنتها وهي تنازع الموت وتتأوّه بصوت متقطّع. كان مشهدا يدمي القلب. ظلّت النسوة يراقبن بعضهنّ بعضا، والحيرة بادية عليهنّ. انضمّ بعضهنّ للمطبخ لمساعدة جيمينا، وراحت الأخريات يغيرن ثيابهنّ وثياب أطفالهنّ، ووضعن على أجسادهنّ المبلّلة ملاءات ومناشف وقطع قماش جافّة.

في تلك الأثناء، نزل الأطفال الذين آوتهم جيمينا في السّابق، من العليّة، حين سمعوا ضجيجا غير معهود في الطابق السفليّ. شخصت عيونهم في النسوة، ودون سابق إنذار، امتلأت الغرفة بالصراخ والبكاء والدموع. كان لقاءً غير متوقّع، شاءت الأقدار أن يلتقي الصغار بأمّهاتهم في منزل العمّة جيمينا. هناك حيث تحوّل المكان إلى مأوى لنساء قرية باراديسيوس وأطفالها.

في خضمّ ذلك، اختلطت المشاعر وعادت الذكريات. تذكّرت ليندا بكاء جورج ذلك اليوم في الكنيسة. فأسرعت نحوه وقبّلته والدموع تنهمر من عينيها وقالت وهي تحضنه:

-«اليوم تستطيع أن تكرّم أمّك يا حبيبي، سيطول عمرك وستكون لك أرض ذات يوم!»

* * *

بدأت أخبار التمرّد تنتشر في جميع المدن والقرى ولم يعد على لسان الناس سوى قصص بطولة الجنرال أنطونيو بيرولّي وعصبة الرجال الذين معه. لكن ظلّ الجميع على خشية من التحدّث عن ذلك في الملأ. تتردّد الأخبار هنا وهناك في البيوت المغلقة وفي المجالس السريّة، خشية الجواسيس والقوّادين الذين انتشروا في كلّ مكان وأصبحوا يتقاضون أجورا على جلب المعلومات

وتقديم الخونة والمتواطئين.

امتلأت السّجون بأعداد كبيرة من السجناء، أولئك الذين كان ذنبهم مجرّد ذكر اسم قادة التمرّد على ألسنتهم. وكان الجواسيس يُزرعون بين صفوف العامّة فيندسّون بينهم ليُثيروا حماس البعض من المتحمّسين، فيقع المندفعون منهم والسّذّج في تلك الشّراك، فيكون مآلهم القبض عليهم والزجّ بهم في المعتقلات.

داخل المتجر، جلس ديميتري قبالة البائع الذي يعرفه منذ سنوات طويلة. كان صاحب المتجر ثملا، ويثرثر:

-«أظنّ أنّ أولئك الحمقى اختاروا الوقت الخاطئ.. كي يقوموا بتلك.. المجازفة..»

-«ماذا تقصد؟ لقد بدأت تهذي كعادتك.. تأخّر الوقت ويجب عليّ المغادرة. أخبر عاملك أن يضع الحاجيّات في العربة. يجب أن أعود إلى القرية قبل أن يحلّ الظلام.»

-«التمرّد.. لا بدّ من أنّ أولئك الرّجال.. مجانين.. أحسدهم على ذلك.»

-«عن أيّ تمرّد تتحدّث؟ أراك أسرفت في الشراب يا صديقي!»

-«لا عليك.. الأفضل لك.. ألاّ تعرف هذا.. الأمر..»

-«لا بدّ من أنّك نقلت عدوى الثرثرة إلى جميع عمّالك. لقد سبقك العامل بسرد تلك الرواية. أراك في المرّة القادمة.»

استشاط صاحب المتجر غضبا، لكنه سرعان ما هدأ، وأطلق ضحكة ساخرة:

-«العامل الوغد.. أفسد عليّ.. متعتي الوحيدة التي أجيدها.»

تمادى في الضحك وعاد يصبّ مزيدا من الخمر.

-«أنت لا تتغيّر يا صديقي.»

عاد ديميتري إلى القرية حاملا معه الأخبار التي استحوذت على اهتمام الناس. جلس إلى يوجين وآندري، وقصّ عليهم تلك الأحداث. فلمعت في عيني يوجين فكرة. التفت صوب آندري ونظر إليه كأنّه ظفر بشيء مّا:

-«ستكون هذه حجّتك عند الرجال لتقنعهم بالمشاركة.»

هزّ آندري كتفيه وتساءل:

-«كيف ذلك؟»

-«ستخبرهم عن التمرّد الذي حدث، وأنّه يجب حفر نفق لنتمكّن من مساعدة الثوّار في حال استنجدوا بنا وطلبوا ملجأ آمنا للاختباء.. هم لم ينسوا ثأرهم وآلامهم.. أظنّ أنّه سيكون دافعا قويّا ومقنعا لهم. ما رأيك؟»

-«اللعنة.. لم أظنّك بهذا الخبث!»

قهقه آندري بصوت عالٍ، ساخرًا، وهو يضرب على كتف يوجين.

-«ألم أقل لك سابقا، إذا أردت أن تقوم بأمر مّا يجب أن ترغب في ذلك بشدّة وأن تقوم به بالطريقة المثلى!»

ابتسم ديميتري وهو يربّت على كتف يوجين:

-«أنت مليء بالمفاجآت يا بنيّ. وهو لأمر رائع جدّا!»

* * *

كان القرويون يتهامسون، ويتبادلون كلمات غير واضحة في ما بينهم. قال أحدهم لرفيقه:

-«انظر، لقد نزع آندري العصابة عن عينه، إنّها المرّة الأولى

التي أراه بهذه الهيئة منذ معركة باراديسيوس، حتى إنّني ظننت أنّها عين مصابة.»

غمغم الرجل وكان يبدو غير متّفق مع رفيقه:

-«أحقّا لا تعرف معنى ذلك؟»

-«وهل لحركة كتلك معنى معيّن؟ قل أيّها المتحذلق، ما الحكاية!»

-«لقد أخبرني ياكوبوس ذات مرّة، أنّ آندري قد وضع تلك العصابة لأنّ الحياة لا تستحق أن ينظر إليها بعينيه الاثنتين، فعينٌ واحدة ترى أكثر ممّا ينبغي. لقد هزّه موت زوجته الحامل، واختفى الجانب المضيء من حياته، لعله كان ينتقم من القدر. لِمَ يُمنح المرء كلّ تلك الهبات ولِمَ يتعلّق بها، ولِمَ تُنتزع منه أصلا؟

-«يا للسخافة، إن كانت نظريّتك صحيحة فالأحرى ألاّ ينزع عصابته، فما الذي تغيّر؟»

أقبل آندري يمشي بخطوات واثقة. حيّا رفاقه وجعل ينقل نظراته بينهم كأنّه يراهم بطريقة جديدة، أو كما كان يراهم منذ زمن بعيد. وقال بحماس منقطع النظير:

-«سنحفر نفقا أيّها الرّجال!»

رمق الرجال بعضهم بعضا وعلامة الحيرة بادية جليًّا على وجوههم. اقترب منه ياكوبوس وهو يتساءل:

-«ماذا تقول يا رجل؟ وما حاجتنا إلى حفر نفق! هل تنوي الهرب من القرية أم ماذا؟ أفصح عمّا يجول في ذهنك.»

-«سنقوم بذلك لأنّه بلغتني بعض الأخبار التي قد تسرّكم كثيرا.»

-«ما الأخبار؟» قال ياكوبوس وهو يهزّ كتفيه متسائلا.

-«قولوا لي أوّلا.. ماذا يمكن أن تفعلوا إن علمتم أنّ ثورة اندلعت في البلاد؟»

نظر الرجال بعضهم إلى بعض. لم يعوا قصد آندري من ذلك، لكنّ أحدهم قال في حزم:

-«لو أعلم أنّ الشيطان يقود ثورة لعينة، لشاركته ذلك المجد دون أيّ تردّد.»

-«حسنا إذن.. لتعلموا أنّ تمرّدا قد اندلع في أرجاء البلاد. ولعلّ المتمرّدين يلجؤون إلينا للاختباء إذا اضطرّوا إلى ذلك. فهل نساعدهم أم نغضّ الطّرف عمّا يحصل من حولنا؟»

اقترب ياكوبوس من آندري وقال بكلّ ثقة:

-«أظنّه حان الوقت للتنفيس عن بعض الغضب يا صديقي.»

علت وجه آندري ابتسامة ساخرة وقال:

-«لم يخب ظنّي فيكم للحظة. أعدّوا العدّة واجمعوا كلّ الأدوات التي سنحتاج إليها، سنبدأ بحفر النفق وسنرى أيّ الأماكن تصلح لذلك، صبيحة الغد.»

جعل أحد الرجال يتمتم بصوت هامس عاقدا حاجبيه. صمت قليلا ثمّ قال:

-«هل يستحقّ الأمر عناء القيام به؟»

رفع آندري قبضته عاليا وقال واثقا:

-«سترون قريبا، أنّ الأمر يستحقّ كل العناء!»

* * *

في ليلة ظلماء شديدة البرودة، داخل قبو منزل بإحدى أحياء المدينة، حول موقد تتطاير منه الشرارات، اجتمع ثلاثة أنفار

يتبادلون حديثا أشبه بالهمس. طغت عليه السريّة والحذر. كان أحدهم شيخا طاعنا في السنّ، ذو شعر قصير أشيب، تبدو ملامحه وقورة، وكان يضع تحت إبطه عصا قصيرة ذات مقبض على شكل تاج، فضّي اللون. يدعى هذا الشيخ ماركو بيروسي، وهو كاهن منشقّ عن السلطة، تضامن مع حركة التمرّد، وجعل يدير النقاشات ودراسة الخطط. قال الكاهن وهو ينقل بصره بين جليسيه:

-«يجب أن تبلغ الاحتجاجات الميادين والسّاحات المتاخمة للقصر. هناك فقط يمكننا إجبار الملك على الإنصات لمطالبنا، وسنفرض شروطنا غصبا عنه. إنّ الوضع خطير، لكنّ السكوت يشكل تهديدا أكبر.»

ظلّ ويلسن وهو كاتب شابّ، يقلّب فكرة مّا في ذهنه، قال بلهجة تنمّ عن حذر وخشية:

-«لكن لا يمكننا بلوغ ذلك من دون أن تكشف تحرّكاتنا. صارت هناك مكافآت تمنح لمن يقدّم المعلومات، والجواسيس في كلّ مكان. يجب أن نتحرّى الحذر أو ذهبت جهودنا وآمال الناس هدرا.»

كان الكاهن ماركو بيروسي موافقا تماما، لكنّه لم يحبّذ كونه مندفعا، بينما يبالغ الشابّ في التردّد والحرص.

-«أعلم أنّنا مقبلون على مجازفة خطيرة، لكن يجب أن نتحرّك في أقرب وقت. إنّني أعوّل على مساندة الجماهير، وأرجو ألاّ يتقاعسوا، فهذه الفرصة قد لا تتكرّر ثانية. سنبثّ نحن أيضا العيون حول القصر وداخل الكنائس والأسواق، وسنستطلع الأخبار. آمل أن نجد مناصرين مستعدّين للتضحية.»

-«لقد ضاق الناس ذرعا بتلك السياسات القذرة. اللّعنة عليهم، لم يتركوا أحدا إلاّ وابتزّوه وأخذوا ماله، حتّى الشباب الذين عوّلوا على أنفسهم وأقاموا مشاريعهم الصغرى، أثقلوا كاهلهم بالضرائب والمضايقات. إنّها سلطة لعينة.»

تخلّى الرجل الثالث عن صمته، وقد بدا محتقنا وغاضبا، أخذ يلوّح بمسدّسه والغيظ يميّزه.

-«تبّا لهم.. أذكر أنّ عمّال القصر كانوا يأتون إلى البلدة في المواسم، مدجّجين بالسلاح. كانوا يأخذون المواشي ومحاصيل العنب والقمح، ومن لا يجدون عنده شيئا يهدّدونه بافتكاك أرضه أو بيته، ويمهلونه بضعة أيّام كي يدفع حصّته، أو يجد نفسه في السّجن أو مرميّا في الشوارع.»

كان ويلسن يذرع المكان جيئة وذهابا إلى أن استوقفه ماركوس، الذي قال بهدوء يشوبه السخط والحنق.

-«من أجل كلّ هذا، يجب علينا أن نتحمّل المسؤوليّة، سنغامر وسنخاطر بأنفسنا إن لزم الأمر. من حقّ هذا الشعب المسكين أن ينعم بخيراته وثرواته. إنّهم يستنزفون مقدّراته كأنّهم وحدهم من يمتلكون الحقّ في الحياة. إنّ الصّمت في مثل هذه الأيّام الصّعبة الحالكة، ذلّ وعار.»

عضّ الجنرال أنطونيو بيرولّي على شفتيه، وقد احتقن وجهه واستشاط غضبا، وقال:

-«هل رأيت يوما أقبح من هؤلاء؟ لقد استأثروا بكل حميد يانع، ووضعوا أيديهم على كلّ مورد محتمل للثروة، لقد وضعوا أعينهم على كلّ شيء وأرادوه لأنفسهم.»

-«لم أرَ يوما، أقبح من هؤلاء ولا أظنّني سأرى، أرجو أن

أرى الطغاة يوما مّا، معلّقين على المشانق، فالسّجون ليست بالمكان المناسب لهم.» قال ويلسن بغيض شديد.

-«أظنّ أن الجميع يعرف وظيفته جيّدا، ويعي ما قد تشهده هذه الأمّة في قادم الأيّام. إن كان هناك خلاص لشعبنا، فإنّي أرجو أن أشهد زمن ذاك الخلاص. قد يكتب بضعة أفراد بسطاء مغمورين تاريخا مليئا بالبطولة والمجد، وهذا ما يجعل المشاركة شيئا عظيما. لا أحد يتوقّع من الناس البسطاء القيام بالبطولات، وهذا مصدر قوّة هذه القضيّة المقدّسة.»

أطرق الكاهن يفكر في أمر مّا، ثمّ أردف:

-«البطولة الحقيقيّة أن نحقّق الأهداف بأقلّ قدر ممكن من الخسائر، لذا لن نحمل السّلاح.»

أنصت الجنرال أنطونيو بيرولّي لهذا الرأي بانتباه شديد، بينما ظل ماركوس ينتظر ردّة فعل رفيقيه. وحين طال صمتهما واستغراقهما في التفكير، أضاف بلهجة صارمة:

-«يجب ألاّ يظلّ التمرّد منحصرا في مكان واحد، وإلاّ ستزداد نسبة فشلنا، يجب العمل على نشره في كلّ مكان. أظنّ أنّ عدد المناصرين سيزداد. الناس صامتون لأنّهم خائفون، لكن إن وجدوا من يضحّي من أجلهم فسيخرجون عن صمتهم وسيتحرّكون. كلّ ما يلزم هو إشعال شرارة التمرّد، وبعد ذلك سينتشر الحريق، حينها سيكون حاجز الخوف قد اخترق. وعندئذ لن يتوقّف المظلومون عن المطالبة بحريّتهم وحقوقهم. لن يقف شيء في وجههم، صدقوني، أنا أعرف ذلك.»

ساد الصّمت لبضع دقائق، وراح الجنرال أنطونيو بيرولّي يجوب المكان جيئة وذهابا، واضعا يده على خدّه. نظر إلى مسدّسه

الذي وضعه في حزام يلفّ خصره، وأمعن النظر فيه مطوّلا. راح يبتسم مخاطبا إيّاه:

-«أظنّك لن تلعب أيّ دور في هذه المعركة يا صديقي.»

نظر صوب الكاهن ماركو بيروسي ورفيقه ويلسن، وأضاف:

-«سيكون من دواعي سروري العمل معكما هذه المرّة، فلربّما لا تسنح لنا فرصة أخرى.»

أشعل سيجارا وراح ينفث دخانه في المكان، وعينه تتأمّل رفيقيه. كان يدرك أنّ ما يقدمون عليه أمر مغاير عن كلّ ما خبروه من قبل. كانت النتائج غير محسومة حينئذ، فلا يدرون ما يمكن أن يخفي هذا النوع من التحرّكات من مفاجآت وأحداث غير محسوبة.

غادر الرجلان منزل الكاهن، وقد وضعا أقنعة تخفي ملامحهما، وأسرعا الخطوات، مستترين بظلام الليل.

* * *

صباح جديد أقبل على قرية باراديسيوس، وأطلّ بأشعته الذهبيّة الخجولة التي تتسلّل من وراء الغيوم. اجتمع الرجال على غير عادتهم في مثل هذا الوقت. تجمّعوا خارج الحانة، وقد لاح على وجوههم شيء جديد غريب، كأنّهم ازدادوا صلابة ورجولة، حاملين فؤوسهم بأيديهم، وقد ارتدوا سراويل وأحذية جلديّة ومعاطف خشنة يكسوها الوبر مصنوعة من فراء الدببة والوحوش.

جلس آندري على برميل خشبي فارغ، وقد اتكأ بمرفقه على عصا فأسه الخشبيّة. ظلّ يراقب جماعته في صمت وعيناه تجولان في المكان. وجعل يرسم بعض الخطوط فوق التراب النديّ،

ويحدث دوائر ومستطيلات كأنّها ممرّات.

التحق يوجين بهم وألقى التحيّة. ظلّ الرجال يرمقونه بنظرات مستنكرة متعجّبة. وتعالت بعض الأصوات الحانقة، فقاطعهم آندري بلهجة صارمة ليضع حدّا لهذا التوتّر:

-«سيكون يوجين رفيقنا في مهمتنا هذه. هي فكرته وهو من بادر بعرضها عليّ. فهل سنتراجع الآن لأنّ الرّجل غير مرحّب به؟ أو نعمل سويّا عمل الفريق؟»

اقترب ياكوبوس من آندري وهمس في أذنه:

-«لو استشرتنا وأعلمتنا بهذا لاعتبرنا أنفسنا فريقا جيّدا، لكن أظنّك لم تعبأ بنا.. أليس كذلك؟»

-«دعك الآن من هذا يا صديقي..»

نهض آندري من مكانه. وضع ساعده فوق كتف ياكوبوس وقال له:

-«أمامنا أمور أهمّ من هذه التفاصيل الصغيرة الهامشيّة لنقوم بها. ألا تشاطرني الرأي؟»

رمقه ياكوبوس بنظرات عاتبة:

-«حسنا.. حسنا.. سنقوم بالأمر على طريقتك.. لكن لا تخفي عنّي تلك التفاصيل الصغيرة الهامشيّة مرّة أخرى.»

ابتسم آندري، وحمل فأسه بيده، وراح يلوّح بها في الهواء، فتقدّم الجميع بخطى ثابتة واثقة. لقد كان رغم كلّ شيء قائدا بحقّ. جاب الرجال أنحاء القرية في محاولة لاختيار مكان ملائم لبدء حفر النفق، إذ من الضروري اختيار مكان بعيد عن نقاط انتشار الحرّاس خارج الأسوار. ولم يكن الاختيار صعبا، فالمسافة بين السّور والنهر والغابة قصيرة جدّا، إذ يوفّر

النهر فرصة للهرب إذا خُبّئَ قارب على مقربة منه، ولن يكون للحرّاس أفضليّة عليهم أو قدرة على اللحاق بهم، ثمّ إنّ الغابة توفّر ملاذا آمنا ومخبأً جيّدا نظرا لكبرها ولوجود خبير بطرقاتها السريّة وكهوفها ومخابئها، وهو ديميتري الذي قضّى ربع عمره في العمل فيها.

اتّفق الجميع على مكان الحفر. فأحضرت المعدّات من دلاء وعربات وحبال ورفوش ومعاول، وغيرها من الأدوات الأخرى. رسم يوجين مخطّطا للنّفق بعد أن حصل على أبعاده ودرس المسافات التي تبعد بين مكان الحفر -وهو القبو الموجود في منزل آندري- والصخرة الكبيرة القابعة بالقرب من النهر، المحاطة ببعض الأشجار، إذ كان مكانا مثاليا جدّا مسترا عن الأعين. ولأنّ المدينة والطرق المؤدّية إليها كانت في اتّجاه الشمال، تمّ اختيار موقع الحفر واتّجاه خطّ سيره جنوبا، بعيدا عن الأنظار، تجنّبا لأيّ مغامرة خطرة.

-«كم سيستغرق منّا الأمر كي ننهي الحفر؟» قال ياكوبوس وهو يفحص التربة الطريّة بيديه العاريتين.

-«سنتناوب على العمل. ديميتري لن يشارك في الحفر، إذ سيهتمّ باستطلاع الأمور في المدينة ليمدّنا بالأخبار والمعلومات، وبذلك سنكون خمسة عشر رجلا، سننقسم إلى ثلاث مجموعات. كلّ مجموعة مكوّنة من خمسة أنفار، أربعة يقومون بأعمال الحفر، وواحد يعدّ الطعام ويمدّ العون لمن أصابه الإرهاق والتعب.»

-«ستكون المساحة ضيّقة جدّا للتحرك داخلها.»

-«نعم، ولذلك سيكون العمل في البداية جماعيّا إلى أن يسهل بعدها الحفر فننقسم إلى المجموعات المتّفق عليها. سيقوم رجلان

بالحفر، واثنان آخران سيهتمّان بإخراج التراب وتكديسه، وآخرون يعبّئونه في الدلاء ويخرجونه، لوضعه في العربة، ثم نقله ورميه بعيدا في أحد المكبّات.. حسنا.. سيترأّس المجموعة الأولى يوجين وسأكون برفقته، والمجموعة الثانية ياكوبوس، والثالثة ماكسيم. سنبدأ العمل حالا.»

أخذ يوجين حفنة من التراب بين قبضته، وفركها وقرّبها من أنفه. كانت طريّة ومبلّلة ذات رائحة طيبة. أشار للتراب بفأسه الطويلة الحادّة، وقال:

-«أظنّ أنّ التراب في هذه المنطقة متشابه، إن حالفنا الحظّ فسننهي الحفر في غضون عشرة أيّام، لكن، هناك أمر واحد يقلقني.»

قال آندري بنبرة متوجّسة:

-«ما الذي يقلقك؟»

-«يبدو أنّنا سنواجه صعوبة في الحفر تحت أساسات السور. سيكون علينا الحفر عميقا لعدّة أمتار، وسيستغرق منّا ذلك وقتا إضافيّا.»

اقترب آندري من يوجين ووضع يده على كتفه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، وقال متفاخرا:

-«من حسن حظّكم أنّني أتمتّع بذاكرة جيّدة!»

أطلق ضحكات صاخبة جعلت الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض مستغربين، مستغرقين في نوبة هستيريّة ساخرة. أمسك آندري بالمخطط الذي رسمه يوجين واتّجه صوب السّور. اقترب منه، ووضع عليه علامة بقطعة فحم التقطها من الأرض.

-«هنا، كان يقبع الباب الجنوبيّ للقرية، إبّان المعارك تمّ إغلاقه

وبني هذا الجدار. وكما ترون، لن يشكّل ذلك عائقا أبدا، سنلتزم بالمسار المحدّد وبالعمق الذي اعتمدته يا صديقي، فما رأيك؟»

رمق يوجين صاحبه بنظرة إعجاب وقال:

-«إنك مليء بالمفاجآت يا صديقي.»

-«أوَليس أمرا رائعا؟»

-«بلى.. أنت تستحقّ لقب القائد حقّا!»

* * *

كان فرانكو أحد أعضاء الفرقة التي يشرف عليها ماكسيم، وهو شخص ثرثار كثير التململ، لا يفوّت فرصة للسخرية أو الامتعاض. أخذ يتحرّك كأنّه على ركح مسرح، رفع يده عاليا وبنبرة أسيفة مصطنعة، قال:

-«الحظّ قاس، والحياة أقسى منه بكثير. لماذا كلّما كان الواقع مريرا وسيئا جدّا، وُجد الأوغاد بكثرة، كأنّ كلّ السيّئين والأشرار في الكون اتّفقوا على أن يوجدوا في مكان واحد. ما احتمال أن تكون جزءا من هذا الوضع العجيب؟ ملك شرّير ورجال دين فاسدون، قوّادون في كلّ مكان، غرباء يتدخّلون في شؤونك، وعصبة مخنّثين ظننّا قائدهم أعور العين، لكنّه كان يستغفلنا طيلة سنوات. ما هذا العرض الساخر، لم يبق سوى انضمام الشّيطان ليكتمل فريق الجحيم المثالي.»

انحنى بحركة مسرحيّة وحيّى رفاقه وعلى وجهه ابتسامة عريضة. توقّف الرجال عن الحفر وقد غطّت وجوههم الأتربة المبلّلة بالعرق، وعلا صوت ضحكاتهم المجنونة. جلس ماكسيم على الأرض متّكئا على جدار النفق الترابيّ البارد، يتابع عناصر مجموعته التي استلمت نيابة عملها منذ ساعتين، في محاولة لحمل

الرجال على بعض من الصّرامة والهدوء، وقال:

-«نحن أوغاد شرفاء، نؤذي أنفسنا وندفع بأرواحنا إلى الحضيض، لكنّنا مسالمون لا نؤذي الآخرين، أمّا أصواتكم التي ترفعونها فقد تلفت الانتباه. لا تقدّموا فرصة للجحيم كي لا ينضمّ إليكم.»

قال فرانكو متململا:

-«لعلّ الجحيم قد أعجبته رفقتنا، أتظنّون حقّا أنّنا طيلة تلك السنوات كنّا خارجه؟! انظروا إلى أنفسكم.. هذه القرية.. تلك الأسوار.. هذه الحياة.. أوّاه.. رأسي صار ككرة جهنّميّة أحملها بين كتفيّ، وذاكرتي اللعينة كبرميل زيت، شغلها الوحيد تذكية النيران وافتعال الحرائق. اللعنة!»

أمسكه ماكسيم من ياقته ودفعه ناحية الجدار:

-«أنت تهتمّ كثيرا، وتشغل تفكيرك بأمور عديدة، لذلك ستبقى دائما تعيسا، تعيش هموم أزمنة مضت.. لا تنصتوا لهذا الغراب الناعق، وواصلوا العمل. هيّا..»

ظلّ فرانكو يرمق ماكسيم بنظرات حانقة، لكنّه سرعان ما هدأ ورجع إلى عادته في المجاملة والمزاح. قال ساخرا:

-«أوّاه أيّها القائد المبجّل، لتصفح عنّي.. ربما يكون لساني سليطا ونفسي متشائمة، لكنّني لن أتوانى لحظة في تقديم أيّ مساعدة، فإن كنت عاجزا عن إنقاذ روحي، فسأتمكّن دون شكّ من منح الآخرين فرصة للنهوض.»

تغيّرت لهجته بسرعة رهيبة كأنّه شخص آخر:

-«هيّا للعمل أيّها الحمقى!»

-«حسنا يا فرانكو.. كفانا ثرثرة. تفقّد الجماعة وانظر هل

أتمّ رومل إعداد البطانة الخشبيّة. لا نريد أن يقع السّقف علينا. هيا..»

جرت عمليّة الحفر على قدم وساق، وبالرغم من أنّ الرجال لا يعرفون السبب الحقيقيّ وراء كلّ هذا الأمر، إلاّ أنّهم أصرّوا على إنهاء هذا الواجب الذي شعروا بكونه مهمّا جدّا. كان الثأر الوهمي الذي وُعدوا به دافعا كبيرا بالنسبة إليهم، هم لم ينسوا أبدا آلامهم، لم يكن متوقّعا أن يُحييَ فيهم مجرّد وعد كلّ تلك القوّة والأمل. لقد كانوا يحتاجون إلى هذا الأمل.

* * *

-«يوجين.. ما الذي فعلته؟ لم أعد أعرف هؤلاء الرجال، لقد صاروا مختلفين.»

قال ديميتري وهو يضع الشاي على النار، وقد قرّب يديه من الموقد كي يحظى ببعض الدفء.

-«وما الذي يسعني تقديمه يا عمّ؟ لا يمكن الحصول على النسيان دون التعرّض للألم والمعاناة. ولم يكن صعبا تغيير هذا الواقع. كلّ واحد منا يحتاج إلى جرعة من الأمل، وذاك ما قدّمته إليهم، لم أفعل شيئا أكثر من ذلك.»

-«نعم يا بنيّ.. انظر إليهم الآن! لقد أضحى لوجودهم هدف ومعنى، لعلّ مسألة التعويض أخذت مسارها الصحيح هذه المرّة. إنّ الفكرة قادرة على تغيير الواقع، وهذا أمر يصعب إدراكه!»

تصاعد البخار من الإبريق، وانسكب قليل من الشاي فوق الجمرات فأحدثت صوتا نبّه ديميتري إلى ضرورة سكب كأسين، والتمتّع بشراب دافئ في هذا الوقت المتأخّر من الليل.

متدثّرا بغطائه، مطلاّ برأسه من تحته، مدّ يوجين يده وأخذ كأسه وبدأ يرتشف مستمتعا بهذا المذاق القويّ بنكهة بتلات الورد الأحمر المجفّفة. تراءت له بعض الرؤى والذكريات القديمة البعيدة؛ صورة منزله الواسع والأمسيات التي أضفى عليها حضور ليندا وعزفها منقطع النظير على البيانو جوّا رومنسيا مبهرا. سرح بخياله في اللقاءات الخاطفة بعيدا عن أعين الضيوف والأصدقاء، حين كانا يسرقان بعض اللحظات ليرقصا على الشرفة المطلّة على أحواض الورد الأحمر، وليتكلّما بكلمات، ومن دونها.

كانت آخر ذكرى له في تلك الأمسية، صورة ليندا العالقة في ذهنه، مازال يذكر كلّ التفاصيل؛ ثوبها الأسود الليليّ، شعرها الأسود الحريري الذي غطّت جانبا منه بغطاء مخمليّ، ابتسامتها الجميلة الخجولة، وحمرة وجنتيها المنحوتتين بعناية. دائما ما تبرز غمّازتاها حين تبتسم، ما أبهج وجهها حين تغلق عينيها وترفع رأسها بحركة لا إراديّة، فيرتفع وشاحها الحريري، لتظهر رقبتها العاجيّة. تبرز شامتها على طرف شفتها العليا، كأنّها زهرة أسطوريّة نادرة، أو نجم وحيد يسطع مع إطلالة الفجر وانبلاج الصّبح ليشكّل ظاهرة منافية لقانون الطبيعة وتصوّر المنطق. كانت تتألّق تحت ضوء البدر المطلّ على الشرفة، كأنّها تمثال من مرمر لإحدى آلهة الجمال. تخطّت روعتها بلا شكّ، أفروديت وفينوس.

شقيّ أنا يا ليندا من دونك. هل كنت تخاطبينني لمّا عزفت تلك القطعة؟ أم كنت تصفين حالتك؟ في أيّ موقف تركتك؟ لم أفهم شيئا حينها فاعذريني. كنت كمن لا يرى ولا يسمع

أيّتها الغالية النفيسة. والآن، تتردّد كلمات الموسيقى مرّة أخرى، فتدمع لها روحي وينزف لها قلبي الشقيّ البائس. أنا الآن أتجرّع مرارة وعيي المتأخّر.

ليلة سعيدة
لا قدرة لي على اختيار موعد السفر
عليّ أن أتحسس الطريق وحدي في هذه العتمة
كرفيقٍ
يصحبني ظل القمر
يعدو معي
وعلى البساط الثلجي الأبيض
أبحث عن الخطوة الموحشة
الحب يعشق الرحيل
هكذا أراد الله
ليلتك سعيدة يا حبيبتي
لم أرد أن أشوّش أحلامك
فحرصت على ألاّ تسمعي خطواتي
بهدوء، بهدوء
أغلقت الباب
كتبت على البوّابة «ليلة سعيدة»
حتّى يسعدكِ
أنّي أفكر فيكِ.[2]

بقيت ساهرا طوال الليل، أردّد «ليلة سعيدة.. ليلة سعيدة حبيبتي..» هل ستواسيني العبرات وتخفّف من حجم ازدرائي

2- نص للشاعر الألماني فيلهلم موللر (7 أكتوبر 1794 - 30 سبتمبر 1827).

لنفسي؟ لا أعلم.. هل كنت تصفين حالتي أم كنت ترشدينني إلى هذا الطريق؟ أم لعلّك تنبّأت بكلّ ذلك؟ كلّ ما أعرفه الآن أنّني أتبع نداء قلبي، ولا علم لي بما سيكون في قادم الأيّام.

* * *

جلستُ أمام البيانو أتحسّسه وأداعبه، لم أملك الجرأة على العزف، فلديّ ذكريات سعيدة معه، وفي هذا الوقت بالذات كم صرت أخشى الذكريات. السّعادة الماضية تشعرني دائما بغيابها وبالفقد. نهضت من مكاني وأسرعت إلى الخارج، لأستنشق بعض الهواء النقيّ. في الداخل كانت النّسوة يعددن بعض الطعام، وعمّتي جيمينا تشرف على إعداد الطاولات ووضع الصحون. عادت بي الذكرى إلى تلك الأمسيات القديمة، حين كنّا نجتمع صحبة أصدقائنا في غرفة الطعام، وصوت الموسيقى الهادئ ينبعث من البيانو. كنت العازفة الأمهر، أمّا يوجين فكان صاحب الصّوت الرّخيم المبهر. لطالما سحرنا باطّلاعه على مختلف الفنون وروّادها، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي يمضي معظم وقته بين الكتب والمخطوطات. كان معجبا كثيرا بالموسيقى، خاصّة تلك التي يعزفها شوبرت. أذكر أنّه ذات يوم أخبرني عن رغبته في كتابة أشعار تضاهي روعة قصائد «رحلة الشتاء» لـ«فيلهلم مولر» التي يحفظها عن ظهر قلب. لطالما أراد عيش حياة خياليّة مليئة بالمغامرة والمجازفة. لكن للأسف، حين منحته الفرصة لفعل ذلك تردّد وتراجع. لقد كتبت له الكلام بنقر أصابعي، لكن أظنّه لم يتفطّن! ترى ما الذي يفعله الآن؟ وهل تراه قرأ رسائلي؟

قطعت عمّتي حبل الذكريات الذي شدّني إلى الوراء، أطلّت

عليّ بابتسامتها التي لا تفارق أبدا وجهها. أخذت يديّ وراحت تضمّهما بحنوّ ورقّة، نظرت إليّ مطوّلا بنظرات وادعة، استغرقت بضع ثوان لم تشح بنظرها عنّي.

-«أنت تذكّرينني بنفسي يا حبيبتي. عندما كنت في مثل سنّك عُرفت بكثرة شرودي ومطاردة خيالات الماضي، حتّى أنّ جدّتك كانت تنهاني عن ذلك، وتقول إنّ ذلك غير مناسب ولا يليق بفتاة عزباء. في ذلك الوقت، اعتبرت تصرّفي متعلّقا بقصّة حبّ وبشابّ أكنّ له المشاعر. لقد كانت محقّة فلم يخفَ عنها ذلك، لكنّني لم أبح لها يوما بحقيقة الأمر، فالحبّ حين يسكن القلب، تصدر عنه إشارات غير خفيّة. وما كشف حقيقتي وقتها كشفك الآن. إنّه أمر رائع فلا تضيعيه من يديك.»

شعرت بالخجل حينئذ، وتساءلت «لأيّ درجة كانت تلك الإشارات واضحة وجليّة؟ هل للحبّ صوت وكلمات تدرك حتّى في لحظات الصّمت؟ ولو أنّ هذا الأمر صحيح، فهل سمع يوجين صوتي وكلماتي الصامتة؟ أظنّه قد فعل!»

-«ها قد عدت مجدّدا للوجوم والصّمت حبيبتي.»

لم تكن عمّتي وقتها تعلم أنّني أرسل رسائلي الصامتة مضمونة الوصول. فهل سيقرؤها هذه المرّة، حبيبي؟ تركتني مستغرقة في أحلامي وأفكاري، وراحت لضيوفها غير المرتقبين. كنّ ستّ نساء وسبعة أطفال. لم يعد البيت هادئا كما كان في السابق منذ التحاقي بهذه المدينة. لكنّه بدا مفعما بروح جديدة، فالحركة لا تهدأ والمطبخ تصدر منه روائح شهيّة لذيذة. غرفة الجلوس صارت مهيأة للنوم ليلا، ونهارا لشرب الشاي والأكل والأحاديث المختلفة. خيّم جوّ من الأنس والسلام والأمل، وبدا

واضحا جليّا في عيون النسوة وأطفالهنّ. لم أرَ من قبلُ حبّا يفوح رذاذه في الجوّ وينعش الرّوح شبيها بهذا الحبّ الرائق الأخّاذ.

الأحاديث لا تنقطع، ولكلّ امرأة حكايتها الخاصّة وذكرياتها الشخصيّة. كنّا نجلس بعد تناول وجبة الغداء لنحتسي الشاي الذي أعدّه بنفسي والذي أنقع فيه بتلات من الورد الأحمر لتضفي مذاقا ونكهة خاصّة، تماما كما كنت أحضّره من قبلُ. جلست إحدى النسوة تسرّح شعر ابنتها التي جمع بينهما القدر في منزل عمّتي، تسترجع ذكرياتها وتقصّ علينا بعض حكايتها. قالت بنبرة منكسرة حزينة:

-«لقد سلب منّي القدر كّل شيء.. بيتي وزوجي وعائلتي. ثمّ حكم عليّ بالنفي بعيدا عن مسقط رأسي، كأنّ الحرب لم تكن كافية، العشرات قتلوا وأعدموا أمام مرأى أعيننا. لقد وضعونا في العربات التي تجرّها الخيول، وكانت أعين الجنود تطاردنا وتتوعّدنا بتلك النظرات المقرفة. أهينت كرامتنا واعتدي علينا. لم أنس لحظة ليلتنا الأولى في أقبية القصر. جُرّدنا من ملابسنا وأغلقت علينا الأبواب مع ثلّة من الهمّج الملعونين.»

لم أكن خبيرة بالحياة وفصولها، لم أختبر يوما شعور المظلومين، لكنّني للمرة الأولى في حياتي أشعر بحنق كبير وازدراء لهذا العالم. بالدموع المنهمرة على خدّها أنهت السيّدة كلماتها حين طلبت منها عمتي جيمينا التوقّف خشيةً على مشاعر الصغار، لكنّها واصلت حديثها بحرقة:

-«يجب أن يعلم أبناؤنا كلّ شيء.. إن لم يكن من أجل الثأر ذات يوم، فمن أجل وطنهم الوحيد، وقد صاروا منفيّين عنه ولم يرتكبوا جرما ولا حملوا سلاحا. يجب أن نزرع فيهم إرادة العودة

لأنّ قضيّتهم عادلة. لا يمكن للمرء أن يعيش بعيدا عن أرضه وبلده. الملعونون فقط ينسون التراب. لذا، أريد أن أرى قريتي ولو من بعيد. أريد إلقاء نظرة فقد لا أملك فرصة أخرى لرؤيتها مرّة أخرى. لعلّ صوت الحنين الذي بداخلي يصمت ويهدأ.»

ضربت والدة جورج كفّيها بعضهما ببعض، وقالت بنبرة متسائلة طغى عليها صوت الحنين والأسى:

-«ما الفائدة من ذلك إن كان مقدّرا لنا البقاء مبعدين عنها؟»

وبصوت باك مليء بالشّوق والحسرة ردّت السيدة:

-«هناك صوت داخل قلبي يحثّني على الذهاب هناك. اشتقت إلى كلّ شيء؛ رائحة التراب المبلّل بقطرات المطر، رائحة الحطب المحترق داخل المدفئة، صوت الخرفان الوليدة حديثا، اجتماعاتنا في أوّل أيّام الربيع، وعزف الموسيقى في الأمسيات الصيفية... أسفي علينا. هل أدركت حجم الفقد والخسارة؟ ما نفقده تزيد قيمته حسب وقع ذكراه في أنفسنا، خاصّة إن تعلّق بأسلوب الحياة. أواّه كم هي عظيمة خسارتنا.»

-«كأنّ الأمر مضى عليه بضعة أيّام. آه من الذكريات، كم تجيد الاختباء داخلنا، لم أفكّر أبدا بهذه الطريقة من قبل. أرى الآن ما حدث بطريقة أخرى. لم تعد الخسارة متعلّقة بالأرض والأشخاص فقط.. بل تتعلّق بأسلوب الحياة أيضا!»

-«نعم، أنا مثلك.. لذلك يجب علينا إخبار صغارنا بكلّ ذلك، ليتشرّبوا طريقتنا وأسلوب حياتنا. الأجيال تتغيّر بسرعة وتنزوي وتختفي. لكن يظلّ نمط العيش والانتماء للمكان وللتقاليد متجذّرا. لم يكن الطاغية يقتل رجالنا لأنّهم أهانوه ورفضوا ابتزازه لهم، بل حارب أفكارهم وأسلوبهم المختلف

عن إملاءاته وتصوّراته التي لا تشبهنا، كانت حياتنا البسيطة المتّسمة بالحبّ والسّلام تغيظه.»

-«لقد خشي تلك الكرامة، كره استغناءنا عنه، لذلك افتعل أسباب الصّدام والحرب، كي يثبت لنفسه أنّه السّيد الذي لا ترفض أوامره.»

-«كم كنّا سذّجا حينئذ!»

-«لا.. بل كنّا أعزّة!»

-«لكنّ الحرب أذلّتنا وشرّدتنا.»

-«لا.. بل خلّدت قصص أبطالنا فتغنّى الناس ببطولاتنا.»

-«لكنّنا وحيدون بلا مأوى.»

-«نعم.. لكن في قلوب الأحرار لنا ألف دار.»

-«ضاعت أحلامنا واستحال مستقبلنا مظلما وحالكا.»

-«سيولد جيل جديد، وسيعرف بطولات أسلافه. المجد إرث كالمال والخصال!»

-«لعلّه كما قلت..»

-«هل سنرى قريتنا مجدّدا؟»

-«سنذهب قريبا.. لنلقي التحية على الأطلال القديمة كرمى للأيام الخالية!»

* * *

بينما كانا يستريحان، بعد أن ظلاّ لساعات يشتغلان بالحفر، انزوى يوجين وآندري جانبا، أرادا التحدّث بعيدا عن مسامع الجميع. وقد كان الحنق باديا على ملامح آندري إذ راح يتفوّه بكلام لم يرد أن يطّلع عليه أحد سواهما:

-«يوما بعد يوم أزداد ازدراء لنفسي، حين أتذكّر ما مررنا به وما حلّ بنا من واقع قذر.»

-«هوّن عليك يا صديقي. لكلّ رجل منّا عثراته ومساوئه، فلا تظلم نفسك. أنت رجل عظيم. الظروف قست عليكم، وهناك دائما فرصة للتغيير. وها أنت تسلك اليوم الطريق الصّحيح.»

-«أنت تقول هذا فقط كي تواسيني.»

-«على الإطلاق.. لقد علمت أنّك فقدت كلّ عائلتك في الحرب، لكن ما أجده اليوم هو أنّك أحرصنا على حفر هذا النفق، وأنت الوحيد الذي يعرف الغاية من حفره، ولن يعود عليك إتمام هذه المهمّة بأيّ نفع! هذا تصرّف نبيل وكريم. لقد فكّرت في سعادة غيرك، وهذه خصال نادرة جدّا.»

فرك آندري لحيته وفكّر في أمر ثمّ قال:

-«لقد قلت أمرا ألهمني أن أطرح عليك سؤالا..»

-«ما هو؟» تساءل يوجين.

-«إن كنت تعتبرني بتلك الصفات التي ذكرتَ، وأنا أعلم أنّني لست لائقا بمدحك، فبمَ أصفك أنت؟ وأنت الغريب عنّا ولا تعرف أحدا، بل حتّى إنّ بعضنا لم يعجبه مكوثك بيننا، ولقد كُنت مثلهم. كما أنّه لا مصلحة لك في كلّ هذا. بل تعرّض نفسك لخطر محتمل من أجلنا. فماذا أقول وبمَ أصفك؟ هل أنت ملاك؟!»

أحسست أنّ آندري يلقي دعابة، وشعرت كيف تغيّر، كأنّني أخاطب رجلا مختلفا. لم أتوقّع منه أن يتحوّل هذا التحوّل الكبير فجأة. إنّه يحمل قلبا رائعا وروحا حيّة وحرّة. لعلّه لم يتفطّن لذلك من قبل، أو لعلّ الظروف لم تسمح له من قبل كي يكتشف نفسه.

-«إنّ مهمّتنا في الحياة ليست الحكم على الناس، فمن منّا راضٍ عن نفسه؟ وهل في وسعنا بلوغ الكمال؟ إنّما نحاول مساعدتهم على ترتيب حياتهم ومواساتهم ما استطعنا. إنّ اليد التي نمدّها اليوم، ستمدّ لنا غدا. إنّ فعل ذلك قد لا يتطلّب في الحقيقة عناء كبيرا، وقد يتطلّب ذلك. لكنّنا أمام عذاب الآخر يجب ألاّ نقف متفرّجين، إنّ الرحمة الإنسانيّة أعمق شعور قد تصادفه يوما! وأنت يا صديقي، نجحت، وأدركت هذا المعنى العظيم، وإن كنت سببا لإنارة سبيلك، فأنت، قد أنرت الطريق لأولئك الرجال، وأعلم أنّك تفعل ذلك بمحبّة صادقة.»

صمت آندري كمن يتفكّر في كلّ أطوار حياته الماضية والحاضرة، ثمّ قال بصوت مرتعش:

-«لعله كما قلت..»

-«بل هي الحقيقة التي يجب أن تراها وتتحسّس وجودها.»

صمت آندري مطوّلا هذه المرّة. أخذ يحفر بسكّين صغيرة على جدار النفق الترابيّ الطريّ، جعل يخطّ خطوطا متداخلة، وبقيت أراقبه بإشفاق، شاعرا بما يمرّ به في تلك اللحظات. توقّف فجأة عن تلك الخربشة، وقال بصوت دافئ متحسّر:

-«لقد كنت أتألم وأتعذّب، لكن لم أستطع أبدا الإفصاح عن ذلك. خشيت البوح ولم أشأ فتح الجراح. كلّ يوم يمضي كنت أزداد حنقا، لكن تصوّر الفزع الذي يمكن حدوثه إن تراجعت، بعد أن توغّلنا في الفساد، مجرّد التفكير في ذلك يجعلني أصمت، دون إبداء موقف حقيقيّ من أيّ شيء. لقد كانت الفكرة دائما ممكنة حين أتخيّلها، لكنّ الواقع مخيف جدّا، إنّه بارد لا يتعاطف. لقد ادّعينا الجهل، عباقرة نحن في اللامبالاة والتزييف. الجميع

يعي ما يحصل، لكن لم نواجه بعضنا يوما. لم نكن نخجل من ذكر ذلك، بل كنّا لا نستطيع تحمّل عبارات المواساة واللوم، وبالرغم من كلّ شيء، بحت لك بكلّ ما يعتمل بصدري، فقط لأنّك غريب عنّا، لأنّه من الصّعب أن تعترف لشخص مقرّب بعيوبك. عيوبنا واضحة جليّة، لكن لا طاقة لنا بالمواجهة والحديث بصراحة. الصّراحة بمثابة قتل ذلك النور الخافت بداخلنا، الذي كنا نعوّل عليه كثيرا.»

-«وها قد أتى اليوم كي يستيقظ النور يا صديقي. أليس كذلك؟»

كان آندري قد بلغ مرحلة من التصالح مع ذاته بسبب وعيه بكلّ ما خبره طيلة السنوات الماضية، لذلك بدا هادئا كشخص تجاوز محنة عظيمة وتقبّل المآلات برحابة صدر. قال معبّرا عن حقيقة شعوره:

-«بلى.. لقد حانت ساعتنا.»

(5)

-«هيّا أسرعي كي لا يتفّطنوا لوجودنا.»

قالت ليندا مخاطبة المرأة الماشية خلفها وهي تلتفت وراءها، وقد بدت على وجهها ملامح الخوف والفرح في آن معا. ظلّتا تمشيان بحذر بين الأشجار بعيدا عن الطريق الترابيّ، حتّى لا تتعرّضا لأيّ دوريّة قريبة أو أيّ جنديّ مارّ من هناك فتلقيا المشاكل.

وقفتا تحت ظلال شجرة زيزفون باسقة الطّول، كي تأخذا قسطا من الراحة بعد أن تكبّدتا عناء المسير طيلة ساعات. جلست المرأة فوق العشب كي تستريح، وبقيت ليندا تراقب المكان وتتفحّصه، وقد أخفت وجهها بشال حريريّ لم تبرز من خلفه سوى عينيها.

كان هناك صوت يقترب، أصاخت السمع، وأطلّت من خلف الشجرة لتستطلع الأمر. وفجأة صرخ أحدهم:

-«من هناك خلف الشجرة؟»

أقبلت ليندا بحذر تجاه الرجل الذي يقود عربة محمّلة بالمؤونة وأغراض أخرى، وقالت:

-«نحن نسوة من المدينة قد أضعنا الطريق، وقد بلغ بنا الجهد، فجلسنا تحت ظلّ هذه الشجرة لنرتاح قبل مواصلة طريق

العودة.»

ظلّ الرجل يراقب المرأتين ويتفحّصهما. نزل من عربته، وجلب بعض الماء وقدّمه إليهما وهمّ بالمغادرة. تراجع عائدا إلى عربته، مشى بعض الخطوات ثمّ توقّف والتفت.

-«لكن.. أليس غريبا أن تستريحا هنا والقرية يمكن رؤيتها من هذا المكان! لعلّكما تتوسّمان أنّني أبله.. هل أتيتما لرؤية أحد مّا؟»

دنت والدة جورج من الرجل، وقد كشفت عن وجهها، واختلطت الدموع وصوت البكاء بصوتها:

-«أنا من هذه القرية يا سيّدي.. أظنّك لا تتذكّرني، لكنّني أعرفك جيّدا..»

بدت الحيرة على وجه الرجل، فاقترب من المرأة وأخذ يتفرّس في ملامحها، حتّى صار قريبا جدّا منها. أمسكها من يدها وهو ينظر في عينيها، وقد بدت ملامح التأثّر جليّة عليه. لم يدر ما يفعل، ظلّ لدقائق ممسكا بيدها وهي تذرف الدموع، كأنهما عجزا عن الحديث، وكانت ليندا واقفة غير بعيد تضع يدها على ثغرها والدموع تنهمر من عينيها.

جلس الرجل على الأرض كأنّ قدميه لم تعودا قادرتين على حمله، فجلست والدة جورج بدورها. وقالت:

-«هل عرفتني الآن، عمّ ديميتري؟»

نظر إليها بحنوّ وعطف، ويده المرتعشة تلامس وجهها كأنّها تحاول معرفة تلك الملامح المتعبة المرهقة:

-«لقد تغيّرت يا بنيّتي.. حتّى أنّني بالكاد أصدّق ما أراه.»

-«مرّت سنوات يا عمّ.. ليالي الحزن والأسى أبكت مآقينا

وخلّفت تلك التجاعيد والتعب الذي تراه.»

-«لكن.. ماذا تفعلان هنا؟ أخشى أن يتفطّن أحد الجنود أو القوّادين لوجودكما فيتسبّبوا لكما بالمشاكل.»

-«سنرحل قريبا يا عمّ. لقد جئت لأرى قريتي من بعيد، فأطفئ نيران الشوق التي شبّت في قلبي، لعلّي لن أحظى بفرصة أخرى كي أراها.»

-«لا عليك يا بنيّتي. لكن.. أين تقيمين؟»

أشارت إلى ليندا بيدها، وابتسمت ابتسامة حنوّ واعتراف بالجميل، وقالت:

-«في بيت السّيدة جيمينا خادمة الكنيسة، وهذه قريبتها قد قرّرت مرافقتي، وتحمّلت لأجلي عناء ساعات من المشي والخطر المحتمل.»

-«حسنا.. لا تغادروا مكانكم ذاك. فلعلّي أزوركم بعد أيّام. سأبحث عنكم.»

اقترب ديميتري من ليندا، وأمسكها من يدها، وقبّلها وقد لمعت في عينيه دمعة سعيدة، وقال:

-«شكرا لك يا بنيّتي.. ما فعلته بقدومك وإظهار شجاعتك يعني لنا الكثير. أبلغي السيّدة جيمينا تحيّة رجال باراديسيوس.. واكتموا الأمر لعلّنا نلتقي قريبا.»

* * *

داعبت أنف يوجين رائحة عطر الورد الأحمر، تلك الرائحة التي كانت تفوح من حديقة منزله في الأمسيات، حين يجلس في الشرفة على كرسيّه الهزّاز مستمعا إلى بعض المقطوعات الموسيقيّة

التي تعزفها ليندا على البيانو، وهو يراقبها تنقر بأصابعها على لوحة المفاتيح، ويسرح بخياله في المعزوفات التي يعرف كلماتها حرفا حرفا.

سرح بخياله في تلك الأوقات الرائعة التي كثيرا ما تجلب له الراحة والسلام والأنس، خاصّة بعدما توفّيت والدته بسبب مرض عضال لازمها طيلة السّنوات الخمس الأخيرة من عمرها. وُلد يتيما، لم يعرف والده سوى من خلال الصّور والحكايات التي كانت والدته تقصّها عليه، وعرفه أكثر من خلال المزارعين والعمّال المشتغلين في مزرعته، إذ كان كلّما ذهب لتمضية بضعة أيّام من فصل الربيع يستمع لأحاديثهم عن شبهه الشديد بوالده، وبأنّه ورث عنه خصالا كثيرة، خاصّة رغبته في تمضية أوّل أيّام الربيع في بيت المزرعة، حيث يستمتع بالمشي في الحقول الخضراء لساعات طويلة، وهوسه بالكتب والموسيقى. ولطالما أخبره المحاسب الذي يدير أعماله وهو صديق قديم لوالده، بأنّ شعره الأسود الطويل والشّامة تحت عينه اليمنى قد ورثهما منه.

عادت به الذاكرة إلى زمن بعيد في الماضي، حين عرضت عليه ليندا ذات يوم استغلال المساحة الخالية بجوار المنزل الكبير، تحديدا تحت شرفة غرفة الجلوس، لغرس الورد الأحمر. قالت له حينها، إنّ للورد الأحمر استعمالات كثيرة، فهو حسب رأيها لا يستعمل فقط للزينة، بل ولطرد الأفكار الموحشة أيضا، ولجلب الحبّ والسعادة وصرف كلّ مكروه. كانت تؤمن بذلك كلّه لأنّ أوّل لقاء جمعهما كان بالقرب من محلّ بيع الورود، حيث وقفا بجانب زاوية بيع الورد الأحمر، والتقت أعينهما للمرّة الأولى.

«ما أعظم سطوة رائحة الورد الأحمر.. تنشُّقُ القليل منه

أخذني لأبعد ما كنت أتصوّر من ذكريات جميلة.» قال يوجين في نفسه قبل أن يقاطعه ديميتري الذي أقبل على عجلة من أمره.

-«لن تصدّقا ما حصل منذ قليل..»

تبادل يوجين وآندري نظرات الحيرة وهما يقتربان منه، في حين واصل كلامه هامسا:

-«أظنّ أنّ الربّ يهيّئ الأقدار ويرتبّها على نحو سيسعدكما كثيرا.»

تسلّلت ابتسامة من شفة آندري، وحرّك يده في الفضاء كأنّه يطرد فكرة خطرت بباله، وقال:

-«توقّف الربّ عن النّظر إلى هذه الناحية منذ سنوات، فما الذي استرعى انتباهه هذه المرّة؟»

لم يعر ديميتري اهتماما لتعليق آندري، وأضاف بنبرة واثقة:

-«لعلّ الأقدار شاءت هذه المرّة أن تكون في صفّنا!»

خرج يوجين عن صمته محاولا فهم ما يريد ديميتري قوله:

-«ما الذي حصل؟ أراك أقبلت من المدينة حاملا أخبارا مهمّة، أطلِعنا عليها.»

-«حسنا.. سأخبركما. لقد التقيت على مشارف القرية أحدهم.»

صمت ديميتري قليلا، وظلّ يراقب صاحبيه، وقد بات واضحا أنّ تهكّم آندري منذ قليل، قد تحوّل انتباها وحيرة، فلم يتمالك نفسه وقال بلهجة حادّة:

-«أكمل أيّها الرجل.. لا تختبر صبري.. مَن هذا الشخص؟»

-«أراك عجِلا لمعرفة ما حدث.»

ظلّ يوجين يراقب آندري وقد تغيرت ملامح وجهه، وبدا الحنق عليه. ابتسم لديميتري الذي أراد استفزاز صاحبهما والعبث معه قليلا. وقال:

-«إنّ العمّ ديميتري يمازحك يا آندري فلا تحنق يا صديقي. أراك منزعجا قليل الصبر.»

أطلق ديميتري ضحكة ساخرة، أتبعها بنظرات متهكّمة ليغيظ آندري، فلم يتمالك يوجين نفسه وأطلق لها العنان للضحك، فما كان من صاحبهما سوى أن جلس على كرسيّ خشبيّ وراح يراقبهما بنظرات حاقدة تتوعّد بالانتقام.

-«حسنا إذن، لقد انتهيت من المزاح الآن.»

-«عليك اللّعنة أيّها الرجل.»

نظر الجميع إلى بعضهم بعضا وأطلقوا الضحكات في الفضاء كأنّهم مجانين، حتى أنّ ديميتري سقط على الأرض كطفل صغير، وراح يضرب الأرض بقدميه كأنّما أصابه مسّ شيطانيّ. ولمّا فرغوا من هستيريا الضّحك تلك، تمالكوا أعصابهم وأخذ كلّ منهم مكانه. صمتوا لحظات، ثمّ بادرهم العجوز بنبرة جادّة هذه المرّة:

-«اعلموا أنّ ما سأقوله لكم الآن قد يغيّر حياتنا، لأنّني أظنّ أنّ القدير في صفّنا هذه المرّة. لقد التقيت بامرأتين على الطريق قبل أن أصل إلى القرية، كانتا مختبئتين تراقبان المكان. كانت إحداهما مِن النسوة اللاتي نفاهنّ الملك إينو عن باراديسيوس، والأخرى فتاة من المدينة جاءت ترافقها.»

ذهل آندري ممّا سمع، فهمس قائلا:

-«أمتأكّد أنت من هويّتهما؟ لعلّهما جاسوستان أو مخبرتان

لدى السلطات.. فليس يسيرا أن تصلا إلى حدود القرية دون أن يكتشف الجنود ذلك!»

-«أنا أعرف المرأة جيّدا.. صحيح أنّها تغيّرت وتبدّلت ملامحها قليلا، لكنّني واثق من هويّتها. إنّها أرملة القائد هرماندينا!»

-«أحقّا ما تقول؟!»

-«نعم! أنا متأكّد.»

كان الخبر بمثابة هديّة أرسلها القدر. علت الوجوهَ ابتساماتُ الظفر والسعادة. نهض يوجين من كرسيّه وقال مخاطبا آندري بلهجة معاتبة:

-«الربّ لم يتخلّ عنكم يا صديقي، ها إنّ مشيئته وافقت مشيئتنا، ودبّر لنا ما كنّا نحتار في أمره. فهلاّ غيّرت رأيك وعدلت عن نظرتك المتشائمة؟!»

طأطأ آندري رأسه، واستغرق للحظات في التمعّن والتفكير، ثمّ رفع رأسه ونظر بعين حانية نادمة، وقال:

-«لعلّنا نحن من تخلّينا عن الربّ، فليغفر خطيئتنا.»

علت وجه الجميع علامات الرضا والظفر. وبنبرة متحمّسة قال يوجين:

-«صار من الضّروري أن نسارع في إنهاء النفق بسرعة، إنّي أرى الحلم يكاد يتحوّل إلى حقيقة.»

* * *

بعيدا عن الأنظار، وتحت جنح الليل، عادت ليندا ووالدة جورج إلى البيت، تتستّران عن الأعين والقوّادين. كانت رحلتهما مرهقة ومحفوفة بالمخاطر والمجازفة. وعندما دلفتا إلى المنزل،

راحت المرأة تركض وترقص، والنسوة والعمّة جيمينا يراقبنها في حيرة.

-«ما سرّ هذا الفرح أيّتها المجنونة؟» قالت إحدى النسوة.

-«لقد شفيت غليل صدري، وأطفأت نيران شوقي. أخيرا بعد كلّ تلك السنوات المريرة الطويلة، استطعت رؤية قريتي العزيزة! ولقد التقينا صدفة بالعمّ ديميتري. هل تذكرنه؟»

-«حقّا!»

-«نعم.. ولقد أخبرته أين يمكنه العثور علينا، فوعدني بزيارتنا بعد عدّة أيّام.»

بدت على وجه العمّة جيمينا علامات التوجّس والخوف، فهي لم ترد أن يعلم أيّ أحد بإقامة النسوة عندها، لكنّ ليندا طمأنتها وأزالت توجّسها. فهمست لها جيمينا:

-«لقد جازفنا يا بنيّتي من أجلهنّ. هي مغامرة لا بدّ من خوضها، لنكملْها مادامت القضيّة عادلة، ولنرجُ الأقدار اللطيفة.»

غير بعيد عن منزل العمّة جيمينا، كان المتمرّدون بقيادة الجنرال أنطونيو بيرولّي، يوزّعون مناشير مناهضة لسلطات الملك والكنيسة، ويلصقونها بالأعمدة وجدران البيوت والمحلات المغلقة. كانوا يتحرّكون بسرعة وقد وضعوا أقنعة على وجوههم، متستّرين بظلام الليل وتعكّر الطقس الذي ألجأ الناس إلى دورهم ومنازلهم. كانت المناشير الموزّعة تدعو العامّة إلى عدم الاعتراف بسلطة رجال الدّين، وإلى عدم دفع الضرائب، وتدعو أيضا إلى التجمّع الحاشد في الساحة الكبيرة أمام الكنيسة صبيحة الغد.

وقع خطوات مسرعة بين الأزقة، بعض الرجال يركضون في اتّجاهات مختلفة والجنود من خلفهم يصرخون، وصوت صفّارات تلعلع في الجوّ تخترق سكون الليل. الحمائم التي اتّخذت من الأسقف والنوافذ الشاهقة بيوتا لها، طارت بعيدا وضربت بأجنحتها بغير هدى. صوت إطلاق النار كان كثيفا وصاخبا، حتّى أنّ بعض البيوت التي كانت هادئة مطفأة أنوارها، اشتعلت فيها القناديل والشّموع، وتسمع هينمة خفيفة لبعض الخائفين يتساءلون ما الذي يحصل. فيما كانت ليندا في غرفتها مستغرقة في التفكير، وقد شرد ذهنها وجافاها النوم كعادتها كلّ ليلة. سمعت تلك الجلبة في الخارج، ثمّ انتبهت لصوت طرق على الباب. فقفزت من فراشها واتّجهت نحو الباب الخارجيّ. هناك، ألفت عمّتها تحمل بندقيّة صيد وتهمّ بفتح الباب لهذا الزائر القادم في آخر الليل.

سمعت همسا خفيفا لم تفهم فحواه، دار بين عمّتها والغريب الذي قرع بابهم في هذه الساعة المتأخرة، أصاخت سمعها محاولة فهم ما يجري لكن دون جدوى، فقرّرت أن تقترب وتكتشف بنفسها الأمر. من وراء الباب همست جيمينا سائلة الطارق:

-«من أنت؟ وما الذي تريده في هذا الوقت؟»

-«أرجوك دعيني أدخل أوّلا قبل أن يتمّ القبض عليّ، أنا من طرف القسّ ماركو بيروسي.»

زمّت جيمينا شفتيها، وفتحت الباب. لم تتبيّن لها ملامح الرجل، إذ كان يضع قناعا على وجهه، لكنّها تركته يدلف إلى الداخل. ألقت نظرة خاطفة خارج المنزل، وأقفلت الباب بسرعة. وبيدٍ واثقة، وجّهت البندقية تجاهه، وقالت بحزم:

-«من تكون؟ ولم أتيت في هذه الساعة إليّ؟ وما علاقتك بالموقّر؟»

نزع القناع عن وجهه، وأعاد مسدسه إلى حزامه دون أن ينبس بحرف واحد، ثمّ سقط على الأرض. لاحظت عمّتي أنّ الرجل ينزف وقد استقرّت رصاصة في كتفه. رمت بندقيّتها وهتفت لي لمساعدتها. حملناه بشقّ الأنفس إلى القبو، فقد كان ضخما ذا بنية قويّة. كنّا نسحبه وقدماه تضربان الأرض والبلاط الذي سرعان ما أصبح لونه أحمر قاتما لكثرة الدماء التي سالت من جسده.

وضعناه فوق طاولة خشبية قديمة كانت تتوسّط القبو بصعوبة بالغة. أسرعت عمّتي وجلبت عدّة التمريض. فاستلمتها منها وفحصتها بحثا عن بعض الأغراض، فقد تعلّمت بعض مهارات التمريض بفضل أعمال التطوّع في المستشفى المحلّي عندما بلغت سن الخامسة عشرة. نزعت عن الرجل معطفه وسترته فقد غطّتهما الدماء، ووضعت شاشا نظيفا على مكان النزيف، وطلبت من عمّتي الضغط على الجرح. جسست نبضه، وتأكّدت من تنفّسه، ثمّ جلبت ضمادات وقطع قماش نظيفة كي أضعها على جرحه، وقد كان الخوف والارتباك باديين على وجه عمّتي التي ظلّت تضغط على الجرح بقوّة.

انتهينا من تنظيف جرحه وأوقفنا النزيف، كان نبضه مستقرّا، لكنّه لم يفق بعد من غيبوبته. جلبت عمّتي دثارا وغطّته به، وطلبت منّي الذهاب إلى غرفتي. سحبت كرسيّا وأمسكت بندقيّة الصّيد بيدها، بعد أن جرّدته من مسدّسه، وظلّت طيلة الليل بجانبه حتّى يستفيق.

مرّت الليلة طويلة هادئة، وبدأت أشعّة الشمس تظهر من

وراء الغيوم المحتشدة في كبد السماء، وصوت العصافير والطيور يملأ الأرجاء. رائحة الصّبح الجديد ونسماته النقيّة المفعمة بروح هذا الطقس الشتويّ البارد تتسلّل مع الهواء عبر الأزقّة والبيوت لتصل إلى القبو عبر الشبّاك الصغير.

العمّة مازالت ماكثة مكانها لم تغادره، وقد غلبها النوم فاستسلمت لسلطانه، لكنّها لم تفلت سلاحها، كأنها جندي مرابط على حدود العدوّ. بلغَ مسامعها صوت حشرجة وتأوّه فتأهّبت، واستنفرت بحركة فجائيّة. أمسكت بندقيّتها بحذر شديد وتقدّمت نحو الرجل الذي بدأ يستعيد وعيه. محاولا النهوض من مرقده. جاهد الغريب نفسه، لكن دون جدوى. ظلّ يرمق العمّة بنظرات مرهقة كأنّه يطلب منها مساعدته على النهوض.

كنت أشاهد الرجل الجريح المستلقي فوق الطاولة بجثّته العظيمة، فبدا لي ضعيفا جدّا حينئذ، غير قادر على إيذائنا. اقتربت من عمتي، وقد جلبت بعض الطعام والشراب الساخن. وأجلسنا الرجل على الكنبة القديمة. تفقّدت جرحه، وكان ينظر إليّ بنظرات غريبة لم أفهم كنهها. بدا جرحه في حالة جيّدة. سقيته بعض الماء، وأطعمته الحساء الدافئ، وقد وضعت فيه بعض الأعشاب الطبّية كي تساعده على استرداد قوّته ونشاطه. ظلّت عمّتي تراقبني في صمت واضعة يدها على زناد البندقيّة متأهّبة لكلّ طارئ قد يحدث.

مرّت دقائق ونحن الثلاثة نرمق بعضنا بعضا بنظرات دون أن نتكلّم. عمّتي ممسكة سلاحها، وأنا غير بعيدة عنها، جالسة على كرسيّ خشبي، والغريب المصاب يتحسّس جرحه ومكان

الرصاصة. نظر إلينا وقد وقف وراح يعدّل من هيئته، نظر إلى السترة الجديدة البيضاء التي ألبسته إيّاها، وقد عثرت عليها في صندوق الثياب القديمة، وابتسم وارتدى معطفه. وبحركات من يده راح يرتّب شعره، واعتمر قبّعة سوداء. تفقّد حزامه باحثا عن شيء مّا، وحين لم يعثر عليه، نظر إلينا مبتسما وأشار إلى عمّتي التي مازالت تتبع تحرّكاته مصوّبة فوّهة بندقيّتها نحوه:

-«أعرف أنّك لن تطلقي النار عليّ سيدتي، فلو أردت ذلك لما أنقذت حياتي. إنّني ممتنّ لكما كثيرا.»

نزع قبّعته وانحنى، وحيّانا بأسلوب نبيل. أدركت حينها أنّ الرجل ليس لصّا أو مجرما. ثمّ اعتدل في وقفته وأردف:

-«هل لكما أن تكتما سرّا؟»

أجابته عمّتي بنبرة حازمة واثقة:

-«حتّى تخبرنا من أنت أوّلا؟»

حاول أن يقف شامخا رغم آلامه. نظر تجاهنا وتكلّم بنبرة جدّية فخورة:

-«أنا الجنرال أنطونيو بيرولّي، قائد الحرس الملكي المتقاعد، أو المعزول إن أردتم الدقّة. ولقد دلّني على بيتك الأب ماركو بيروسي وأخبرني أنّه يمكنني الثقة فيك واللجوء إليك إن اضطررت إلى ذلك.»

وضعت عمّتي جيمينا بندقيّتها جانبا، واتّجهت نحو زاوية القبو حيث الخزانة الكبيرة. سحبت أحد الأدراج، وأخرجت منه مسدّسا، ناولته إلى الجنرال، وطلبت منه المغادرة فورا، قبل أن يطلع النهار وتكثر الحركة، فهي تخشى دوريّات التفتيش، ولم تشأ أن تعرّض حياة النسوة وأطفالهنّ للخطر.

-«أظنّك لم تعلمي بما سيحدث اليوم؟» قال ذلك وهو يعدّل من هيئته.

أدخل يده في جيب بنطاله وأخرج ورقة وناولها إيّاها. أخذتها وبدأت تقرؤها بصوت عال، وبعين شاخصة مرتعبة:

-«سيكون لهذا اليوم شأن عظيم!»

-«نعم.. لذلك نريد حشد أكبر عدد من الناس في الساحات لمواجهة الطغاة. فهل ستأتيان؟»

أتانا صوت من وراء الباب أفزعنا، وأدخل الرّعب في قلوبنا:

-«سنذهب جميعنا. إنّه يوم الثأر الذي طالما انتظرناه!»

كانت والدة جورج تقف وراء الباب، وقد لمحت في عينيها شيئا من الثقة والعزم، لم أرَ مثلهما من قبل.

* * *

حين أطلّ الصباح وبزغت الشمس، كان الجنود قد طوّقوا الساحة الكبيرة أمام الكنيسة، متأهّبين لأيّ تحرّكات مشبوهة، فالمناشير التي وزّعت، تلقّفتها الأيدي واطّلع عليها العديد من الناس. لكنّ الحركة عاديّة في الأزقّة وأمام المحلاّت، والأجواء تبدو طبيعيّة، كأنّ أحدًا لم يعبأ بأيّ نداء للتظاهر والاحتشاد.

تهيّأت النسوة للخروج؛ وضعن الزينة على وجوههنّ، ولبسن أفضل الثياب، وتعطّرن. بدَون كمن يستعدّ للذهاب لحضور حفل أو عرس. وكنّ يحفّزن بعضهنّ بعضا، ويستذكرن ما حلّ بهنّ من عذاب وقهر وفقدٍ. أقبلت العمّة جيمينا وقد حملت لباسا نسائيّا، قدّمته إلى الجنرال أنطونيو بيرولّي، وطلبت منه ارتداءه ووضع غطاء الرأس. وبالرغم من أنّ الجوّ والأحداث تنبئ بالخطر الدّاهم المؤكّد، إلاّ أنّ النسوة ضحكن من طلب عمّتي

ونظرن إلى الجنرال نظرة خجلة.

كان من الواضح أنّ طلبا كهذا سيستفزّ رجولته ومركزه وشعوره بالاعتداد بالنفس، إلاّ أنّني تفاجأت به يأخذ الملابس بين يديه ويدقّق فينا النظر، ثمّ يشيح بوجهه بعيدا. صمت للحظات حسبناها طويلة جدّا، ثمّ التفت إلينا وقد تحدّرت دمعة من عينيه، وقال بصوت متأثّر:

-«لن يضيرني ارتداء ملابس النساء، وفي بلادي نساء مثلكنّ!»

دخل القبو ليبدّل ملابسه بكلّ فخر، وتركنا في ذهول أمام هذا الموقف المهيب. لم يكن هناك من حسّ للدعابة والسخرية لحظتها، بل شعرنا أنّنا ملكات هذا الكون، وأحسسنا بأنّنا عظيمات إلى درجةٍ لن يتمكّن أيّ شيء من النيل منّا.

انطلقنا جميعا، حتّى الأطفال أرادوا مرافقتنا، عبر الأزقة مشينا بخطى ثابتة، كنت أرى في عيون النسوة نظرات غريبة، لا أعتقد أنّني سأقدر يوما على فهمها. الجنرال متخفّ بلباس نسويّ يسير معنا وقد ترك مسدّسه في القبو ولم يشأ حمله، لقد قال قبل خروجنا، وهو يودّع مسدسه كمن يودّع صديقا قديما يحتمل عدم رؤيته لاحقا:

-«هذا وداع لا لقاء بعده أبدا يا رفيقي، لم يعد السلاح طرفا فائزا في مثل هذه الحروب.»

النسوة أيضا قبل خروجنا من المنزل، ظللن يحدّقن في بعضهنّ بعضا. حدّقن فيّ وفي عمّتي وفي أطفالهنّ مليّا. دار حديث مختلف عن سابق الأحاديث، حسبت لوهلة أنّ لهذا الصباح الجديد رونقا وسحرا خاصّا. فما سرّ هذا السّحر والسلام الذي

انتشر في الجوّ؟

أشياء أختبرها للمرة الأولى؛ ابتسامات، عطف، لمسات حانية، همسات وحركات عفويّة صدرت عن الجميع. غمرني شعور داخليّ، وصل إلى أعمق نقطة في قلبي واحتلّني، أسرني، شعرت أنّني خفيفة أو منتشية. أكاد أجزم أنّه نبتت لنا جميعا أجنحة ملائكيّة، إذ بدونا طاهرات صافيات مثل قطر الماء.

عبرنا الطرقات ومررنا من أمام المحلاّت التي بدأ أصحابها يفتحونها. ظلّوا يحدّقون بنا، ونحن نمرّ كفراشات تنقر الأرض نقرا، وترتفع وتحطّ، وتنبعث منّا خلاصات العطر وبقايا رائحة الورد المتمسّكة بأذيال أثوابنا.

لمحنا طوقا من الجنود يحيط بالطريق المؤدّي إلى القصر، وقد أقفلت الكنيسة أبوابها، وكان ثلّة من الرجال والنساء يقفون خارجها. هناك، غير بعيد، بالقرب من السوق، اجتمع بعض الناس يرقبون المشهد.

الجميع يترقّب حدوث أمر مّا. اقتربنا من الكنيسة، وانضممنا إلى المجموعة الرابضة هناك. كانوا بعض العمّال والمشرّدين، وقد توسّطهم رجل سكّير بدا ثملا، يهذي ويغنّي غير عابئ بشيء. اقتربت مجموعة من الجنود صوبنا، فشعر الأطفال بالخوف. حينها قامت النسوة بالالتفاف حولهم، ما أثار حنق أحد الجنود، فوقف قبالة عمّتي التي كانت في مقدّمتنا. تقدّم الجنرال ووقف بجوارها، ولزم الصّمت وهو يطلّ بعينين متحفّزتين من تحت الغطاء الذي وضعه على وجهه. جعل الجنديّ يحوم حولنا، ويرمقنا بنظراته الحانقة، وبقيّة رجاله قد رفعوا أسلحتهم في وجوهنا. ثمّ توجّه صوب عمّتي حتّى كاد يلتصق بها، لكنّها لم

تحرّك ساكنا. فقال بصوت حانق مزمجرا:

-«ما سبب وجودكم هنا في هذه الساعة؟ أظنكم تخطّطون لأمر مّا!»

أظهرت عمّتي سلسلة تحمل في طرفها صليبا فضّيا، وأرته للجندي، وقالت بهدوء وثقة:

-«لقد قدمنا لزيارة الكنيسة، كي يباركنا الربّ يا سيّدي، ولكي نصلّي إن لم يكن هناك مانع؟»

تجهّم وجه الجنديّ، وتغيّرت ملامحه، وبدت عليه علامات الغيظ الشديد. أمر رفاقه بخفض أسلحتهم، وابتعد قليلا للوراء، والتفت قائلا محذّرا:

-«إنّني أراقبكم!»

هدأت حدّة التوتّر التي أصيب بها الجميع. نظرت عمتي إلى باب الكنيسة الذي أوصد دون الناس. وأخرجت من جيبها مفتاحا وفتحته، وطلبت من الجميع الدخول. دلفنا إلى الداخل، وقد كان المكان دافئا يغمره السلام. جلبت العمّة الكتاب المقدّس وطلبت منّا أخذ أماكننا، وبدأت تقرأ لنا:

-«الربّ لي فلا أخاف. ماذا يصنع بي الإنسان؟»[3]، «الربّ يحفظك من كلّ سوء. يحفظك من نفسك. الربّ يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى الدّهر.»[4]

داخل الحرم المقدّس، كنّا نستشعر غرابة الموقف. سنخرج بعد قليل لننادي مع الناس هتافات ضدّ الكنيسة، ونحن هنا الآن داخلها نشعر بالسلام والقوّة! أعلم الآن أنّ إيماننا يقبع داخل

3- سفر المزامير 118:6.

4- سفر المزامير 121:7،8.

قلوبنا، وديننا أعظم من أن يلوّثه من يتاجرون به. أعداؤنا بضعة أنفار سيرحلون حتما، وسيبقى نور الله في أعماقنا. كنّا كالملكات، القوّة التي سرت داخل عروقنا أسطوريّة، كنّا مستعدّات لمواجهة كلّ شيء، دون خوف أو تردّد، ولو كان الموت نفسه.

أنهينا صلاتنا واجتمعنا في حلقة مع من كان حاضرا، وكان بيننا نفس الرجل الثمل. هيئته تدلّ على أنّه من النبلاء، لكنّ تصرّفاته خالية من كلّ مظاهر النبل والاحترام. ظلّ يتمتم بكلمات غريبة غير مفهومة، وقد شبك يديه. ثمّ صمت وأغمض عينيه، وتوجّه ناحية نافذة بلّوريّة تسمح بمرور خيوط النور، وقال:

-«لا أريد أن أراك في صلاتي هذه، لكنّني أعدك بأن أراك بعينيّ الاثنتين في صلاتي القادمة، إن صرفتَ عنّا الفاسدين، المتاجرين بك، وباسم نبيّك المسيح.»

التفت إلينا، وظلّ يرمقنا بنظراته كأنّه يريد قول شيء مّا. أشار بإصبعه تجاه قلبه وقال:

-«هذا هو مكمن النظر، هنا مكمن الحقيقة يا سادة!»

خرج من الكنيسة وهو يحمل صليبا خشبيّا، فمشينا خلفه ولحقنا به. في الخارج راح يركض كالمجنون ويصرخ، صعد فوق صندوق موضوع بجانب أحد المحلاّت، تحت أنظار الجنود والناس الذين تجمّعوا لرؤية هذا المشهد. حمل الصليب عاليا بكلتا يديه، رفعه عاليا في الهواء وراح يصرخ:

-«أتعرفون ما هذا؟»

ظلّ الجميع يحملقون في وجوه بعضهم، مستغربين من هذا التصرّف. علا صوته مرّة ثانية صارخا:

-«لا يجب أن يكون هذا ذريعة كي تسرق أموالكم، وإن كان هذا يأمرنا بالخضوع والإذعان، فأنا أوّل من سيكفر به!»

رمى الصّليب الخشبيّ على الأرض تحت أنظار الحشود التي بدأت تتوافد، وقد انقسم الناس بين مستنكر حانق ومؤيّد مناصر. ارتفع صوت قسّ لا يُعلم من أين طلع: «هرطقة.. زنديق.. كافر.. اقتلوه!» وارتفع صوت من بيننا. تقدّمت امرأة تحمل صليبا بين يديها، ورمته على الأرض صارخة:

-«نبرأ من لوثة عقولكم أيّها الملاعين، ما أسرع ما يُرمى المرء بالكفر هذه الأيّام!»

ردّدت عمّتي ذلك بأعلى صوتها، وهي تتقدّم تجاه الرّجل الواقف فوق الصندوق الخشبيّ، فلحقنا بها. بدأت الحشود تجتمع وتتقدّم، وكان بعض الناس يخلعون صلبانهم ويرمونها، في مشهد تقشعرّ منه الأبدان. طوّق الجنود المكان، ومنعونا من التقدّم، وقد شهروا أسلحتهم في وجوهنا. حينئذ برز الجنرال أنطونيو بيرولّي، وقد نزع الغطاء عن رأسه، واتجه نحو أحد الرجال وهمس له.

مرّت تلك الدقائق صعبة ومخيفة، مازلنا واقفين في أماكننا هناك أمام الطّوق الذي فرضه الجنود، حين سمعنا هتافات تصدر من بعيد، فالتفتنا فإذا المئات من النساء والرجال قد أقبلوا، وعلت أصواتهم بالهتافات. فازدادت أعدادنا وملأت الجماهير السّاحات، واختلط الصراخ بالهتاف والبكاء بالنحيب. ونادت الأصوات بعزل الملك ومحاكمته. حينها تقدّم جنديّ بسرعة من الرّجل الثمل وضربه على وجهه بعصا كان يحملها في يده، فأسقطه أرضا مغشيّا عليه.

غير بعيد عنّي، لمحت أحد الجنود الغاضبين يوجّه بندقيّته تجاه عمّتي جيمينا. أمسكها من شعرها وظلّ يسحبها فسقطت على الأرض. ركضتُ نحوها لأساعدها فوثب الجنرال وثبة رشيقة واتجه نحو الجنديّ ودفعه بيديه العاريتين وأسقطه أرضا. انحنى وأحاطها ببدنه وغمرها بساعديه وصدره كي لا تصل إلى جسدها ضربات العصّي واللكمات. هرع نحوه جنديّان وأخذا يضربانه، فثار غضب الناس وصاروا يتدافعون ويرمون الجنود بالحجارة والطّوب والألواح المعدنيّة.

لم يعد من الممكن ساعتها التنبؤ بما سيحصل لاحقا، وسط هذه الفوضى العارمة والحنق الشديد، لكنّني لحظَتها سمعت صوت طلق ناريّ دوّى في المكان، وتناثرت الدّماء الحمراء أمام عينيّ. بقيت مذهولة من هول ما رأيت، وكالمجنونة لا أعرف ما العمل، صرخت بكلّ ما أوتيت من جهد، وارتميت على الأرض أحاول الإمساك بيد المصاب.

عمّتي تجلس عند رأسه، تسنده بذراعيها، ودماؤه تسيل فوق ثيابها البيضاء. تمدّد الجنرال أنطونيو بيرولّي على الأرض وقد استقرّت الرّصاصة في صدره. دنوت منه وفي عينيّ دموع لا تتوقّف، وقد التفّ حولنا بعض المتظاهرين الذين حاولوا حمايته بصدورهم العارية، فأدركت أنّهم بعض رفاقه. لم أتمالك نفسي فأجهشت بالبكاء، وصوت حشرجة تغصّ بعبراتي المنهمرة. رأيته يمزّق الثوب عن صدره ويتحسّس مكان الجرح بيده وينظر إليه وهو يبكي. كان يحاول قول شيء مّا. دنوت منه أكثر وصوت الكلام لا ينطق. أخذ يدي وضغط عليها وتمتم بصوت خافت متقطّع، ثم أغمض عينيه ويده ممسكة بيدي. كان الجنرال

أنطونيو بيرولي يحتضر حين قال:

-«أثر الرصاصة فوق جلدي طمس اسم قريتي الموشوم. الآن عدت بلا انتماء كما خلقت في الأزل، لا أحد سيعرفني هناك، سأجلس وحيدا في البعيد بينما يسخر منّي جنديّ قديم أعرفه. سأصمت مطرقا ثمّ سأصرخ في السماء، لقد كنت فداء لامرأة غريبة، ستكون هذه المرأة عنوان انتمائي من جديد.»

كانت تلك آخر كلماته. فارقت روحه الحياة فحمله رفاقه فوق أكتافهم، وراحوا يطوفون به في الساحة، كمن يطوف حول مكان مقدّس. نعم كانت ساحة الثورة مقدّسة لأنّ دماء حقيقيّة سالت وسقت ترابها، كما لم تسق الدماء أيّ مكان آخر من قبل.

لم أشهد طيلة حياتي موقفا مأساويّا يشبه هذا الموقف. كنت وعمتي نمسك أيدي بعضنا بعضا ونشبكهما، ونشاهد كيف تحوّلت الساحة إلى أرض معركة حقيقيّة؛ طلقات ناريّة وجثث ملقاة على الأرصفة وفوق التراب، وأطفال تائهون، ونساء يبكين. كانت الأصوات مختلطة، والهتافات تزداد حدّة، والحشود مازالت تتوافد من القرى القريبة. غصّت الساحات بالناس، وبالكاد كنّا نستطيع المشي أو حتّى تحديد مكاننا وسط هذه الأعداد الغفيرة. كنّا نمشي بخطى بطيئة، وسط الهتافات التي تدوّي في الفضاء معلنة الغضب الثائر.

* * *

«الليلة يكتمل البدر..»

قال آندري مخاطبا يوجين، وقد اتّخذ مكانا بعيدا عن الرجال.

-«إنّه لفأل حسن أن ننهي الحفر تحت تأثير جمال هذا البدر، ستكون ليلة مميّزة!»

استغرق آندري في التفكير، وقد شحب لونه وتغيّرت ملامحه. ثمّ قال وهو يرقب رجاله الذين انهمكوا في العمل، تحت ضوء القناديل المعلّقة على جدران النفق الترابيّ الرطب:

-«في مثل هذا اليوم من كلّ شهر، كنّا نقيم حفلتنا تلك، وإنّي لأخشى أن يتوجّه الرجال هذه الليلة إلى الحانة!»

جلس يوجين على التراب الطريّ وأخذ حفنة منه بين يديه وظلّ يسكب حبّاته على الأرض. التفت إلى صاحبه قائلا:

-«إنّها مسألة وقت حتّى يتعوّدوا الواقع الجديد. سنحرص الليلة على عدم حدوث هذا الأمر.»

-«كيف ذلك؟»

-«سنجد طريقة معا.»

فيما كانا يتبادلان أطراف الحديث، سمعا صوت وقع أقدام مسرعة. أقبل ديميتري وانضمّ إليهما وهو يلهث، وقد لاحت على وجهه ملامح الرعب الشديد. جلس على الأرض يستجمع أنفاسه والرجلان يحدّقان فيه بِحيرة. وأخذ يضرب على الأرض بعصاه في حركة عصبيّة وأنفاسه تكاد تنقطع.

-«لقد حلّت الكارثة!»

نهض من الأرض، وراح يمشّط النفق، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، وصدى كلماته يحدث في المكان ضجّة شبيهة بضرب الطبول في الحرب. اقترب منه آندري وأمسكه من كتفه، وضغط عليه بقوّة، وثبّته في مكانه:

-«هدّئ من روعك أيّها الرجل، وقل لنا ما وراءك؟»

-«أنهار من الدماء، وقتلى بالعشرات في الشوارع.. لقد حلّ علينا غضب الربّ.. لقد قامت ثورة لعينة في كلّ المدن والقرى..

والجنود منتشرون في الساحات والطرقات يقتلون الثائرين.. بالكاد نجوت بجلدي.. ثمّ إنّه ثمّة.. أمر غريب..»

صمت ديميتري محاولا التقاط أنفاسه ليستطيع مواصلة الحديث:

-«خارج أسوار القرية..»

نظر إلينا بنظرات حادّة كادت تنخلع قلوبنا من هول مشاهدتها، ما أثار الرعب في قلب آندري فهمَّ بضرب ديميتري على رأسه بقبضته، لكنّني حلت بينه وبين ذلك.

-«لا يوجد جنود خارج أسوار القرية!»

دوّت كلمته تلك في المكان كأنّها الصاعقة، فردّدها الصدى مرّات متكرّرة، حتى بلغت مسامع الرجال المنهمكين في الحفر. تراشقوا النظرات غير مصدّقين، وانطلقوا خارج النفق عبر القبو في كوخ آندري، ولحقنا بهم. ذهب أحدهم يطرق الأبواب ليستدعي بقيّة الرجال وهو يصرخ بصوت مرتفع جدّا، فأقبل من كانوا يرتاحون من عناء الحفر على عجلة من أمرهم، وعلى وجوههم ملامح الحيرة والتوجّس.

اجتمعنا كلّنا وسط القرية، وسط لغط وصراخ وتوتّر شديد لم نعهده من قبل. حمل بعض الرجال معاول وفؤوسًا، وتقدّمنا تجاه الباب الكبير بحذر مبالغ فيه. تقدَّمَنا ديميتري، وفتح الباب وهو يطلّ برأسه محاولا استطلاع المكان، لكنّه لم يشاهد أحدا بالخارج. فتح الباب على مصراعيه، فوقف الرجال وقد رموا بأدواتهم على الأرض، وتسمّروا في أماكنهم شاخصين كأنّ على رؤوسهم الطير. لاح الطريق المؤدّي إلى المدينة من بعيد ومجرى النهر، وقد حاذته الأشجار والصخور الرماديّة.

دخلت القرية نسمات جديدة كانت سجينة في الخارج منذ سنوات، وتناهت للمسامع أصوات الطيور والعصافير التي توقّفت عن الغناء والتغريد منذ زمن. أضواءُ نجوم جديدة تبعث بأشعّتها عبر الباب الكبير، ورائحة أوراق شجر الزيزفون التي انتشرت على مدّ البصر داعبت أنوفهم، وصورة الأيّام الخوالي تلوح في الأفق كأنّها لم تغب يوما واحدا.

لحظتها، هطلت أمطار خفيفة رماديّة اللون باردة، حملت معها صورا وذكريات من زمن آخر، بدأت ملامح المشهد تتكشّف شيئا فشيئا، وأخذت الصورة تتّضح أكثر فأكثر، لكنّ قطعة واحدة من الصورة لم تكتمل.

خيّم السكون لدقائق. وقف الرجال على أعتاب الباب الخشبي الكبير، ينظرون إلى العالم الجديد القديم، يحيّون صور الماضي المتجدّد، تحثّهم الرغبة في الانطلاق خارجا من أجل أيّام مغايرة، ولطيّ صفحات من الزمان الكئيب، لكنّ شيئا داخليّا في أرواحهم ظلّ يشدّهم إلى الوراء شدّا قويّا؛ أطياف قديمة غابرة تلوح من بين الأكواخ والبيوت والأماكن، أشباح من زمن آخر وقفت على رؤوسهم وجعلت تجذبهم إلى الداخل، وتمنعهم من التقدّم والذهاب بعيدا. ذكريات حمراء مظلمة حضرت إلى هذا العالم الحقيقيّ، ولطّخت الأرض بلون الدماء القاتم الدافئ. أصوات صراخ وبكاء، صور مشانق وعربات تسحب نساء قرية باراديسيوس وأطفالها كأنّهم الخنازير أو البضاعة التي تكدّس فوق بعضها، خيالات لهب الشموع المتراقصة على جدران الحانة التي تنكّرت، زُيّفت وأحضرت صور الزوجات والحبيبات في الأذهان المشتّتة المرهقة. صوت آندري الذي

يروي القصص ويرتّب الحفلات في حانته وساعات الليل المتأخّرة من كلّ حفلة، وكلّ شهر يمضي يسكب أشياء سوداء داخل قلوبهم.

تلك الأنفس التي انزوت وضلّت الطريق القويم، ذلك النور الخافت الضئيل داخل قلوبهم الذي ظلّوا في قرارة أنفسهم يعوّلون عليه كثيرا، وهم يراقبونه يخفت يوما بعد يوم، ولا يقدرون للأمر تغييرا ولا تبديلا، كلّ ذلك الوهن والضعف المستتر خلف غلظتهم وصلابتهم، ورغبتهم الأصيلة الأسطورية التي حتّمت عليهم عدم ترك القرية والهروب منها تحت الحصار، بالرغم من أنّهم خسروا كلّ شيء ولم يعد لديهم شيء آخر يخشون فقده. لقد خسروا كلّ شيء يمكن أن تهبه الحياة لرجال مثلهم، لكنّهم آمنوا بأنّ باراديسيوس غالية جدّا، بالقدر الذي يمنحهم فرصة وأملا جديدا للمواصلة. لم يستطيعوا الخطو خطوة واحدة خارج القرية. تقدّم آندري من الباب الخشبي الكبير وأغلقه، ومضى الجميع معا يواصلون حفر النفق ليشهدوا انتهاء إنجازهم تحت تأثير روعة البدر الجديد.

* * *

إنّها المرّة الأولى التي يجتمع فيها جميع أطياف الناس؛ العاطلون، العمّال، المزارعون، البحّارة، رجال الدين الحقيقيّون، قادة الجيش الأحرار... احتشدت الجموع أمام الباب الخشبيّ الكبير للقصر، بعد أن اجتاحت الأطواق التي فرضها الجنود على الطرقات المؤدّية إليه، مخلّفين وراءهم عشرات القتلى من المحتجّين الأبرياء. بعضهم حاول تسلّق السور الشاهق الارتفاع، فمنهم

من سقط ومنهم من أُسقِط بنيران البنادق. فتحوّل المكان إلى بركة من الدم والأشلاء المتناثرة. أضرم بعض المتظاهرين النار في الباب الخشبيّ، لكنّ بعض الحرّاس أخمدوها بسكب المياه عبر نوافذ صغيرة فوقه. ظلّ الناس يهتفون منادين بخروج الملك إينو من قصره، لكنّ هذا الأخير بقي مختبئا في الداخل متحصّنا بأسوار قلعته الحصينة.

بعيدا عن هذه الملحمة، جلس الملك إينو على عرشه، وقد اجتمع وزراؤه وأهل مشورته من حوله، وقد تبيّن أنّه أسرف في الشرب. كان يصبّ النبيذ ويشربه دفعة واحدة، وهو يتفرّس في وجوه حاشيته طويلا. أطلق ضحكة ساخرة، ثمّ نظر إليهم وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة بلهاء. قام من كرسيّه وتجوّل في الصالة الملكيّة الفاخرة، جال في الرواق ونظر عبر النوافذ المطلّة على المدينة وساحة قصره. لم ينبس بكلمة واحدة، ترنح في مشيته، وأصدر صوتا من حنجرته يشبه صوت حيوان يئنّ ويلهث. أخذ يشير إلى رجاله ووزرائه واحدا واحدا. نزع التاج من فوق رأسه ووضعه جانبا، ثمّ طلب رؤية زوجته وابنه، الوريث الوحيد لعرشه. وصرف جميع من حوله.

أقبلت زوجته وابنه الذي لم يتجاوز عشر سنوات، ولما رأته على تلك الهيئة سارعت إليه تؤنّبه:

-«ما كان عليك أن تُظهر كلّ هذا الضعف أمام وزرائك ورجالك وقادة جيشك.»

نظر إليها نظرات ساخرة وانفجر ضاحكا:

-«هل تعتقدين أنّه مازال هناك مدينة لأحكمها، انظري إلى كلّ هؤلاء الغوغاء في الخارج.»

وأشار إلى الحشود التي اجتمعت وبات من اليسير رؤية أعدادها عبر النوافذ والأروقة، وأضاف قائلا:

-«سنغادر جميعنا قبل أن يقتحموا البوّابات، ستكونين أوّل المعلّقات على حبل المشنقة يا عزيزتي.»

ضحك ساخرا وأشار إليها بيده ملوّحا:

-«أنت وعائلتك الجشعة السّبب في كلّ هذا، لقد كنتُ مجرّد لعبة بين يديك أيّتها الساحرة اللعينة!»

توجّه الملك إينو إلى غرفته، فغيّر ملابسه وأخذ كلّ ما يمكنه أخذه من ذهب وحليّ ومجوهرات، وفعلت زوجته مثله، قبل أن يغادر ويختفي عبر الممرّات والأروقة السرّية. مرّ ليلقي آخر نظرة على عرشه، بالقرب من نافذة مطلة على الساحة الكبيرة أمام بوّابة القصر الضخمة. ابتسم ابتسامة ماكرة وهو يشاهد الناس الغاضبين يحاولون اقتحام البوّابات.

كان ذلك آخر عهد الملك إينو بالحكم والسلطة، وكان ذلك آخر يوم مقدّر له أن يعيشه، إذ عثر على جثته وحيدا في إحدى الطرق السرّية تحت القصر، المعدّة لحالات الفرار المشابهة، في حين لم يعثر على زوجته وابنه أبدا.

اقتحم المحتجّون القصر، بعد أن التحق الحرس الذين يحمون البوّابة بهم، ودخلوه وقد وضع الجنود أسلحتهم على الأرض، وتمّ إلقاء القبض على الوزراء والحاشية وكبار رجال الدين الذين ظلّوا إلى آخر لحظة يدفعون الجند للدفاع عن القصر وقتل كلّ من يحاول دخوله عنوة.

يومها لم تنصب المشانق، ولم ينل أحد العقاب الذي يستحقّ، فلقد أظهر الناس روحا جديدة كانوا يتوقون إليها في أعمق

أعماق أنفسهم. تذكّروا سنوات القهر والظلم والبكاء والذّل، فلم يشاؤوا تكرار تلك الأيّام الحالكة المظلمة. لم يريدوا كتابة فصل جديد متكرّر من فصول الماضي القديم القاتم، بل أرادوا إعطاء الفرصة للجميع كي يحظوا بمحاكمة عادلة، تلك الفرصة التي لم يحظ بها الكثيرون في السابق.

* * *

في مكان آخر، تحت أنوار البدر المتألّق في كبد السماء، جلس الجميع على الأرض وقد تعفّرت وجوههم وثيابهم بالتراب والطين، فبدوا كأنّهم مجموعة مجانين يلعبون في الوحل. رؤوسهم مرفوعة وأعينهم تحدّق في البدر والنجوم التي تناثرت كأنّها حبّات لؤلؤ، في نظراتهم شيء جديد، عميق وساحر، تلك النظرات الحالمة المتأمّلة.

تحت تلك السماء الوسيعة، جلس يوجين ورجال قرية باراديسيوس صامتين يتأمّلون الفضاء الشاسع. لم يكن هناك ساعتها شيء أكثر تعبيرا من الصمت والسكون والدموع. استلقوا على التراب البارد، تراودهم الأحلام، يتلذّذون حلاوة من ظفر بشيء حقيقيّ ذي معنى، أجسادهم تحتضنها الأرض التي شربت دماء القائد هرماندينا وغيره من ضحايا المعارك القديمة، فتسري عبرها حرارة دافئة لتلامس أبدانهم وأرواحهم. شعروا بأنّهم أسياد وملوك، حازوا رقعة غالية عظيمة وسط هذا الكون، في هذا المكان المليء بالذكريات، الواعد بغد سعيد ورائق.

-«ماذا بعد كلّ هذا؟» قال ماكسيم وقد نهض من مكانه وراح يجول ببصره بين رفاقه.

-«ماذا بعد الآن!» قال ديميتري وهو يوجّه الكلام لآندري.

-«سلوا صاحبكم، فهو الذي يعلم كلّ شيء.» وأشار إلى يوجين، وقد أطلق ضحكة ساخرة في الفضاء، أتبعها بقيّة الرجال بضحكات صاخبة هستيريّة.

-«سلوا أنفسكم يا رفاق، ما الذي تريدون فعله الآن؟ لقد انتهينا من حفر النفق بفضل جهودكم وتفانيكم، وإنّي فخور بالانضمام إليكم والعمل معكم جميعا.»

نزلت دمعة على خدّ يوجين، وقد بدا واضح التأثّر من خلال كلامه. قاطعه آندري، وقد جلس قبالته ووضع يده على كتفه مربّتا عليه:

-«ماذا عنك يا صديقي؟ أظنّ أنّ هذه الدموع تنتمي إلى محنة أخرى.»

وضع يوجين يده فوق يد آندري، ورفع رأسه، فتحدّرت دموعه وتلألأت تحت ضوء القمر.

-«هذا القمر.. يسافر بي نحو أزمنة خلت، تبدو كأنّها تمرّ الساعة. الذكريات يا صديقي لا تعبأ بنا، فهي تجيء في الأوقات غير المتوقّعة، لتحطّ بظلالها علينا، لتخبرنا أنّه مهما شغلتنا الحياة هناك دائما وقت للتذكّر، ووقت لتلفّت القلب.»

صمت يوجين وأغمض عينيه مستسلما لنداءات روحه. وَقعُ نقر على مفاتيح البيانو يثير في نفسه مشاعر من زمن ماضٍ. تعود الذكريات به إلى هناك، حيث كان يجلس على كرسيّه الهزّاز، يتأمّل حبيبته ليندا وهي تعزف ألحان مقطوعة محبّبة.

سرعان ما احتوى يوجين همّه وتجاوز غصّة قلبه، كأن لا مجال يسمح لآلامه الشخصيّة باستئثار بعض الوقت. تعالى على نفسه وعاد بفكره وانشغاله لأجل من ظنّ ساعتها أنّهم يستحقّون كلّ

اهتمامه ووقته.

-«هل تعلمون ما الذي ينقصنا في هذه الساعة؟» قال يوجين وقد نظر إلى السماء الصافية، متأمّلا في رحابة الكون، شاخصا في الآفاق البعيدة.

نظر الجميع صوبه، متسائلين عمّا يجول بخاطره.

-«قل لنا أنت.» خاطبه ديميتري.

أغمض عينيه ووضع يده على قلبه. نام على التراب البارد الرّطب ورأسه يتّجه صوب المدى البعيد الواسع، وقال دون أن يفتح عينيه:

-«أنصتوا لنداء قلوبكم، تجوّلوا داخلها واكتشفوا الأماكن البعيدة التي حُجبت عنكم، وليخبرنا كلّ واحد منكم بما سمع وما رأى، وبما شعر.»

تعجّب الجميع من هذا الطلب الغريب، لكنّهم رغم ذلك استلقوا جميعا على التراب في شكل حلقة. أغلقوا أعينهم ووضعوا أيديهم على قلوبهم يتحسّسون الدّفء المنبعث منها، واختلى كل واحد منهم بنفسه، كما لم يفعلوا أبدا من قبل.

وسط سكون الليل، وتحت أنوار هذا البدر الفضّي المتربّع على عرش السماء، هبّت نسمة باردة لفحت الوجوه، وسرت مشاعر دافئة عبرت من خلال قلوب الرجال فوَصلتهم وربطتهم كأنّها عُقد وهُم خَرَزات، وانتهى كلّ واحد منهم إلى ناحية داخل أعماق روحه لم يكتشفها من قبل.

مرّت دقائق طويلة، خيّم فيها صمت مقّدس على أرجاء القرية، اقتربت غيمة كانت تجوب السماء دون اهتداء، رأت من بعيد هالة عظيمة تحيط بالمكان، فحاولت الإنصات واستراق

السّمع لتعرف فحوى تلك الأحاديث الصامتة التي ترسل رسائل إلى الكون، فتبرز في الفضاء على هيئة شهب تتراشق وتتناثر، تلمع وتمضي مسرعة، تحرِق شياطينهم المتجمّعين في زاوية من السماء يشاهدون تلك الحلقة، وقد ربطت أقدار رجال باراديسيوس وماضيهم.

اقتربت تلك الغيمة، وبقيت معلّقة فوق رؤوسهم، صبّت عليهم قطرات مطر باردة حلوة المذاق، نزلت عليهم تُبارك رحلتهم الداخليّة في أعماق أرواحهم، وكلّما توغّلوا داخلها ومرّوا على سنوات الضياع تلك، هربوا بعيدا، فتنزل القطرات لتغسل جزءا من ذكرياتهم وتطفئ نارَ الشهوة والشقاء، التي استعرت وأحرقت سنوات من العمر كانت جديرة باحترام الذات والتعالي عن كلّ أسباب السقوط والاستسلام لسلطان الهوى.

أضاءت السماء، واختلطت الشهب، وابيضّت الآفاق، فبات كلّ شيء أبيض اللون، صافيا ونقيّا. اختلطت القطرات النازلة من تلك الغيمة الأسطوريّة بقطرات دموعهم الحارقة الفوّارة، كأنّهما نهران يصبّان في مجرى واحد، وانصهرا معا ليصبحا تيّارا رائعا يحيي ما هلك داخلهم من روعة وصفاء ونقاء، ويروي عطش صحاريهم الداخليّة التي ظلّت دون نبات أو حياة لسنوات طويلة.

في هذه اللحظات، وقد أغرق ذلك التيّار جميع أسوارهم القديمة المتعالية، نبتت ورود وبساتين، وامتلأ المكان بموسيقى خياليّة أتت من بعد آخر، فطربوا لها ورقصت أرواحهم وحلّقت بعيدا، وتسامت عن ذلك القاع وتلك الورطة القديمة التي

وقعوا فيها. صوتُ عزف جميل يملأ الأرجاء، وموسيقى تداعب مسامعهم، فتح الجميع أعينهم ونهضوا من أماكنهم، نظروا بعيدا إلى السماء، شاعرين بروعة البدايات الجديدة الحالمة الخفيفة. أراد كلُّ واحد منهم أن يسأل الآخر عن شعوره، لكنّهم أدركوا في قرارة أنفسهم أنّه ما من كلمات تصف ما حصل، فلاذوا جميعا بالصمت المقدّس.

(6)

-«ماذا بعد؟!»

تساءلت والدة الصغير جورج وهي تخاطب نساء قرية باراديسيوس. تبادلن النظرات وصمتن وهنّ يحدّقن في عيني العمّة جيمينا.

بعد أن دخلنا القصر وشاركنا الجميع مجدهم، استلم الوجهاء الذين اختارهم الناس زمام الأمور، كي ينظروا في شؤون الحكم ورفع المظالم التي سلّطت في السنوات الماضية، ثمّ عدنا إلى البيت وقد تضاربت فينا المشاعر والأحاسيس. لم يكن هناك وقت للفرح والاحتفال، فصورة الجنرال أنطونيو بيرولّي وكلماته الأخيرة مازالت تتردّد داخلنا، ومشاهد القتلى والشهداء الذين انتشرت جثثهم في كلّ مكان قد صرفت عنّا كلّ رغبة في الفرح.

لذنا بالصمت لدقائق، لم يكن لدينا القدرة على تجاوز ما حصل، فالدهشة مازالت مرسومة على وجوهنا، فنحن لم نختبر من قبل شيئا مماثلا. أمّا نساء قرية باراديسيوس، فقد بدوْن أكثر هدوءًا وحزمًا، حتّى أنّهن بدأن يفكّرن في العودة إلى القرية، لكن ما استرعى انتباهي وأثار فضولي هو ما قالته إحداهن:

-«ها قد شهدنا اليوم الذي حلمنا به منذ سنوات، ولقد كنّا نراه مستحيلا، والآن حين لم يعد هناك أيّ حاجز أو مانع يحول

دون عودتنا إلى قريتنا الحبيبة، أنا أخشى القيام بذلك.»

-«أنا أيضا مثلك.. أشعر بالخوف.» قالت والدة جورج وهي تمسك بيد ابنها تداعبه وتحضنه بين ذراعيها كأنّها تخشى أن تفقده مرّة أخرى.

جلست العمّة جيمينا في منتصف الغرفة على كرسيّ بجانب الطاولة الرئيسيّة، ظلّت تحدّق في النسوة وتحاول فهم ما يدور من حولها. لقد توقّعت أن يحدث العكس تماما، ففي مثل هذه الظروف المناسبة، ظنّت أنّ رغبة العودة إلى القرية تبعث على الطمأنينة، لا سيّما أنّه لم يعد هناك من عائق يمنعهنّ من ذلك. ظلّت تراقبهنّ وقد نكّسن رؤوسهنّ في الأرض وملامح الحزن والخوف بادية على وجوههنّ وتصرّفاتهنّ.

اقتربت ليندا من عمّتها وأمسكتها من يدها بحنوّ، وجلست قربها ولاذت بالصمت، وقد تراءى لها خاطر من زمن ماض. أحسّت أنّ ما يحدث مع نساء القرية يشبه ما حدث معها؛ فراق وهجر وفقد مررن به جميعا. وإن كانت هي التي قرّرت من قبلُ الرحيل بخِلاف نساء القرية اللاتي اضطررن وأجبرن عليه، إلاّ أنّ العذابات والدموع كانت الشيء المشترك بينهنّ جميعا.

ساورها شعور حزين لم تجد له تفسيرا؛ ماذا لو مرّت بوضعيّة مشابهة؟ ماذا لو وضعتها الأقدار من جديد كي تختار العودة إلى حبيبها الذي تركته من أجل العثور على أجوبة لأسئلتها، حتّى تجد نفسها وذاتها المفقودة؟ هل ستستطيع الرجوع إليه والنظر في وجهه من جديد؟

أدركت أنّ الشعور الذي انتاب نساء القرية لم يكن سوى ردّة فعل طبيعيّة، فاللقاء المحتمل مع الأحبّة بعد طول الغياب

يسبّب شيئا من التوتّر والتوجّس، ذلك ما عرفته ليندا وخشيته في الوقت نفسه.

* * *

منذ زمن غير بعيد، صار رجال باراديسيوس يخشون العالم الخارجيّ، ذلك الذي يقبع خلف الأسوار العالية. ترهبهم فكرة الخروج والالتقاء بالناس، وكانوا يعتبرون العجوز ديميتري مغامرا كبيرا، وعَزُوا ذلك لسِنّه الكبير، فحين يصل أحدهم إلى مثل عمره، لن يعود مباليا بكثير من الأمور. وطيلة سنوات لم تراودهم فكرة تجاوز تلك الحدود التي فرضها الملك إينو، ولم يرغبوا في مغادرة قريتهم التي باتت أشبه بالمخبأ والملاذ الأخير، فباراديسيوس لم تكن مجرّد قرية عاديّة بل كانت أشبه بالحصن الذي يحتمي به القرويّون، كأنّه آخر الدفاعات التي يتحصّنون بها في مواجهة العالم الخارجي. ولقد كانت الأحداث تسير بأسلوب غذّى رغبة الانطواء والعزلة لديهم، فمنذ البداية لم يتعدَّ الأمر كونه شعورا بالذلّ والحيف تجاه الاستفزاز الذي يتعرّضون له من قبل الكنيسة وكهّانها وقساوستها الذين ظلوا يتوافدون لاقتناص الفرص والتلاعب بالمتديّنين كي يحقّقوا المكاسب.

طيلة سنوات، ظلّ هاجس وحيد يراود سكّان باراديسيوس؛ حبّهم للقرية تجاوز الانتماء، وصار حبّا حقيقيّا، فهم يحبّونها وهي تحبّهم، وقد باتت التفرقة بين هذين الحبيبين ضربا من المستحيل. وطيلة سنوات، باتت فكرة المغادرة والذهاب بعيدا أمرا مخالفا للمنطق، فكيف يترك الحبيب حبيبه الذي اتّصل به وذاب فيه حتى صارا كيانا واحدا. كان رفاق آندري يعتبرون كلّ ما تحتويه باراديسيوس ذا طابع خاصّ ومميّز، حتّى الأسوار لم تعد مجرّد

عائق يحجب رؤية ما يوجد خلفها، بل تجاوزت ذلك لتغدوَ مصدرا للتأمّل والخيال، فعندما يجلسون في خلواتهم، يخترعون طبيعة جديدة للحياة الخارجيّة تكون أكثر روعة وجمالا ومثاليّة ممّا هي عليه حقيقة. وظلّ ما يقبع خلف الأسوار العالية غامضا باهتا غريب المعالم.

حين يكون المرء في عزلة حقيقيّة، قد يشهد في خياله ميلاد عالم جديد، وما اتّفق عليه رجال باراديسيوس لحظتها، جعل يوجين يبتعد قليلا عن مجلسهم، وظلّ يراقبهم في صمت وقد نالت منه الدهشة والحيرة.

قال أحدهم:

-«إنّ الهواء الذي ينتشر خارج أسوار القرية مسموم وغير حميد، لأنّ الذين يستنشقونه ماتت ضمائرهم، وأظلمت أفكارهم، حتى إنّي أكاد أشمّ رائحة كريهة تنبعث من هناك.»

نظر إلى الأسوار العالية، وقد أبدى رضاه بابتسامة كبيرة لأنّ ارتفاعها حسب ظنّه كافٍ ليطرد كلّ علّة يمكن أن تحلّ بالقرية.

-«نحن في غنى عن هذا العالم الذي لم نعد ننتمي إليه منذ زمن بعيد، سيكون من الآمن أن نبنيَ جدارا مكان الباب الخشبي الكبير. لم نعد نحتاج إلى أولئك الأوغاد الذين يركضون داخل القفص الكبير، أولئك الذين يشبهوننا رغم اختلافهم عنّا. الفرق بيننا وبينهم أنّنا كالأرانب البرّية، نعيش في الحفر، حالتنا تبدو مزرية لكن رغم ذلك نحن من يحدّد طريقة عيشنا وأسلوب حياتنا، أمّا هم فيبدون رائعي المظهر كالأرانب الأليفة، لكنّهم موجودون في أقفاص حديديّة لا يملكون أيّ خيار ولا يستطيعون أيّ مبادرة، يطعمونهم كي يتزاوجوا ليذبحوهم

لاحقا، أمّا نحن فنطعم أنفسنا ونحاول ألاّ نكون فريسة سهلة في مرمى الصيّادين.

-«نحن ننعم بحياتنا الخاصّة، ويمكننا جعل قريتنا أفضل مكان في العالم، لقد كانت جنّة في أعين أسلافنا ويجب أن تعود إلى سالف مجدها وألقها وبهجتها.»

-«نعم.. هذا هو المراد، لسنا بحاجة إلى أيّ أحد، يمكننا أن نعيش بمفردنا، كما كنّا طيلة تلك السنوات التي مرّت، وراء هذه الأسوار العالية التي ستضمن لنا الأمان. إنّ الخطر يكمن في الخارج.»

-«التغيير غالبا ما يجلب التعاسة والكدر، ثمّ إنّنا تعوّدنا هذا العيش ولا نريد أن يأتي حاكم جديد يفرض علينا طريقة جديدة لن نعتادها، ونحن لن نسمح أبدا لأيّ غريب بفرض أفكاره وأساليبه علينا.»

-«سيحاول جميع من يقبعون خلف هذا الباب تثبيط مساعينا، لذلك لن نسمح لأحد بالاقتراب منّا ومحاولة تغيير قناعتنا.»

-«الأجدر أن نسارع ببناء جدار مكان الباب، كي لا يستطيع أيّ أحد الوصول إلينا.»

ظلّ يوجين فاغرا فاه، وضع يدا فوق الأخرى، وحدّق بالسماء الواسعة البعيدة، والأفكار تزدحم في رأسه. أمّا آندري فقد جلس على الأرض وطأطأ رأسه ممتعضا من كلّ تلك التّفاهات التي صدرت عن رفاقه، لكنّه في قرارة نفسه ظلّ يفكر في الشيء نفسه.

اقترب ديميتري من الحلقة التي شكّلها الرجال، وجلس بدوره على الأرض، ولم يبالِ بالرطوبة والبرد اللذان تسلّلا إلى

جسمه، وقال:

-«ليس من الحكمة أن يبلغ بنا اليأس درجة تجعلنا نواصل المضيّ في درب نعرف مسبقا أنّه شائك ولا ينتهي إلى أيّ مكان.»

فقاطعه أحد الرجال معترضا، وقال بنبرة متهكّمة:

-«هل توجد سبيل أخرى كي ننجو بأنفسنا من هذه الورطة الموجودة خلف هذه البوّابة؟»

هنا تدخّل يوجين وقد كست وجهه هالة كئيبة، لكنّ صوته بدا رصينا متعقّلا:

-«لا أظنّ أنّني سأدرك يوما معنى أن يكون الإنسان مخيّرا بين أمرين أحلاهما مرّ، لكنّني أعلم جيّدا أنّ الخلل الموجود هو ما يصنعه الإنسان بنفسه. أنا مثلا، لا أقدر على أن أفوّت لحظة يهبني فيها القدر فرصة للتغيير. متى كانت المغامرة أمرا مخيفا؟!»

هنا، التفت آندري ونظر إلى يوجين نظرات متسائلة عن فحوى كلامه.

-«لعلّ ما نخشاه ويكدّر علينا أفكارنا ليس مصيرنا. هل فكّر أيّ واحد منكم يوما، في الذهاب بعيدا خلف هذه الأسوار؟ إنّ خمس سنين كاملة كفيلة بتغيير الناس، إنّه زمن طويل جدّا، فلماذا نحمل كلّ هذه الكراهية داخل قلوبنا؟ لقد كان ديميتري يخرج ويرى العالم ويحتكّ به...»

اقترب من آندري وهمس في أذنه:

-«ولذلك كان الوحيد من بينكم الذي لم يشارك في حفلاتكم.»

كانت الجملة الأخيرة قاسية جدّا، تحمل بين ثناياها قسوة وعتابا، نزلت على قلب آندري كالسكّين الحادّ فأدمته. انهمرت

دموعه حارّة حارقة، كأنّها سيل ينحدر من ارتفاع شاهق، فتبلّلت لحيته وسقطت قطرات لامست التراب الرطب النديّ. بكى آندري بحرارة، كما لم يبك أبدا من قبل. صمت طويلا، وقد منعته حشرجة حنجرته من الكلام. ظلّ مطبقا رأسه، كأنه شعر بالخجل من نفسه، وكان الرجال ينظرون إليه مشفقين. صمتوا جميعا وخّيم سكون طويل، شبيه بصمت المقابر.

كان هناك في السماء بدر ساطع، قد زيّن كبد السماء، وبعث بأنواره في أرجاء القرية. تركّز نور منبعث من مكان بعيد في الأفق، رسم ما يشبه الخيط الرقيق المضيء، وتجمّعت بعض النجمات الساطعات، ذابت في ذلك البدر، وانصهرت جميعها، لتزيد من ضياء ذلك الخيط النورانيّ. سطع وزاد قبسه، وحطّ على خدّ آندري، فبدا وجهه منيرا تتخلّله لألأة دموعه، كأنّه نهر أسطوريّ يسكب ماءً مقدّسا مباركا.

تحت أنظار الجميع، وبعيون ذاهلة شاخصة، سرت هالة في المكان، وامتلأ الجوّ بأصوات آتية من بعيد؛ موسيقى تناثرت أنغامها قادمة من مكان مجهول. رفع الجميع رؤوسهم إلى السماء محدّقين في ذلك المشهد الغريب. صورة بدر عجيب يقترب بسرعة قياسيّة جدّا، فتزيد الأنوار انبعاثا من على خدّ آندري، ودموعه في حالة انهمار عجيبة لم يشهد لها الرفاق سابقة من قبل.

لمعت في القرية لمعة خطفت الأبصار في ثانية، حتّى أنّها بدت شفّافة خياليّة، كأنّ الكون قد أرسل جميع أنواره وقناديله وأضوائه، ليضيء هذه البقعة المنسيّة التي غرقت في سنوات من الظلام والعزلة. هبطت كتلة ضوئيّة من السماء وحطّت على أرض باراديسيوس. شخصت الأنظار وتملّكت الرجال مشاعر

مختلطة، بين المنكِر والحيران. والوحيد الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، كان يوجين.

ظلّ الجميع مبهورين، مُنكرين لما يرونه، وبدأت كتلة الضوء تلك تتوضّح وتخفت شيئا فشيئا، حتّى برز كيان واقف على قدميه وقد بدا مألوفا جدّا. هيئة إنسيّ تسمّرت أمامهم، تحيطها هالة ضوئيّة عجيبة. فزع بعض الرجال وابتعدوا إلى الوراء، وقف بعضهم مستنفرين، مذهولين. جحظت عينا ديميتري في ذلك الكائن الواقف على قدميه، الساكن مكانه لا يتحرّك.

اقترب يوجين من الملاك النورانيّ، وانحنى أمامه، ثمّ قال وصدى الكلمات القديمة التي دارت بينهما ما يزال عالقا بذهنه:

-«نعم.. إنّ طريق العشق لا يتعلّق بمجدنا الشخصيّ، بل هو متّصل بالتضحية بمشيئتنا من أجل خير العالم. وهذا ما أدركته للوهلة الأولى، حين بلغت قرية باراديسيوس.»

فخاطبه الصوت الملائكيّ وهو يضرب بأجنحته يهمّ بالمغادرة والمضيّ بعيدا:

-«في طريق العشق، تتحوّل كلّ المتاعب إلى دموع، لأنّه لا بدّ من الماء لإحياء التراب. ولكي يولد الإنسان من جديد، من الضروريّ أن يظلّ في الظلام زمنا، لأنّه من رحم السواد ومن تحت العتمة، تتفتّح البراعم وتزهر الورود. اعلم أنّ العظيم يكافئ المحبّين، الذين لا يتوانون عن زرع المحبّة والخير في القلوب التائهة البائسة، أولئك الذين لا يرجون مكافأة من أحد.»

ابتعد الملاك بعيدا، وأنظار الجميع تحدّق به مفتونين ببهائه وعظمته. خفتت الأنوار داخل القرية. التفت يوجين إلى رفاقه

وبادلهم نظرات غير مفهومة، وخيّم الصمت لبضع دقائق. سادت المكان أجواء هادئة، واختلطت المشاعر بين البكاء والدهشة والتفكّر. وتحت أنوار ذلك البدر المكتمل الأبيض، باتت القرية أشبه بمكان أسطوريّ تتخلّله هالة رماديّة تحجب الرفاق، وقد وقف كلّ واحد منهم غير بعيد عن صاحبه، وقد غشيهم الصمت، وتملّكتهم هيبة اللحظات وقداسة الموقف.

تناهى صوت غريب مألوف إلى مسامعهم، لكنّهم أنكروه، فهو يسكن ذكرياتهم البعيدة القديمة. ظنّوا لوهلة، أنّ نوعا خاصّا من السّحر الذي أصاب المكان جرّاء نزول الملاك من السماء، جعلهم يظنّون أنّه صوت قرع البوّابة الخشبيّة الكبيرة. فتجاهلوا الأمر، وسرح كل واحد منهم في عالمه الخاصّ المغلق، وتراءت لهم الرؤى البعيدة مختلطة بأحداث الماضي وذكريات التمرّد، وصور الغائبين من الضحايا والنساء المنفيّات عن القرية.

قال ماكسيم وقد تملّكته نوبة هستيريّة من البكاء:

-«لماذا حدث معنا كلّ ذلك؟ ألم نكن جديرين بحياة خالية من الفقد والعذاب والتيه؟ لماذا عاقبتنا الأقدار من قبل، ولماذا تضعنا اليوم في مفترق طريق لا نعلم أيّ السبل نسلك؟»

دنا منه يوجين وضمّه إلى صدره، كما يضمّ الأب ابنا حزينا خائفا:

-«هوّن على نفسك يا صديقي، فكلّ ما مررتم به كان اختبارا وقد تجاوزتموه معا.»

قاطعه وهو ينظر إلى عينيه، وقد فقد بعضا من حزمه وصلابته:

-«لكنّنا انحرفنا عن الطريق، وسلكنا دروبا شائكة قذرة. أنا لا أقدر على نسيان ما جرى. لقد وطئنا بأقدامنا الحضيض، ولم

نبالِ بكلّ تلك الأوقات المظلمة الحالكة التي انغمسنا فيها. إنّنا مسرفون! ولا نستحقّ أن نشفى من جراحاتنا، بل يجب أن نظلّ نتعذّب إلى الأبد، لعلّ قلوبنا تعود صافية نقيّة من جديد.»

كان الرفاق ينظرون تجاه ماكسيم بإشفاق، إذ راح يلوّح بيديه ويحاول إخفاء دموعه ومداراة وجهه عنهم. انتابتهم نفس المشاعر التي راودته، فاقتربوا منه وراحوا ينظرون في أعين بعضهم بعض، تلك العيون التي امتلأت ندما وحسرة ودموعا.

حينها كان صوت خافت يصدر من خلف الباب الخشبيّ الكبير مرّة أخرى، تفطّن له العجوز ديميتري هذه المرة، إذ لم يكن متأثّرا بالقدر الذي نال من رفاقه، حتّى يوجين كان يواسيهم ويشاركهم دموعهم وهم ينتحبون مثل الأطفال الحزانى. اقترب من الباب بحذر شديد، وحاول الإنصات لعله يسمع صوت قرعه من جديد.

في الجهة الأخرى، خلف الباب الخشبي الكبير، كانت هناك حركة غريبة. أطياف لا تكاد تعرف ملامحهم، يراقبون الأسوار العالية، بعضهم يتحسّس الباب بيديه، وآخرون يتلمّسون الحجارة البيضاء الملساء للأسوار. دارت بينهم حوارات متقطّعة، وتناثرت بينهم كلمات عابرة. هينمة خفيفة لا تكاد تُبين، وصوت بكاء حزين بدأ يُسمع. حرارة تنزل من المآقي وانفعالات لا حدود لها، ولا قدرة على السيطرة عليها. طيفان فقط صمتا، ولم يبدر منهما أيّ صوت، بقيا ينظران ويراقبان الموقف في خشوع وهيبة، تسمّرا في مكانهما، احتراما لهذا النّزق من العواطف الجيّاشة التي ازدانت بها اللحظات لتصير ذات قداسة ومعنى.

أطياف صغيرة تمسك بتلابيب الأطياف الأكبر منها، بعضهم ظلّ ينظر إلى عتبات القرية ومشارفها وثناياها الخارجيّة التي لا يحول بينهم وبينها سوى هذا السور العالي وذاك الباب الكبير. كأنّ الأطياف في حركاتهم وطقوسهم تلك، يخاطبون صورا قديمة وذكريات مازالت عالقة بجدران الذاكرة. بخطوات متثاقلة، تقدّموا من الباب، تحسّسوه وداعبوه في حنوّ، جعلوا يشمّون رائحة الجو الرطبة الباردة، المليئة بذكريات قديمة منسيّة.

نور خافت تسلّل من داخل القرية، وغطّى مساحة وجود الأطياف، فبدأت تتكشّف ملامحهم تدريجيّا، وبانت الوجوه كلّها، إلاّ وجها واحدا ظلّ مستترا من وراء شال حريريّ أسود. ولاح بوضوح وجه امرأة تقترب من الباب. شدّت بيديها الحلقة الكبيرة التي توسّطته، وحرّكتها بقوّة فأحدثت صوتا أثار زوج حمام، فطارا من عشّهما بعيدا.

وقف ديميتري مشدوها، انتبه الرفاق لهذا الصوت الغريب المنسيّ الذي لم يسمع منذ سنوات، فتأهّبوا واستنفروا؛ حملوا معاولهم وفؤوسهم، واستعدّوا لملاقاة هذا الزائر المجهول. فتح ديميتري الباب ببطء شديد، وأشار للرجال بالتراجع قليلا. أطلّ من الباب بحذر، وكأنّ شيئا اخترق جسده، فسقط على ركبتيه ووقع مغشيّا عليه. هال الرجال ما رأوه، فتملّكهم الخوف. لكن آندري تقدّم نحو الباب غير مبالٍ بأيّ شيء، وبشجاعة كبيرة، راح يلوّح بفأسه في الهواء. دنا وألقى نظرة من تلك الفجوة الصغيرة، فتراجع راكضا واخترق رفاقه وهو يبكي وعيناه مليئتان بالدموع. فاستنكر الرجال ذلك وخشوا الاقتراب. ظنّوا أنّ شيئا سيّئا ذا قوّة على إيذائهم يتربّص بهم في الخارج.

هبّت نسمة باردة، دخلت عبر تلك الفجوة من الباب، وقد حملت رائحة عطر ورائحة شهيّة مألوفة، رائحة قادمة من زمن ماض. دنا يوجين من الباب وقد استفزّته تلك الرائحة، وحرّكه الفضول. تقدّم بضع خطوات، فشعر بدقّات قلبه تتسارع بطريقة جنونيّة. استند إلى الجدار، وضع يده على قلبه، نزلت دمعة من عينيه، لم يفهم شيئا سوى أنّه في حالة خدر. تمالك نفسه، وأصرّ أن يكتشف سرّ تلك القوّة التي تختبئ خارجا، تلك القوّة التي أحدثت كلّ تلك الفوضى. ألقى نظرة متفحّصة حذرة، فارتسمت على وجهه ابتسامة، والتفت إلى الرجال يطمئنهم. وفتح مصراعي الباب، وقال بصوت هادئ ورصين:

-«مرحبا بكنّ.. تفضّلن بالدخول.»

* * *

صوتُ شيء ارتطم بالأرض. سقطت امرأة وأغميَ عليها، فاقتربت إحداهنّ منها مذعورة تتفحّصها. تسمّر الرجال في أماكنهم. وقفوا متصلّبين غير قادرين على الحركة. رموا الآلات والأسلحة من أيديهم، وعلت وجوههم ملامح مختلطة مربكة؛ ابتسامات على الوجوه، دموع حارقة حارّة تسيل بغزارة، كأنّها سدّ مائيّ قديم قد فاض فجأة وغمر الأنحاء وأخرج كامل ما فيه.

دخل الأطفال يركضون، والنسوة جثين على ركبهنّ وارتمين على الأرض يقبّلن التراب ويشممن رائحته؛ صراخ، بكاء، حشرجات، ودموع تسيل. ياكوبوس يركض تجاه زوجة أخيه القائد هرماندينا، يقبّلها ويحضنها بين ذراعيه كمن يحضن أختا غاب عنها عقودا من الزمن. أحد الرجال يركض خلف طفل

صغير، يحاول الإمساك به ليقبّله، والطفل يركض بعيدا، ثمّ يتوقف، ويعود ليرتمي بين ذراعيه. إحدى النسوة ظلّت متسمّرة أمام رجل، وهو يقف قبالتها كالصنم، لا يستطيعان الكلام، أمسكا أيدي بعضهما البعض وتعانقا بحرارة ودموع تغطّي وجهيهما، لتختلط وتمتزج بالكحل ويصير وجه الرّجل أسود بالكامل. آندري يجلس غير بعيد يلعب بالتراب ويرسم خطوطا ودوائر ويفسخها ويعاود الأمر مرّات ومرّات.

أفاق العجوز ديميتري من غيبوبته، ورفع رأسه ليشاهد كلّ تلك الفوضى العارمة. تفقّد جيبه، وأخرج آلة هارمونيكا صغيرة، مسح الغبار عنها، وأسند ظهره إلى الجدار وبدأ بالعزف.

العمة جيمينا تحاول معرفة ما الذي حصل لابنة أخيها، نزعت عن وجهها الشّال الحريريّ الذي كان يغطّيه، وحاولت إفاقتها. حينئذ سمعت صوت شيء وقع بقوّة وارتطم بالأرض. التفتت فإذا بشابّ يرقد مغشيّا عليه بالقرب منها، أسود الشعر وتحت عينه اليمنى شامة سوداء.

في خضمّ هذا اللقاء غير المتوقع، وقد سادت الأجواء حالة من السعادة والدموع والفرح والتذكّر والحنين، جلست جيمينا على الأرض، وضعت رأس ليندا على حجرها وضمّت رأسها بحنان وطوّقتها بذراعيها. أقبل آندري مسرعا حين رأى هذا المشهد، جلس على الأرض، وأمسك برأس يوجين وأسنده إلى صدره، والتقت عيناه بعيني جيمينا للمرّة الأولى، فغضّ بصره مبتسما، كأنّه يفكّر في أمر مّا.

بدأت ليندا تستفيق، حرّكت يديها، وفتحت عينيها، فرأت يوجين مستلقيا بين يدي صاحبه لا يحرّك ساكنا. فأطلقت

صرخة فزعة، وتحدّرت من عينيها دمعات. تحاملت على نفسها، وحاولت الوقوف فلم تستطع رغم مساعدة عمّتها لها. راحت تزحف تجاهه، حتّى دنت منه ومدّت يديها. أمسكت به، وحاولت جذبه من ثيابه، لكنّه ظلّ على وضعه ذاك مغشيّا عليه دون أيّ قدرة على الحراك. أمّا جيمينا فوضعت يديها على فمها تكتم صرخة أو شهقة مّا. أمسكت به من يده، وضغطت عليّه بقوة، كما كانت تفعل من قبل. فاحت من جسمها رائحة الورد الأحمر، تسلّلت عبر الشرايين والأوردة والعروق، حرّك يوجين يديه، فأحسّ بيد مألوفة الملمس، وبرقّة قديمة معهودة. خشي أن يفتح عينيه كي لا يفيق من هذا الحلم الشهيّ، لكنه آثر أن يتعرّف على تلك الفتاة من خلال خطوط يديها، فجعل يتحسّس ويمرّر إصبعه على كفّها، فارتسمت ابتسامة على شفتيه وسقطت دمعة من عينيه المغمضتين. فتحهما، فشاهد أجمل منظر في الدنيا، تحت أنغام موسيقى هارمونيكا ديميتري العذبة. قال بصوت هامس:

-«لقد تعانقت أرواحنا يا ليندا منذ غادرت، إنّ الغياب وصلٌ لا ينقطع. تفتّت قلبي يا ليندا، وبات فتاته طعاما للأرواح التائهة. لقد احترقنا وفاح بخور عشقنا في الكون، وأرواحنا انصهرت، فلا فراق بعد اليوم.»

ضغطت على يده مجدّدا بلطف، ولم تشح بعينيها عنه وهمست له:

-«من أجل هذه اللحظة يا حبيبي الغالي، كان يجب على الكون كلّه أن يكون.»

(7)

في الصباح الموالي، أشرقت الشمس ناعمة، كأنّها تراعي دقّة الواقع الجديد الذي تعيشه القرية. لم يكن متوقّعا في أوقات كهذه التطلّع إلى نهايات أشد حميميّة وبهجة، لكن بدا أنّ بعض القرويّين أفاقوا قبل الآخرين عازمين على أمر مّا.

صاح أحدهم مستعجلا:

-«هيّا.. هيّا.. وإلاّ سنتأخّر عن تنظيم حفلتنا، نحن لم نتأخر يوما عن القيام بواجباتنا، إنّه لمن الحمق تفويت هذا الأمر، فنحن موهوبون بالفطرة يا صديقي، ذلك ما نبرع فيه حقّا.»

جذب ماكسيم رفيقه من ياقته وهمس في أذنه غاضبا:

-«لمَ تصرخ أيّها الأحمق؟ أنا أقف بجوارك، ثمّ إنّ لدينا ضيوفا متعبين، لا نريد إيقاظهم في هذه الساعة المبكّرة.»

-«ليستيقظوا، إنه يومنا الكبير، لم أظنّ يوما أن نفعل أشياء كهذه. إنّ الأيّام أعجب من كلّ عجيب يا صديقي.»

كان الباب الخشبي الكبير مفتوحا يومها، وكانت النسمات والطيور تزور القرية كسابق عهدها. بدأ الاحتفال في ساعة متأخّرة عصر ذلك اليوم، وكانت الأفراح تعلن ميلاد عصر جديد لقرية باراديسيوس، عصر يكون فيه للنسوة مكانتهنّ وكلمتهنّ كحرائر، وكسيّدات حقيقيّات، ويكون الرجل فيه

رجلا بحقّ.

كانت ليندا في لحظة تجلّ دقيقة، انكشف لها من خلالها حجم تورّط العقل البشري وإلحاحه ليحيط ببعض الحقائق في الحياة، ولقد كانت هذه الحقيقة أنّ القدر ليس بالضرورة أمرا يمكن فهمه منذ الوهلة الأولى. لقد أدركت أنّ سرّ الغموض الذي يكتنف الوقائع في الحياة ليس أمرا اعتباطيّا يمكن سبر غماره متى أردنا، ورغم ذلك يظلّ الإنسان لحوحا متعجّلا دائما، في محاولاته المتكرّرة لفهم كلّ شيء. علمت أنّ كلّ ما حدث معها منذ اللحظة الأولى كان يقودها إلى مثل هذه النهاية، وهو ما جعلها تدرك أنّ عدم فهم بعض الأمور ليس علامة شرّ دائما، لأنّ ذلك يدعو إلى البحث ويحفّز الرغبة المتواصلة في المعرفة. بدت راضية بكلّ ذلك الوعي الجديد، كأنّ جميع تساؤلاتها وحيرتها القديمة تبدّدت في ساعة من نهار.

ظلّ ديميتري يعزف ألحانه الجميلة. أمّا يوجين، فلكم رغب لحظتها في أن يكون في وسعهم إحضار بيانو إلى الساحة كي تعزف ليندا بعض الموسيقى، لكن، من دون أن يشعر، فرّت نظرة فزعة من عينيه، وكست وجهه مسحة حزينة أسيفة، ارتجفت مفاصله، وتسلّلت حبّات عرق باردة عبر جسمه، وانتفض قلبه، كأنّ هذه الفرحة لم تطب له. أدرك أنّ اللحظة الراهنة مصيريّة، وأنّ العاطفة من شأنها أن تحجم وتحدّ من فهمه للأشياء، لكنّه بدا حاسما. لم يشأ أن يعيق أيَّ أمرٍ إنفاذ إرادته الحقيقيّة. لقد قرّر أن يطلق سراح نفسه. ظل يفكّر بوعي جديد في تلك الأمور التي تبدو مستنسخة. من أين أتيت؟ وإلى أين أمضي؟ أخفى دموعه قبل أن تتفطّن إليه ليندا. كانت كلّ لحظة يقضّيها معها تعادل

عمرا بأسره. لقد كثّف مشاعره وكلماته التي قالها للجميع كأنّه يعصر المعاني ويصبّها صبّا، ولا أحد فهم ما يدور بخلده. الجميع مرّوا عبره، عبر كلماته. لم تشح ليندا للحظة واحدة النظر عنه، كأنّها تستمدّ من نظراته وملامحه وصوته الذكريات، وتختزنها.

حين أقبل الليل، وبات الجو مظلما، ولجأ كلّ واحد إلى غرفته. كان هناك طيف يقف داخل غرفة ليندا يراقب سكينتها وهدوءها. بدا كأنه يلقي نظرة وداع أخيرة. وبصوت هامس قال: «ليلتك سعيدة يا حبيبتي..» ثمّ تسلّل إلى الخارج.

كان الطيف قد تجاوز البوابة الكبيرة متخفيا عن الأنظار متخفّفا من جميع الأعباء.